بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الإسلامية – غزة
عمادة الدراسات العليا
كلية الآداب
قسم اللغة العربية

شعر الهجاء في العصر المملوكي
دراسة نقدية

إعداد

الطالبة / تغريد عباس السقا

إشراف

الأستاذ الدكتور

نبيل خالد أبو علي

أستاذ الأدب والنقد في الجامعة الإسلامية

نائب رئيس مجمع اللغة العربية الفلسطيني

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في الأدب والنقد

١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إهداء

إلى والديَّ الكريمين
اللذين لم يبخلا بالدعاء لي أهدي ثمرة جهدي هذا

إلى زوجي الحبيب
الذي زرع التفاؤل في دربي وقدم لي كل سبل الدعم
وذلل لي الصعاب التي واجهتني فكان لي نوراً يضيء طريقي

وإلى أولادي فلذات كبدي
الذين تحملوا عني أعباء كثيرة
وحثوني على السير قدماً والثبات على الدرب

إلى كل محب للغة العربية
وغيور عليها وساع إلى رفع شأنها .

أهديهم جميعاً باكورة أعمالي

تغريد السقا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

شكر وتقدير

أتقدم بأسمى آيات الشكر والتقدير إلى

فضيلة الأستاذ الدكتور

نبيل خالد أبو علي

على ما بذله لي من مساعدة وتوجيه

وعلى ما منحني إياه من وقته الثمين

وعلى قراءته للبحث وتقييمه وتقويمه

وعلى سعة صدره في سبيل إنجاز هذا البحث

أسأل الله تعالى أن يجزيه عني خير الجزاء

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

شكر وعرفان

أحمد الله تعالى وأشكره على ما منحني وأنعم علىَّ من عطايا ، ووفقني بمعيته التي كانت لي عوناً ومدداً لإتمام هذه الدراسة . وما توفيقي إلا بالله عز وجل .

أزجي الشكر العميق إلى الأستاذ المشرف : الأستاذ الدكتور نبيل خالد أبو علي ، أستاذ الأدب والنقد في الجامعة الإسلامية / نائب رئيس مجمع اللغة العربية الفلسطيني ، لتشرفه بالإشراف على بحثي ، وسعة صدره معي ليرى هذا البحث النور.

وأقدم شكري الجزيل الوافر إلى عضوي لجنة المناقشة : الأستاذ الدكتور كمال أحمد غنيم ، أستاذ الأدب والنقد في الجامعة الإسلامية ، والدكتور محمد إسماعيل حسونة ، أستاذ الأدب والنقد المشارك في جامعة الأقصى ، لما يبذلونه من جهد مشكور في توجيه وتقويم النقص في هذا البحث لتعم الفائدة . أسأل الله تعالى أن ينفع بعلمهم الإسلام والمسلمين .

كما أتقدم بالشكر إلى الجامعة الإسلامية والقائمين عليها ، وإلى عميد كلية الآداب وأساتذتها ، وأخص بالذكر منهم أساتذة قسم اللغة العربية .

ولا يفوتني أن أقدم خالص الشكر والامتنان إلى الأستاذ عبد اللطيف زكي أبو هاشم ، مدير دائرة المخطوطات والآثار في وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ، الذي أمدني بمجموعة قيمة من المصادر والمراجع من مكتبته العامرة .

والشكر موصول للأستاذ القدير محمد محمود عوض الله ، نائب مدير دائرة التربية والتعليم / مدير التعليم المدرسي سابقاً في وكالة الغوث الدولية بغزة ، على مساندته ومساعدته لي .

وأخيراً أسأل الله أن يوفق ويسدد خطى كل من بذل جهداً ساعد في إثراء هذا البحث وإتمام الدراسة ، وأخذ بيدي لإكمال مسيرتها . وفقهم الله ورعاهم وأعانهم على الخير .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المقدمة

الحمد لله رب العالمين نحمده ونستعينه و نستغفره ، والصلاة والسلام على المصطفى سيد المرسلين ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، أما بعد

الشعر العربي هو أجمل وأعظم فنون الأدب العربي ، وكانت له الهيمنة الكبرى عند العرب ، ضم العديد من الفنون الشعرية ، ومنها كان الهجاء ؛ الذي هو جزء من طبيعة البشر ، بما تحمله هذه الطبيعة من محاسن أو مساوئ ، والإنسان بفطرته يبدأ بحسن الظن بالآخرين أولاً ، فإذا ما شعر بالخيبة أو الصدمة لجأ إلى الهجاء يعزي فيه نفسه ويخفف من آلامه . والشعراء أناس كغيرهم تسلحوا بفن الهجاء في أشعارهم ؛ ليعبروا به عن مشاعرهم الغاضبة . وتتناول هذه الدراسة شعر الهجاء في العصر المملوكي دراسة نقدية .

أسباب اختيار الموضوع :

العصر المملوكي هو عصر له مكانة بين عصور الأدب العربي تناول شعراؤه الهجاء بأنواعه المختلفة والمتجددة وبخصائصه المميزة ، إلا أنه لم ينل حظه من الاهتمام والدراسة كباقي العصور ؛ وذلك بسبب الرؤى الخاطئة التي كرست نظرة غير حقيقية ، ووجهت الاتهام إليه بأنه عصر انحطاط ؛ مما جعل الكنوز الأدبية الموجودة في هذا العصر تبقى مدفونة بحاجة لمن يكتشفها ويبحث فيها ؛ ليرى غزارة الأدب والعلم الذي تحويه ، ويبطل الادعاءات حوله ، ويكشف مدى حاجتنا لهذا الأدب ؛ الذي مازال بحاجة إلى الكثير من الجهود للعثور على ما بداخله من كنوز . ولأهمية العصر المملوكي في الأدب العربي وكثرة شعرائه وشيوع فن الهجاء في هذا العصر ؛ كان من المجدي بحث ودراسة هذا الموضوع ، إضافة إلى الانتصار لهذا العصر المظلوم الذي سبقت عليه الأحكام بالركود والانحطاط ، دون الخوض في مجاهله واستنطاق درره وكنوزه الأدبية .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أهداف الدراسة :

- ابتغاء مرضاة الله عز وجل .
- رصد الحركة الشعرية التي راجت في عصر من عصور الأدب العربي .
- محاولة رد التهم التي دارت حول شعر وشعراء العصر المملوكي .
- إثراء المكتبة ببحث خاص يدرس غرضاً من أغراض الشعر في العصر المملوكي .

الدراسات السابقة :

تبوأ الهجاء مكانة العالية في الشعر العربي خلال العصور الأدبية ، مما حدا بالباحثين والدارسين لعصور الأدب العربي إلى تناول هذا الغرض بالدراسة والاهتمام ، وقد نشر العديد من الكتب والمؤلفات التي أفردت جانباً هاماً لهذه الدراسات .

صعوبات البحث :

اعتمدت في مادة البحث على دواوين الشعراء التي استطعت الحصول عليها ، وارتأيت ألا تكون تراجم ونماذج شعراء العصر المملوكي إلا من بطون كتب كُتاب وأدباء أبناء ذلك العصر . وسعيت للحصول على رسائل وأبحاث علمية تكون لي عوناً في الدراسة فلم أعثر إلا على النادر منها . وتناولت بلهفة كل ما استطاعت يديَّ أن تصل إليه من مصادر أو مراجع أو أبحاث ؛ لكون لتكون عوناً في إتمام الدراسة ، رغم ضآلة ما حوته من معلومات حول فن الهجاء .

منهج الدراسة :

تحقيقاً للغاية السابقة اعتمدت في دراستي على المنهج النقدي التكاملي ؛ بما يحويه من مناهج تمكن الباحث من الإحاطة بجميع مكونات النص الأدبي . وقمت بتوزيع البحث على مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة فصول ، وخاتمة .

خطة البحث :

خلصت في المقدمة الحديث عن أهمية الموضوع ، والغاية من دراسته ، والمنهج الذي اتبعته في تحقيق هذه الغاية .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثم تناول التمهيد البيئة العامة للعصر المملوكي ، حيث تحدثت فيه عن البيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية .

ثم كان الفصل الأول ، والموسوم ب " الهجاء الفردي " ، وبدأت هذا الفصل بتوطئة تبرر غياب الهجاء الفردي والقبلي ، ثم كان الحديث في المبحث الأول عن هجاء النفس والشكوى من الفقر ، واهتم المبحث الثاني بدراسة الهجاء الهزلي الذي ساد في العصر المملوكي ، حيث رسم الشعراء صوراً كاريكاتورية صوروا بها الصفات المنبوذة في مجتمعهم .

وأفردت الفصل الثاني للهجاء السياسي والاجتماعي ، وقسمته إلى أربعة مباحث ، المبحث الأول تحدثت فيه عن هجاء المدن ، والمبحث الثاني تضمن هجاء رجال الدولة ، والمبحث الثالث الهجاء المذهبي والديني ، والمبحث الرابع اشتمل على النقد الاجتماعي ، الذي كان يدل على الجرأة التي اتصف بها شعراء ذلك العصر .

وخصصت الفصل الثالث للدراسة الفنية لشعراء فن الهجاء ، تناولت في المبحث الأول اللغة والأسلوب ، من حيث تقانات اللغة وأنواع الأساليب ، والمبحث الثاني تناولت فيه الموسيقا بنوعيها : الداخلية و الخارجية ، والمبحث الثالث تناولت فيه الصورة الشعرية من خلال : مصادر الصورة ، وأنواعها بقسميها : الجزئية والكلية .

أنهيت البحث بخاتمة أوردت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها في البحث ، وطرحت عدة توصيات ، وأخيراً رصدت أهم المصادر و المراجع التي استعنت بها .

اللهم اجعل هذه الدراسة في ميزان حسناتي ، ووفق أستاذي ومعلمي الفاضل الأستاذ الدكتور/ نبيل خالد أبو علي إلى ما تحبه وترضاه ، لما أمدني به من نصائح ومعلومات قيمة .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التمهيد

البيئة العامة للعصر المملوكي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يعتبر العصر المملوكي في مصر ، وبلاد الشام ، والحجاز ، من أهم عصور التاريخ الإسلامي ؛ إذ بلغ هذا العصر من حيث التطور الحضاري والعمراني مبلغاً عظيماً ، وانعكس ذلك على شتى العلوم والفنون ، ولا غرو أن كان هذا العصر هو عصر الموسوعات العلمية ، واتصف علماؤه ومصنفوه بالموسوعيين ، فكان الواحد منهم يؤلف في علوم وفنون ووضائع كثيرة ، كالفقه والأدب والطب والتاريخ وغيرها من الفنون ، ومن هنا نجد أن أغلب الكتب الفقهية المعتمدة ترجع إلى ذلك العصر .

ونظراً لعناية المماليك بالحركة العلمية ، وإنشائهم المدارس ، ورصد الأوقاف عليها ، وكفالة الأطفال الأيتام وتعليمهم ، فنشأت أجيال كثيرة من المتعلمين ، وظهر لفيف من العلماء الأجلاء ، نذكر منهم شهاب الدين النويري ، ابن فضل الله العمري ، القلقشندي ، تقي الدين المقريزي ، ابن حجر العسقلاني ، ابن تغري بردي ، شمس الدين السخاوي ، جلال الدين السيوطي ، وابن إياس وغيرهم .

بدأ العصر المملوكي حين تولت شجرة الدر مقاليد الحكم في القاهرة ، بعد مقتل نوران شاه ابن الصالح نجم الدين عام (٦٤٨ هـ – ١٢٥٠ م)[١] ، وكان المماليك حينئذ أمراء وقادة جيش . وقسم المؤرخون العصر المملوكي إلى مماليك بحرية ، حكموا من (٦٤٨ هـ/١٢٥٠ م – ٧٨٤ هـ/١٣٨٢ م) ، ومماليك جراكسة ، حكموا من (٧٨٤ هـ/١٣٨٢ م – ٩٢٢ هـ/١٥١٦ م)[٢] . وينتهي العصر المملوكي عند أغلب المؤرخين ، بدخول السلطان العثماني سليم الأول القاهرة عام (٩٢٣ هـ – ١٥١٧ م)[٣] ، ويعد البعض سقوط بغداد بيد التتار وانتصار سيف الدين قطز عليهم هي البداية الحقيقية للعصر المملوكي ، وذلك عام (٦٥٦ هـ – ١٢٥٨ م)[٤] .

---

(١) ينظر : جمال الدين بن تغري بردي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تقديم وتعليق محمد حسين شمس الدين ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٢م ، ٦/٣٣٠-٣٣١ .

(٢) ينظر : كامل بن حسين بن محمد الشهير بالغزي (ت١٣٥١هـ/١٩٣٣م) : نهر الذهب في تاريخ حلب ، المطبعة البارونية ، حلب ، د.ت ، ٣/٢٤٢ .

(٣) ينظر : محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠هـ/١٨٣٤م) : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، دار المعرفة ، بيروت – لبنان ، د.ت ، ٢/٥٥ .

(٤) ينظر : أحمد الهاشمي : جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، ط ٣٠ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، د.ت ، ٢/٤٥٩ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

استطاع المماليك بسط نفوذهم على مساحة كبيرة من العالم ، حيث كانت تسيطر دولتهم على " مشرق الشمال الأفريقي ، والشرق الأدنى والهلال الخصيب الذي يتمثل في شمالي العراق ، وبلاد الأرمن ، وشرقي شبه جزيرة آسيا الصغرى ، وبلاد الشام والحجاز واليمن "[١] .

تقلد المماليك حكم العالم الإسلامي بعد بروز دورهم الكبير في التصدي لعدوان التتار على بغداد ، وتمكنهم من رد الزحف الصليبي المتواصل على الديار المصرية والشامية ، ونقل مركز الخلافة من بغداد إلى مصر بعد زوال دولة العباسيين ، حتى أصبحت الخلافة الإسلامية في العصر المملوكي مركز القوة في العالم الإسلامي كله .

أصل المماليك ونشأتهم :

يعرف المملوك لغة بأنه ، " العبد الذي سبي ولم يُمْلَك أبواه "[٢] ، وفي التاريخ الإسلامي أطلق اسم المماليك اصطلاحاً على "... فئة من الرقيق الأبيض ، كان الخلفاء وكبار القادة والولاة في دولة الخلافة العباسية يشترونهم من أسواق النخاسة البيضاء ؛ لاستخدامهم كفرق عسكرية خاصة ؛ بهدف الاعتماد عليهم في تدعيم نفوذهم "[٣] .

أما عن أصل المماليك ، فقد " ذكر المؤرخون أن منشأ المماليك من جهات " قفجان " من شمالي آسيا ، وأنه لما غزا المغول تلك الأصقاع تحت قيادة (باتوخان) حفيد جنكيز خان ، ساموا أهلها الذل وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً ، حتى هاجر سكان الولايات القزوينية والقوقاسية من ديارهم ، فضعفت قبائلهم وتشتتت في بلاد آسيا الصغرى . وكانت تجارة الرقيق الأبيض والأسود في شدة انتشارها ، فكان النخاسون يبتاعون أحسن أبنائهم وأجملهم وأقواهم من أقاربهم وآبائهم ، أو كانوا يختطفونهم فيبيعونهم لمن شاء من أمراء وأغنياء الديار السورية والعربية والمصرية ، فيشب الفتى وقد نسي قومه وجنسيته ، واندمج في سلك أمثاله المماليك تحت رعاية مملوك منهم ، أو أمير من أمراء العرب أو غيرهم ، يقربونهم إليهم ، ويحبونهم لجمالهم وذكائهم وولائهم في خدمتهم ، فيرقونهم بعد أن يشتد ساعدهم في بطانتهم ، وعند ذلك تتطلع نفوسهم إلى مراتب

---

(١) محمد زغلول سلام : الأدب في العصر المملوكي ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، د.ت ، ١١/١ .

(٢) جمال الدين ابن منظور (ت٧١١هـ/١٣١٢م) : لسان العرب ، ط ٣ ، دار صادر ، بيروت ، د.ت ، مادة (ملك) .

(٣) محمد سهيل طقوش : تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ، ط ١ ، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٧م ، ١٥ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العز ومنازل الإمارة والشرف ، بل إلى الملك ذاته ..."[١] . وبهذا ازداد عدد المماليك في مصر والشام ، وكثر الإقبال على بضاعتهم ، وكان سيد المملوك يعد سيده وأستاذه معاً ؛ لما يقوم به من الحرص على تربيته وتنشئته بآداب وتعاليم إسلامية ، فإذا ما شب دربه على الفروسية وفنون القتال ، باذلاً في ذلك عطفه وماله ، لينشأ قوياً مدافعاً عن نفسه وأستاذه ، فإذا ما أصبح المملوك شاباً وله كيانه المستقل يتم تحريره من قبل سيده ، وقد يتأهل لسلم الإمارة ويرتقي بها ويصل إلى أعلى الدرجات ، وحينها يصبح لديه عدد من المماليك بحسب الدرجة التي وصل إليها بجدارته وعمله[٢] . وفي أخريات الدولة التركية زاد الاعتماد على جلب المماليك ، فاضطروا إلى إحضارهم كباراً ، فلم تكن تنشئتهم كسابقيهم ، مما أدى إلى فساد الدولة[٣] .

أولاً : البيئة السياسية :

تجشم المماليك مهمة الدفاع وصد الحملات الغازية لجحافل الصليبيين ؛ الذين وقف الأيوبيون في طريقهم ، وكانوا من أهم عوامل انكسارهم ودحرهم ، فعملوا على تصفية غزوهم ، وصد الخطر المغولي الذي دمر بغداد وأسقط الخلافة العباسية ، وكان وصول المماليك إلى الحكم قد بدأ تدريجياً وفق خطة محكمة أعدوها وعملوا على تنفيذها ، ساعدتهم على ذلك الظروف السياسية القائمة في عهد الأيوبيين . وبهذا يعد العصر المملوكي فترة مفصلية في التاريخ الإسلامي ، فهو نتاج مجموعة من المؤثرات للعصر الذي سبقه (العصر الأيوبي) ، وعدة تأثيرات على العصر الذي تلاه أيضاً (العصر العثماني) ، استطاعت فيه دولة المماليك تقديم الكثير للحضارة الإسلامية .

والملاحظ في طبيعة العصر المملوكي أنه قد جمع بين القوة الحربية والسياسية ، وبين الحضارة العلمية ، وربما لم تتوفر هذه الصفة في الكثير من عصور التاريخ .

---

(١) أنور زقلمة : المماليك في مصر ، ط ١ ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩٠م ، ٢١ .

(٢) ينظر : سعيد عاشور وآخرون : موسوعة الحضارة العربية الإسلامية ج٣ ، نظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين والمماليك – المرأة والمؤسسات الاجتماعية في الحضارة العربية ، ط ١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، عمان ، ١٩٩٥م ، ٣٤٦ .

(٣) ينظر : محمود رزق سليم : موسوعة عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، ط ٢ ، مكتبة الآداب ، الجماميز ، ١٩٦٢م ، القسم الأول ، الجزء ١٧/١ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بدأت الدولة الأيوبية عام (٥٦٧ هـ – ١١٧١ م) ، وانتهت عام (٦٤٨ هـ – ١٢٥٠ م) ، بعد أن دب الخلاف والنزاع بين خلفاء الدولة الفاطمية ووزرائها ، وأثار وزراؤهم الشغب في نزاعهم على السلطة وطمعهم في الملك ، مما أدى إلى تكرار حوادث القتل والاغتيالات ، كان من نتائجها انتشار الفوضى وعدم الأمن في جميع أرجاء البلاد . هذا من الناحية الداخلية ، ومن حيث الأوضاع الخارجية كانت هناك حروب تتأهب لها الدولة التي ستحكم والتي ستلي الدولة الفاطمية ، حيث إن بيت المقدس لم يكن في حوزة المسلمين بعد ، وقد قام بهذه المهمة صلاح الدين الايوبي[١] ومن بعده ، بحروبهم ومعاركهم العظيمة وعلى رأسها حطين الفاصلة ، وتم طرد آخر جحافل الصليبيين من بلاد الشام ومصر ، واستتب الملك لصلاح الدين ولذريته من بعده ؛ التي وللأسف لم تحافظ على هذا الملك ولم تصنه ، فضعف شأنهم في مصر والشام[٢] ، وتقاسم ملوكها الحكم فيما بينهم . وحين بدأ التنافس والصراع على بقاء ذلك الحكم ، عملوا على تكوين العصابات ؛ التي تمكن لكل منهم المحافظة على حكمه والتصدي للغزو الصليبي ؛ ولتحقيق ذلك أكثروا من جلب المماليك ، مما أدى إلى قيام دولة المماليك بعد ذلك[٣] .

كان لاعتماد أمراء الدولتين العباسية والأيوبية على المماليك الذين يمتلكونهم في تدعيم قوتهم ، واستخدامهم في الحياة العسكرية ، أكبر الأثر في ظهور المماليك على مسرح العالم الإسلامي وصعودهم إلى الحكم ؛ حيث دأب حكام الدولتين على شراء المماليك صغاراً ، واتخذوهم كقوة داعمة لتثبيت حكمهم ضد خصومهم . وفي خلافة هارون الرشيد[٤] ما يؤكد على تولي

---

(١) هو يوسف بن أيوب بن شاذي ، أبو المظفر ، صلاح الدين الأيوبي ، الملقب بالملك الناصر ، انتصر على الفرنج في معركة حطين ، ولد بتكريت عام ٥٣٢هـ/١١٣٧م ، توفي في دمشق عام ٥٨٩هـ/١١٩٣م . ينظر ترجمته في : أبو العباس شمس الدين بن خلكان (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت – لبنان ، د.ت ، ١٣٩/٧–٢٠٣ .

(٢) ينظر : أنور زقلمة : المماليك في مصر ، ١٦–١٧ .

(٣) ينظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ، ط ٢ ، دار النهضة العربية ، القاهرة – مصر ، ١٩٧٦م ، ٣–٤ .

(٤) هو ابن محمد المهدي ابن المنصور العباسي ، أبو جعفر ، خامس خلفاء الدولة العباسية في العراق ، ولد عام ١٤٨هـ/٧٦٥ م ، وتوفي عام ١٩٣هـ/٨٠٩ م . ينظر ترجمته في : جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ/١٥٠٥م) : تاريخ الخلفاء ، ط ١ ، دار ابن حزم ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٣م ، ٢٢٥–٢٣٥ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المماليك المراكز العليا ، فقد ذكر الطبري ، في كتابه تاريخ الرسل والملوك ، أن مدينة طرطوس[١] عمرت على يدي أبي سليم فرج[٢] ، الخادم التركي ، وذلك عام (١٧٠ هـ – ٧٨٦ م)[٣] .

وبعد وفاة المأمون هارون الرشيد ، تولى الخليفة العباسي المعتصم بالله أبو إسحاق[٤] الحكم ، فبدأ الاستكثار من وجود المماليك في العالم الإسلامي ، وزادت عدتهم ، وبدأ الاعتماد عليهم في الدواوين . وذكر في كتاب السيوطي أن المعتصم " هو أول خليفة أدخل الأتراك الديوان. وكان يتشبه بملوك الأعاجم ويمشي مشيتهم ، وبلغ غلمانه الأتراك بضعة عشر ألفًا ..."[٥] .

وفي عصر الدولة الطولونية ، في فترة ولاية الأمير أحمد بن طولون على[٦] مصر ، عام (٢٥٤ هـ – ٨٦٨ م) ، بدأ الاعتماد على المماليك في الجيش ، فالأمير أحمد هو "... أول من جلب المماليك الترك إلى الديار المصرية ، واستخدمهم في عسكرها "[٧] ، وقد استكثر من شرائهم حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك[٨] ، وكان والده مملوكاً لنوح بن أسد ابن سامان

---

(١) طَرَطُوس هي بلد تقع في بلاد الشام ، تطل على البحر قرب المرقب وعكا . ينظر : ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) : معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، د.ت ، ٣٠/٤ .

(٢) هو أبو سليم ، فرج ، الخادم التركي للرشيد ، بنى آذنة ، وأحكم بناءها ، وذلك بأمر محمد الأمين بن الرشيد ، وهو الذي عمَّر طرطوس . ينظر ترجمته في : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ١٣٣/١ .

(٣) ينظر : أبو جعفر الطبري (ت٣١٠هـ/٩٢٢م) : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ٢ ، دار المعارف ، القاهرة – مصر ، د.ت ، ٢٣٠/٨ .

(٤) هو محمد بن هارون الرشيد ، أبو إسحاق ، المعتصم باللَّه العباسي ، ولد عام ١٨٠هـ/ ٧٩٦م ، وتوفي عام ٢٧٧هـ/٨٩٠ م . ينظر ترجمته في : السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ٢٦٤-٢٦٩ .

(٥) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ٢٦٥ .

(٦) هو أبو العباس ، أحمد بن طولون ، ملك مصر والشام ، ولي مصر من قبل المعتز بالله ، ثم استولى على دمشق والشام أجمع ، وأنطاكية والثغور ، ولد عام ٢٢٠هـ/٨٣٥ م ، وتوفي عام ٢٧٠هـ/٨٨٤ م . ينظر ترجمته في : ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ١٧٣/١ .

(٧) أحمد بن علي القلقشندي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م) : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، المطبعة الأميرية ، القاهرة – مصر ، ١٩١٤م ، ٤٨٢/٣ .

(٨) ينظر : محمد بن أحمد بن إياس (ت٩٣٠هـ/١٥٢٤م) : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، القسم الأول ، ط ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٢م ، ١٦٢/١.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الساماني[١] ، عامل بخارى وخراسان ، حيث أهداه نوح إلى المأمون بن الرشيد[٢] في جملة رقيق، ورقاه المأمون بعد ذلك حتى أصبح من جملة الأمراء ، وذلك عام (٢٠٠ هـ– ٨١٦ م)[٣] .

واعتمدت الدولة الإخشيدية على المماليك كما اعتمدت عليهم قبل ذلك الدولة الطولونية ، ففي ولاية محمد بن طغج الإخشيد[٤] ، كان يمتلك ثمانية آلاف مملوك[٥] .

وفي عهد الملك الصالح نجم الدين بن أيوب[٦] عام (٦٤٤ هـ – ١٢٤٧ م) ، رأى أن يثبت ملكه بجنود جدد ، وحتى يتم له ذلك أكثر من شراء المماليك بعد حكمه لمصر ، حتى أضحى معظم جيشه من الأتراك ، وكان يحرص على تربيتهم تربية خاصة . واستغل المماليك بعد ذلك سطوتهم ومكانتهم عند الملك نجم الدين ، فأخذوا بمضايقة الشعب ، فضاق بهم الناس ، واضطر نجم الدين إلى إسكانهم في قلعة الروضة وسماهم البحرية ؛ التي قامت عليها فيما بعد دولة المماليك الأولى[٧] . وفي فترة حكم الملك الصالح نجم الدين نزل الفرنج دمياط ، ولم يكن هو موجوداً بها ، فلما علم بذلك قدم إليها وهو مريض ، فمات بناحية المنصورة . عندها كتمت زوجته شجرة الدر خبر موته ، وتولت هي إدارة الأمر ، كما استدعت ابنه توران شاه من حصن

---

(١) هو نوح بن أسد بن سامان ، صاحب سمرقند ، وليها في أيام المأمون العباسي ، ثم صحب المأمون في إحدى زياراته لخراسان ، وعاد معه إلى بغداد ، فلزم خدمته إلى أن ولاه ما وراء النهر عام ٢٣٧هـ/٨٥٢ م ، توفي عام ٢٤٠هـ/٨٥٥ م . ينظر ترجمته في : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ٣/٣و٥ . وخير الدين الزركلي (ت١٣٩٦هـ/١٩٧٦م) : الأعلام ، ط ٥ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، د.ت ، ١٩٨٠م ، ٥٠/٨ .

(٢) هو عبد الله بن هارون الرشيد ، أبو العباس ، سابع خلفاء بني العباس في العراق ، ولد عام ١٧٠هـ/٧٨٦ م ، وتوفي عام ٢١٨هـ/٨٣٣ م . ينظر ترجمته في : السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ٢٤٣–٢٤٩ .

(٣) ينظر : ابن إياس : بدائع الزهور ، القسم الأول ، ١٦١/١ .

(٤) هو محمد بن طغج بن جف ، الملقب بالإخشيد ، تولى ولاية مصر في عهد المطيع لله أبو القاسم ، والإخشيد لقب تعني ملك الملوك ، ولد عام ٢٦٨هـ/٨٨٢ م ، وتوفي عام ٣٣٤هـ/٩٤٦ م . ينظر : السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ٣١٥ .

(٥) ينظر : السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ٣١٥.

(٦) هو الملك الصالح نجم الدين ، ابن السلطان الملك الكامل محمد بن السلطان الملك العادل أبي بكر محمد بن أيوب ، سلطان الديار المصرية ، وآخر سلاطين بني أيوب بمصر القائم بدولة الأتراك ، ولد عام ٦٠٣هـ/١٢٠٦م ، وتوفي عام ٦٤٧هـ/١٢٤٩م . ينظر ترجمته في : جمال الدين بن تغري بردي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م) : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، تحقيق محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د.ت ، ٢٢٧/٣–٢٢٨ .

(٧) ينظر : محمد سهيل طقوش : تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ، ٢٦–٢٧ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كيفا[١] وسلمته مقاليد الحكم ، إلا أنه أساء تدبير الأمور وأساء إلى مماليك أبيه البحرية حتى خافوه فتآمروا على قتله ، وتم لهم ذلك . وبموته قضوا أيضاً على دولة بنى أيوب ، في عام (٦٤٨ هـ – ١٢٥٠ م)[٢] ، وبذلك بدأ حكم المماليك البحرية .

عندما علم الصليبيون بوفاة الملك نجم الدين ، انتهزوا الفرصة وزحفوا نحو المنصورة ، عندها تولى المماليك البحرية إنقاذ الوضع ، وقاتلوهم بقيادة فارس الدين أقطاي الصالحي ، وأسروا الملك لويس التاسع[٣] . وبعد مقتل نوران شاه فكر المماليك بالعمل الجدي للصعود إلى الحكم ، فبدأوا بتمهيد الطريق لذلك ، وقرروا في البداية تتويج شجرة الدر[٤] حاكمة لمصر ، وأن يكون الأمير عز الدين أيبك[٥] التركي الأصل هو مقدم العسكر ، وبهذا كما يقول المقريزي : "... شجرة الدر أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك ..."[٦] .

---

(١) هي بلدة وقلعة تطل على دجلة وجزيرة ابن عمر في ديار بكر . ينظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٢٦٥/٢.

(٢) ينظر : تقي الدين المقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي ، ط ١ ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩٨م ، ١٢٣/٣ .

(٣) ينظر : محمد سهيل طقوش : تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ، ص ٣١–٣٢ . قاد لويس التاسع ملك فرنسا الحملة الفرنسية الكبرى ضد مصر ، انتهت بهزيمة الجيش الصليبي وأسر الملك لويس ، واضطر الصليبيون للرحيل مقابل فدية كبيرة . ينظر : قاسم عبده قاسم وآخرون : موسوعة الحضارة العربية الإسلامية ج٣ ، أثر الحروب الصليبية في العالم العربي ، ط ١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٧م ، ٢٤٦ .

(٤) شجرة الدر هي جارية الملك الصالح نجم الدين ، وقد كانت تركية الجنس ، وقيل أنها أرمينية ، وولدت له ابناً سمى خليل مات وهو صغير ، تولت حكم مصر بعد مقتل الملك نوران شاه ، حيث أجمع المماليك البحرية بمشورة أصحاب الرأي بقلعة السلطان نجم الدين صالح على توليتها أمر المملكة ، توفيت عام ٦٥٥هـ/١٢٥٧م. ينظر : تقي الدين المقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) : السلوك لمعرفة دول الملوك ، القسم الثاني ، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة ، ط ٢ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٧م ، ٣٦١/١ . وينظر : صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٣م) : الوافي بالوفيات ، تحقيق أحمد الأرنؤوط و تركي مصطفى ، دار إحياء التراث ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٠م ، ٧٠/١٦ .

(٥) هو أيبك بن عبد الله الصالحي النجمي ، عز الدين التركماني ، أول سلاطين المماليك البحرية في مصر والشام ، كان مملوكا للصالح نجم الدين أيوب ، وأعتقه فصار في جملة الأمراء عنده ، وجعل مقدماً للعساكر بعد مقتل الملك المعظم نوران شاة وقيام زوجة أبيه شجرة الدر بالأمر ، توفي عام ٦٥٥هـ/١٢٥٧م . ينظر ترجمته في : الصفدي : الوافي بالوفيات ، ٢٦٣/٩–٢٦٥ .

(٦) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، القسم الثاني ، ٣٦١/١ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثم تزوجت شجرة الدر من عز الدين أيبك ، وولى ملك مصر عام (٦٥٥ هـ – ١٢٥٧ م) ، وبقي مدة في الحكم شريكاً للملك موسى بن الناصر[١] ، ثم استقل بالملك وحده بعد قتله لرأس المماليك الصالحية الفارس أقطاي[٢] عام (٦٥٢ هـ – ١٢٥٤ م) ؛ إلا أنه قتل بداره على يد جواري زوجته شجرة الدر ؛ بعد أن علمت بعزمه على الزواج من ابنة صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ .

بعد مقتل عز الدين أيبك اتهم مماليكه ومنهم مملوكه الأكبر سيف الدين قطز[٣] زوجته شجرة الدر بقتله ، فقاموا بالفتك بها وألقوها على مزبلة ، إلى أن تم نقلها بعد ثلاثة أيام ، وبإشارة من الأمير سيف الدين قطز ولى الأتراك الحكم لنور الدين ابن عز الدين ، ولقب بالملك المنصور[٤] .

عندما كان كبار رجال عز الدين أيبك ؛ علم الدين الغتمي ، وسيف الدين بهادر غائبين استغل سيف الدين قطز الفرصة وخلع نور الدين علي بن المعز أيبك ، وقبض على كبار المعزية حين عودتهما ، وأصبح هو ملكاً على مصر ولقب بالمظفر[٥] . ويعد صاحب النجوم الزاهرة ابن تغري بردي الملك المظفر قطز أول ملك تركي على الشام فيقول : " والملك المظفر قطز هو أول من ملك البلاد الشامية واستناب بها من ملوك الترك "[٦] .

عام (٦٥٦ هـ – ١٢٥٨ م) ظهرت الفتنة في أهل بغداد ، ولم تكن هذه المرة الأولى لهم ، فقد كانوا في تناحر مستمر ، إلا أن ابن الخليفة المستعصم بالله ، أبو بكر ، ركن الدين أمر بنهب كرخ الشيعة لحادثة كانوا قد فعلوها ، فعظم ذلك على وزير الخليفة مؤيد الدين بن العلقمي ، وقد

---

(١) هو موسى بن الناصر يوسف بن المسعود أقسيس بن الكامل ، من بني أيوب ، تولي الحكم وعمره عشر سنوات شراكة مع عز الدين أيبك . للاستزادة : ينظر : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ٧/٥-٦ .

(٢) هو فارس الدين أقطاي الجمدار ، كبير الأمراء ، طمع بالملك ، فرتب له المعز جماعة للفتك به ، ومنهم قطز . للاستزادة : ينظر : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ٧/١٠-١١ .

(٣) هو سيف الدين بن عبد الله المعزي ، من مماليك المعز ، هزم التتار في عين جالوت ، وهو الذي قتل الفارس أقطاي ، توفي عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م . شمس الدين الذهبي (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م) : سير أعلام النبلاء ، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرنؤوط ، ط ٣ ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٥م ، ٢٣/٢٠٠-٢٠١ .

(٤) ينظر : أبو الفداء اسماعيل بن عمر ابن كثير (ت٧٧٤هـ/١٣٧٣م) : البداية والنهاية ، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي ، ط ١ ، دار هجر للطباعة والتوزيع والإعلان ، ١٩٩٨م ، ١٧/٣٥٢-٣٥٣ .

(٥) ينظر : أبو حفص زين الدين ابن الوردي (ت٧٤٩هـ/١٤٤٨م) : تاريخ ابن الوردي ، ط ١ ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، ١٩٩٦م ، ٢/١٩٦ .

(٦) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ٧/٧٧.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كان رافضي المذهب ، فتحالف مع التتار وأطمعهم في بغداد ليكون هو الخليفة العلوي عليها بعد ذلك[١] .

عندما داهم التتار بلاد الشام رأى سيف الدين قطز أن الوقت قد حان للهجوم عليهم ، فجهز نفسه لغزوهم ، والتف حوله عسكر الشام وبايعوه ، والتقى بجيشه مع التتار في عين جالوت ، وكان قائد التتار كتبغا ، وانتصر سيف الدين على التتار ، وقتل مقدم عسكره وأصيب جواده كذلك[٢] .

بعد انتصار الملك قطز وهزيمته للتتار ، فرح أهل دمشق بهذا النصر فرحاً شديداً ، واستقبلوه في موكب عظيم ، فولى عليها صاحب حمص الملك الأشرف والملك المنصور صاحب حماة ، واستطاع استرداد حلب من التتار على يد الأمير ركن الدين بيبرس[٣] ، الذي كان قد وعده بنيابتها بعد عودته ، إلا أنه استناب عليها علاء الدين ابن صاحب الموصل ، فوقعت الضغينة بينهما[٤] ، واتفق الأمير ركن الدين بيبرس مع جماعة من الأمراء على قتله . وحينما توجه إلى الديار المصرية عائداً من دمشق لحق به ركن الدين وجماعته ، وأخذ يده ليقبلها ، فقبض عليها وهجم عليه الأمراء بالسيوف ، وطرحوه عن فرسه المصاب وأردوه قتيلا ، وعادوا إلى أماكنهم رافعين سيوفهم ، فعرف الناس بالخبر . وعندما أقر ركن الدين بيبرس بقتله للملك المظفر قطز ، صار الأمراء يخشون على تولية أنفسهم فيصيبهم ما أصاب غيرهم ؛ فاتفقوا على مبايعة بيبرس البندقداري ملكاً عليهم ، ولقبوه بالملك الظاهر بيبرس ، وهكذا فرض بيبرس نفسه وتربع على سدة الحكم ، وبعد أن كانت مراسيم الفرح والزينة معدة لاستقبال قطز ، أصبحت لمبايعة الظاهر بيبرس على الحكم[٥] .

---

(١) ينظر : ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، ١٨٩/٢ .

(٢) ينظر : الصفدي : الوافي بالوفيات ، ١٨٩/٢٤ .

(٣) هو السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحى ، وهو الرابع من ملوك دولة الترك بمصر ، تركى الجنس ، ملك الديار المصرية والبلاد الشامية ، ولد عام ٦٢٠هـ/١٢٢٣م ، وتوفي عام ٦٧٦هـ/١٢٧٧م . ينظر ترجمته في : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ٨٦/٧-١١١ .

(٤) ينظر : ابن كثير : البداية والنهاية ، ٤٠٤/١٧ .

(٥) ينظر : ابن كثير : البداية والنهاية ، ٤٠٥/١٧-٤٠٦ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهكذا كانت الشام في عام (٦٥٦ هـ – ١٢٥٨ م) للسلطان الناصر ابن عبد العزيز[١] ، ثم صارت لهولاكو ملك التتار ، ثم للمظفر قطز ، ثم للظاهر بيبرس . وكان على بيبرس مواصلة تتبع جموع التتار ليضمن عدم عودتهم مرة أخرى ، فلحق بهم إلى أطراف البلاد ، وتتبعهم أهل البلاد حتى قتل التتار شر قتلة ولم ينج منهم إلا القليل[٢] .

واستطاع المماليك توطيد ملكهم بعد تصديهم للتتار وقضائهم على الصليبيين عام (٦٩٠ هـ – ١٢٩٢ م) ، إلى أن أضحى لدولة المماليك شأن عظيم ، بعد قضاء سلاطين المماليك على جميع الإمارات الصليبية المتبقية ، حينها أدرك الصليبيون فشل محاولاتهم للقضاء على مصر والشام ، على الرغم مما بذلوه من أجل ذلك .

ثم جاء عهد جديد بعد تولي السلطان قلاوون الحكم ، " ويعتبر قلاوون[٣] من أعظم سلاطين هذه الدولة ، لما قام به من فتوح وأعمال جليلة ، ولأنه رأس أسرة قلاوون التي تتابع على عرش مصر منها أربعة عشر ملكا . وحكموها وحدهم قرابة مائة عام ، وكان قلاوون مغرماً بشراء المماليك الجدد ، قيل : بلغت عدة ما اشتراه اثنا عشر ألف مملوك . وقيل : أقل "[٤] .

عمل السلطان قلاوون على ردع الفتن التي أثارها سنقر الأشقر[٥] نائب دمشق ، الذي رفض الاعتراف بسلطنته ، وتعاون مع مغول فارس والعراق ضده ، فقام قلاوون بعقد هدنة مع الصليبيين مدة عشر سنوات ؛ للتفرغ لهذه الفتن الداخلية ، وبعد أن تم له إخماد هذه الحركة بدأ

---

(١) هو يوسف (الناصر) بن محمد ابن الظاهر غازي ، ابن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، آخر ملوك بني أيوب ، ولد عام ٦٢٧هـ/١٢٣٠م ، وتوفي عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م . ينظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ٢٣/٢٠٤-٢٠٥ .

(٢) ينظر : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ٧/٧٣-٧٤.

(٣) هو قلاوون ، أبو المعالي ، سيف الدين ، السلطان الملك المنصور ، أول ملوك أسرة قلاوون بمصر والشام ، والسابع من ملوك الترك وأولادهم بمصر ، كان من المماليك وأعتقه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، توفي عام ٦٨٩هـ/١٢٩٠م . ينظر ترجمته في : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ٧/٢٤٨-٢٧٧.

(٤) محمود رزق سليم : موسوعة عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، القسم الأول ، الجزء ٢٩/١ .

(٥) هو شمس الدين الصالحي ، حبسه الملك الناصر ، وأخرجه هولاكو ، ورفض مبايعة قلاوون . ينظر : الصفدي: الوافي بالوفيات ، ١٥/٢٩٨ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالعمل للقضاء على المغول ، وهزمهم شر هزيمة[١] . وتوفي المنصور قلاوون عام (٦٨٩ هـ – ١٢٩٠ م) بعد أن أذل التتار والفرنجة[٢] .

في عام (٧٨٤ هـ – ١٣٨٢ م) بدأ عهد الدولة الجركسية ، وأصل ملوكها من الجنس الجركسي ، أحضروا في عهد المنصور قلاوون من المناطق الواقعة شمال بحر قزوين بأسعار رخيصة على الرغم من شجاعتهم وقوتهم ، فزاد الإقبال على شرائهم[٣] ، " وكان الملك المنصور قد أفرد من مماليكه ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك من الأمراء والجراكسة وجعلهم بالقلعة ، وسماهم البرجية ، وأقام نوابه في البلدان من مماليكه ..."[٤] .

في عهد الظاهر برقوق[٥] تم السماح للجراكسة بالنزول من القلعة إلى القاهرة والسكن فيها ، فأثاروا حالات الشغب والسلب والنهب ، فانهار الجيش ، وفقد السلاطين السيطرة عليهم ، وإعادة الأمن للبلاد ، مما أدى إلى تدهور سلطة الدولة ؛ لعجز سلاطين الدولة الحاكمة عن ردعهم ، والقضاء على الفتن والمنازعات بين طوائف المماليك . ومع ذلك حرص سلاطين دولة المماليك الجراكسة على حصر صراعاتهم في الداخل ، ولم يسمحوا للقوة الخارجية أن تتدخل في شئون بلادهم ، وظلت المحاولات مستمرة للقضاء عليهم ، وإنزال الضربات القاسية بهم[٦] .

وكما خاض المماليك في بداية الدولة البحرية معركة عين جالوت ، واستطاعوا القضاء على الزحف المغولي ، ثم مواصلتهم للقتال ضد الصليبيين والمغول إلى أن تمكنوا من تحرير الكثير من سواحل الشام ، كذلك في دولة الجراكسة استطاع المماليك الجراكسة التصدي للحروب

---

(١) للاستزادة : ينظر : قاسم عبده قاسم : عصر سلاطين المماليك ، التاريخ السياسي والاجتماعي ، ط ١ ، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية ، مصر ، ١٩٩٩٨م ، ١١٧–١١٨ .

(٢) للاستزادة : ينظر : ابن إياس : بدائع الزهور ، القسم الأول ، ١/٣٥٠–٣٥١.

(٣) ينظر : قاسم عبده قاسم : عصر سلاطين المماليك ، التاريخ السياسي والاجتماعي ، ١٤٢ .

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ٢٧٩/٧ .

(٥) هو برقوق ، أبو سعيد سيف الدين ، الملك الظاهر ، أول من ملك مصر من الجراكسة ، جلبه إليها أحد تجار الرقيق ، ثم أعتق وخدم كنائب سلطنة في الشام ، وعاد إلى مصر فولي أتابكية العساكر ، ثم تولى الملك ، ثم خلع ، ثم عاد للحكم ، ولد عام ٧٣٨هـ/١٣٣٨م ، وتوفي عام ٨٠١هـ/١٣٩٨م ، وحكم قرابة ٢١عاماً . ينظر ترجمته في : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ١٨١/١١–٢٦٣ .

(٦) ينظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ، ١٥٩–١٦٠ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الصليبية المتواصلة، وتمكنوا من إخضاع الحجاز لسلطتهم[١] . وحكم الجراكسة حتى سقوط دولة المماليك عام (٩٢٣ هـ – ١٥١٧ م) ، واستعانوا في حكمهم بالمماليك المجلوبين كباراً ؛ الذين لم يتم تقويمهم والعناية بتربيتهم منذ الصغر وتنشئتهم التنشئة التي قامت عليها الدولة الأولى ، مما كان له أكبر الأثر في سقوط الدولة . وهناك من يرى أن هذا هو الاختلاف الوحيد بينهما ، ولم يكن العامل الرئيسي في سقوط دولة المماليك ، حيث تشابهت الدولة البحرية ، والدولة الجركسية في أهم الأمور ، ويتبنى هذا الرأي محمود رزق سليم ، فيرى أنهما تبعا النظام نفسه في حكم الدولة ، إلا أن الفتن والمؤامرات الداخلية لم تتوقف طيلة عصر المماليك ، وازدادت حدتها في الدولة الجركسية ، ومع ذلك امتد نفوذ مصر في عهديهما معاً[٢] .

أما ابن تغري بردي فيفتخر بدولة المماليك البحرية الأولى ويقول مقارناً بينها وبين دولة المماليك الجركسية الثانية : " وأعجب من هذا كله أن أولئك كانوا على حظ وافر من الأدب والحشمة والتواضع مع الأكابر ، وإظهار الناموس وعدم الازدراء بمن هو دونهم ، وهؤلاء إست في الماء وأنف في السماء ، لا يهتدى أحدهم لمسك لجام الفرس ، وإن تكلم تكلم بنفس ؛ ليس لهم صناعة، إلا نهب البضاعة ؛ يتقوون على الضعيف ، ويشرهون حتى في الرغيف ؛ جهادهم الإخراق بالرئيس ، وغزوهم في التبن والدريس ؛ وحظهم منقام ، ولا مروءة لهم والسلام "[٣] .

ينتهي عصر الدولة التركية بهزيمة السلطان العثماني للسلطان التركي قانصوه الغوري[٤] في معركة مرج دابق بالشام ، وهزيمته لطومان باي[٥] في معركة الريدانية بمصر ، وبذلك دخلت

---

(١) ينظر : كمال الدين الدميري (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) : حياة الحيوان الكبرى ، وضع الحواشي والتقديم أحمد حسن بسج ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٤م ، ١/٣-٤ .

(٢) ينظر : محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، القسم الأول ، الجزء ١/٤١ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ٧/٢٧٨-٢٧٩ .

(٤) هو قانصوه بن عبد الله الظاهري الغروي ، أبو النصر ، سيف الدين ، جركسي الأصل ، ولد عام ٨٥٠هـ/١٤٤٦م ، ولقب بالملك الأشرف ، انهزم جيشه في معركة مرج دابق قرب حلب ، أمام السلطان العثماني سليم الأول ، فمات قهراً ، ووقع عن فرسه عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م . ينظر ترجمته في : نجم الدين محمد بن محمد الغزي (ت١٠٦١هـ/١٦٥١م) : الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، تحقيق خليل المنصور ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٧م ، ١/٢٩٥-٢٩٨ .

(٥) هو طومان باي ، جركسي الأصل ، ولد عام ٨٧٩هـ/١٤٧٤م ، اشتراه قانصوه الغوري ، وبويع له بولاية عدة مدن ، وقاتل السلطان العثماني في معركة شرسة عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م ، واستطاع العثمانيون بعد ذلك الظفر به وتم إعدامه شنقاً ، وكانت وفاته عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م . ينظر : الزركلي : الاعلام ، ٣/٢٣٣ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مصر والشام في الولاية العثمانية .

ثانياً : البيئة الاقتصادية :

حالة البيئة الاقتصادية كانت نتيجة طبيعية للظروف السياسية في ذلك الوقت ، حيث بدأ الاهتمام في بداية العصر بتنمية القوة العسكرية لإعدادها لمواجهة الأعداء ، وقمع وإخماد المؤامرات الداخلية والخارجية وإخمادها ، فعمد المماليك إلى تقوية الجيش المملوكي بالقيام بعملية جلب واسعة لشراء المماليك الجدد ، وكانت الوسيلة لإعالة جيوش المماليك الاعتماد في إدارة البلاد على الإقطاعات ؛ وذلك بتقسيم الأرض الزراعية في مصر على أربعة وعشرين قيراطاً . أما عن كيفية تقسيم الأرض فذكرها ابن خلدون بقوله : "... كانت مصر منقسمة على أربعة وعشرين قيراطاً ، أربعة منها للسلطان والكلف والرواتب ، وعشرة للأمراء والإطلاقات والزيادات ، وعشرة للأجناد الحلقة ، فصيروها عشرة للأمراء والإطلاقات والزيادات والأجناد ، وأربعة عشر للسلطان فضعف الجيش ..."[(١)] .

ومن الطبيعي أن يضعف الجيش في ظل هذا التقليص للإقطاعات التي كانت تعطى له ، مما أدى إلى إثارة الفتن ومنع الحقوق . وهكذا في ظل هذا النظام الإقطاعي انقسم المجتمع المصري في العصر المملوكي إلى طبقتين ، "... طبقة من الحكام العسكريين لهم كل الامتيازات والحقوق ، ويملكون الأراضي الزراعية كلها ، في مقابل الرعية التي اقتصر دورها على الإنتاج ودفع الضرائب ، ولم يكن من حق أفرادها أن يشاركوا في مسؤوليات الحكم والإدارة ، وقد انعكس ذلك بطبيعة الحال ، على شكل النشاط اليومي في الحياة المصرية في ذلك الوقت "[(٢)] . كذلك تغيرت الحياة الاقتصادية نتيجة لاهتمام بعض أصحاب الحكم في دولة المماليك بتطوير الزراعة ، والعمل على زيادة الأراضي الزراعية ، واهتمامهم برفع بعض المظالم التي كانت مفروضة على الناس ، ومنهم السلطان المنصور قلاوون ، فقد أبطل وظيفة ناظر الزكاة التي كانت تؤخذ ممن عنده مال ، فإذا مات الرجل أو فقد ماله لسبب من الأسباب ، لا تسقط عنه الزكاة ، وتؤخذ من ورثته ، كما أبطل المنصور وظيفة أخذ المال من المبشرين الذين يبشرون بالفتح أو بالنصر ،

---

(١) ابن خلدون (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) : تاريخ ابن خلدون ، تحقيق خليل شحادة ، ط ٢ ، دار الفكر ، بيروت – لبنان ، ١٩٨٨م ، ٤٧٠/٥ .

(٢) قاسم عبده قاسم وآخرون : موسوعة الحضارة العربية الإسلامية ج٣ ، بعض مظاهر الحياة اليومية في عصر سلاطين المماليك ، دار الفارس للنشر والتوزيع ، ط ١ ، عمان ، ١٩٩٥م ، ٢٨٦ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكان يؤخذ من الناس ثمن وفاء النيل عند وفائه ، فأبطل كل ذلك وجعل مصروفه من بيت المال[١] .

أما عن الصناعة فقد ازدهرت حرف وصناعات في العصر المملوكي تناسبت مع البيئة في ذلك العصر ، فطبيعة النظام السياسي في ذلك العصر ، وهو النظام الإقطاعي العسكري وعلاقته بالرعية ، وطبيعة النظام الاجتماعي الطبقي ، فرضت بعض أنماط الحرف والصناعات في المجتمع وفي حياة الشعب اليومية ، وجعلت بعضها يرتبط بحياة الناس العاديين ، كما ارتبط بعضها بحياة الحكام القائمين على ثروة البلاد ومواردها ، وارتبط غيرها بحياة أصحاب القصور بما يتناسب مع مظاهر حياة الرفاهية التي يعيشونها ، من مبان ضخمة وخيول وزينة في المأكل والملبس وغير ذلك[٢] .

كما كثرت الأسواق نتيجة للنمو السكاني الذي ارتفع مع ازدياد عدد الجنود المماليك المجلوبين إلى البلاد ، وكانت لكل مدينة أسواقها الخاصة ، واكتظت هذه الأسواق بالبضائع المختلفة ، وكان هناك أسواق خاصة بهؤلاء الجنود تباع فيها لوازمهم وملابسهم ، بالإضافة إلى أسواق أصحاب النفوذ والسلطة . ووجدت أسواق لاحتياجات الناس العاديين ، وماجت الأسواق بالحركة والنشاط وبأصناف البضائع الزراعية والصناعية والتجارية ، وكانت صناعة الأسلحة والسفن الحربية قد لاقت رواجاً كبيراً ؛ نظراً لاحتياج الدولة المملوكية إليها منذ بداية حكمها . ويورد المقريزي العديد من الأسواق الدائمة والمزدهرة في العصر المملوكي[٣] ، ويعتبر فساد جهاز الحكم وظلمه في أواخر الدولة المملوكية سبباً لكساد الأسواق بعد ذلك وانهيار النظام الاقتصادي .

أما بالنسبة للتجارة فقد انعكست كذلك مظاهر الحياة السياسية وازدهار الزراعة والصناعة على حركتها ، وكان لموقع مصر والشام دور هام في رواج التجارة الداخلية والخارجية ، وتنقلها بين الطرق البرية والموانئ البحرية ، حتى بدت التجارة في عصر المماليك صورة لمركز المقاومة الإسلامية ، وأصبحت قوة متحكمة في أفضل طرق التجارة العالمية .

واهتم سلاطين العصر المملوكي بطرق التجارة والقوافل ، فعملوا على تأمين طرق التجارة داخل مصر ، والتشجيع على جلب البضائع من الخارج ، ولضمان تنشيط التجارة تحالفوا مع القوى الإسلامية الواقعة في حوض البحر الأحمر ، وكان نتيجة لهذا الاهتمام أن شيدوا العمارات

---

(١) ينظر : ابن إياس : بدائع الزهور ، القسم الأول ، ١/ ٣٦٣ .

(٢) ينظر : قاسم عبده قاسم : عصر سلاطين المماليك ، ط ١ ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٤م ، ١٣٥ .

(٣) ينظر :المقريزي : المواعظ و الاعتبار ، ٢/٥٨٠-٦١٣.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والقصور الفخمة ، وأنشأوا المرافق التجارية ، وحفلت الدولة بالعديد من المنشآت التجارية [١] ، وكان للتجار نفوذهم ومكانتهم المرموقة لدى السلاطين ؛ لشهرتهم التجارية العالمية ، حتى إنهم ارتبطوا بطبقة الحكام . كما كانت دولة المماليك همزة وصل بين تجار الشرق والغرب ، والمعبر الرئيس لهما ، وكانت التجارة التي يجلبها التجار من الشرق إلى أسواق أوروبا تجني أرباحاً طائلة ، فقد كانت تسلك لوصولها إلى الشواطئ الأوربية طريق الخليج العربي مروراً ببغداد إلى موانئ بلاد الشام ، وطريق البحر الأحمر إلى السويس ، لذا كان يعامل التجار الواردون أفضل معاملة ، إلا أن الأوضاع التجارية بدأت بالتراجع بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح[٢] .

وعلى الصعيد الداخلي اضطربت الأحوال الاقتصادية في أواخر عهد الدولة الجركسية ، حيث بدأت الأسواق والتجارة الداخلية في الكساد بعد تدهور النظام النقدي ، نتيجة قيام الحكومة بخفض قيمة العملات المتداولة في الأسواق ؛ لتحقيق مكاسب عالية للسلطان ، وكذلك انعدام الأمن ، بعد إخفاق الحكومة في السيطرة على الاضطرابات الداخلية التي أثارها المماليك الجراكسة[٣] .

ثالثاً : البيئة الاجتماعية :

من المعروف أن ظروف نشأة دولة المماليك ، جاءت استجابة لظروف العالم الإسلامي، فمن ناحية الصراع ضد الصليبيين ، وبروز دور المماليك في معركة عين جالوت ، ومن ناحية أخرى ظهور التتار ، ومقتل المستعصم وبقاء المسلمين دون خلافة ، وتصدي المماليك للخطر التتري ، إلى أن تم في عهد الظاهر ركن الدين بيبرس القضاء على الدولة الأيوبية بشكل نهائي ، وبداية حكم المماليك .

بدأ المماليك العمل على تكوين نظام لحكمهم . وقد قسم القلقشندي أعيان دولة المماليك ، وأرباب المناصب إلى عدة أضرب . الضرب الأول ، أرباب السيوف ، وهم نوعان ، الأمراء : وهم أربع طبقات ، الطبقة الأولى ، أمراء المئين مقدمو الألوف ، وهي أعلى مراتب

---

(١) ينظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المملوكي في مصر والشام ، ٢٩٨ .

(٢) ينظر: محمد سهيل طقوش : تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ، ٥٥١-٥٥٢ .

(٣) ينظر : قاسم عبده قاسم وآخرون : موسوعة الحضارة العربية الإسلامية ج٣ ، بعض مظاهر الحياة في عصر سلاطين المماليك ، ٣/٢٩٩-٣٠٠ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأمراء على تقارب درجاتهم ، ومنهم يكون أكابر أرباب الوظائف والنواب ، الطبقة الثانية ، أمراء الطبلخاناه ، وعدة كل منهم في الغالب أربعون فارساً ، الطبقة الثالثة ، أمراء العشرات ، ومن هذه الطبقة يكون صغار الولاة ونحوهم من أرباب الوظائف ، الطبقة الرابعة ، وهم في الحقيقة كأكابر الأجناد . النوع الثاني ، الأجناد ، وهم على طبقتين ، الطبقة الأولى ، المماليك السلطانية ، ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة ، الطبقة الثانية ، أجناد الحلقة ، ومن الأجناد طائفة ثالثة يقال لهم البحرية ، يبيتون بالقلعة وحول دهاليز السلطان في السفر كالحرس . الوجه الثاني ، أرباب الوظائف من أرباب السيوف ، وهم على نوعين ، النوع الأول ، من هو بحضرة السلطان ، ووظائفهم خمسة وعشرون وظيفة منها ، النيابة ، وصاحبها يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان ويعلم في التقاليد والتواقيع والمناشير ، والأتابكية ، وصاحبها أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل ، وغايته رفعة المحل وعلو المقام ، والأستادرية ، وموضوعها التحدث في أمر بيوت السلطان كلها ، والخازندارية ، وموضوعها التحدث في خزائن الأموال السلطانية . النوع الثاني : من هو خارج عن الحضرة السلطانية ، وهم ثلاث طبقات ، نواب السلطنة ، الكشاف ، الولاة . الضرب الثاني من أعيان دولة المماليك وأرباب المناصب ، حملة الأقلام ، وهم على نوعين ، أرباب الوظائف الديوانية ، وفيها الوزارة ، وأرباب الوظائف الدينية ، وفيها قضاء القضاة ، وقضاء العسكر ، وإفتاء دار العدل[1] .

في ظل النظام الاجتماعي ، الذي نشأت عليه دولة المماليك ، كانت هناك أهم رابطتين تربط بينهما ، رابطة الأستاذية ، وهي التي تربط المملوك بسيده الذي اشتراه منذ صغره ، وأعتقه في كبره ليشق طريقه ، ويثبت نفسه على مسرح الأحداث ، ورابطة الخشداشية ، وهي رابطة الزمالة التي تربط المماليك بعضهم ببعض ، وتعتبر من أقوى الروابط ؛ لأنها تقوم على رباط العاطفة بين جميع المماليك الذين نشأوا في كنف أستاذ واحد نسبوا إليه ، كالمماليك الأشرفية نسبة إلى الأشرف ، أو الظاهرية نسبة إلى الظاهر ، أو الصالحية نسبة إلى الصالح ، وكان للطبيعة التي نشأ عليها المماليك ، سبب طبيعي لشعورهم بالمساواة تجاه بعضهم ، فكلهم كانوا رقيقاً جلبوا من بلاد عديدة وتربوا تربية متشابهة في بيئة جديدة ، وانعكاساً لشعور المماليك بالمساواة ، ظن كل منهم بأن له حقاً في تولى منصب السلطة التي سعوا إليها منذ بداية ظهور قوتهم في التصدي للصليبيين ، مما جعلهم طوال فترة حكمهم لا يؤمنون بمبدأ الوراثة ، وأنه لا

---

(١) ينظر : القلقشندي : صبح الأعشى ، ٤/١٤-٣٩ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فضل لأحدهم على الآخر ، ولا يمكنه أن يعتلى سدة الحكم إلا بفضل فطنته وذكائه وقوته ، فالحكم لمن غلب[١] .

كان المماليك في هذا العصر هم الطبقة العسكرية الحاكمة بدولتيها البحرية والبرجية ، وتركزت وظائف الإدارة العليا والمناصب الرفيعة والسلطة السياسية على الحكومة والجيش ، وعاشوا في قصور فخمة ، وتمتعوا بحياة الترف والبذخ ، ولم تشارك هذه الطبقة في حياة الشعب العامة إلا من خلال المواكب والأعياد والاحتفالات الدينية . كما أن الشعب من جهة أخرى ، اعتبر المماليك طائفة غريبة وصلت إلى الحكم بتفويض من الخليفة العباسي الذي كان له دور بإضفاء الصفة الشرعية على وجودهم في الحكم ، ولا يربطهم بهم سوى الولاء الديني .

أما أولاد الناس من أبناء المماليك ، وهم الذين لم يمسهم الرق كآبائهم ؛ فقد كانوا يمضون وقت فراغهم في ممارسة بعض الألعاب والرياضة ، كالفروسية ولعب الكرة ورمي الرماح ، وكانت الثروة التي تركت لهم ، والإقطاعات الممنوحة من السلاطين ، تجعلهم يعيشون حياة بعيدة عن حياة الطبقة العسكرية الحاكمة دون أن تفصلهم عنها . ومن هؤلاء الأبناء من شارك في الحياة الثقافية في عصره ، وأصبح من المؤرخين اللامعين ، مثل جمال الدين ابن تغري بردي صاحب كتاب النجوم الزاهرة ، وابن إياس صاحب كتاب بدائع الزهور[٢] .

من الناحية الدينية حرص المماليك على الحفاظ على مظاهر الحياة الإسلامية ؛ لكونهم مسلمين ، تربوا تربية إسلامية خالصة ، فاهتموا بكتابة القرآن وتزيين صفحاته بزخارف ملونة ، وأبطلت الكثير من الملاهي ، وأغلقت أماكن الخمر ، وحوربت المذاهب المناهضة للمذهب السني؛ الذي تعرض لمكائد عديدة من أصحاب هذه الحركات الهدامة[٣] .

كذلك اهتم المماليك بتقريب علماء الدين منهم ، والأخذ بفتاويهم ؛ لإعطاء حكمهم الوجهة الدينية ، فأغدقوا عليهم ، وسلموهم الوظائف الديوانية ، وسموا المتعممين ؛ أي أهل العمامة ،

---

(١) ينظر : سعيد عاشور وآخرون : موسوعة الحضارة العربية الإسلامية ج٣ ، نظم الحكم والإدارة ، ٣٤٧ .

(٢) للاستزادة : ينظر : قاسم عبده قاسم وآخرون : موسوعة الحضارة العربية الإسلامية ج٣ ، بعض مظاهر الحياة اليومية في عصر سلاطين المماليك ، ٣/٢٨٩-٢٩٠ .

(٣) للاستزادة : ينظر : عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي من مطلع القرن الخامس الهجري إلى الفتح العثماني ، ط ٥ ، دار العلم للملايين ، بيروت – لبنان ، ١٩٨٩م ، ٣/٦٠٧-٦٠٨ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكانت لهم مكانة اجتماعية عالية في هذا العصر ، وبالتالي حرصت هذه الطبقة على مساندة السلطة وتأكيد ولائهم للسلطان ، وعاشوا حياة الترف التي كان يعيشها السلاطين والأمراء[١] .

أما طبقة الرعية فقد عاشت بمعزل عن الطبقة الحاكمة ، لا يربطها بها سوى أداء الضرائب المفروضة عليها ، وبعض أعمال العنف التي كانوا يتعرضون لها من قبل بعض أفرادها، وتشمل هذه الطبقة الفلاحين ، وأصحاب التجارة والحرف البسيطة [٢] . ومن مظاهر العنف التي كانوا يتعرضون لها ، ما حدث من المنصور قلاوون ، حين أمر جنوده بقتل أناس من المصريين الذين خالفوا أمره ، وقتل منهم عدداً كبيراً ممن له ذنب وممن ليس له ذنب ، حتى طفح الكيل بالناس ، وشفع لهم القضاة وعلماء الدين ، فعفا عنهم وندم على فعلته[٣] .

وعلى الرغم من جميع عوامل ومظاهر الازدهار التي برزت في البيئة الاقتصادية للعصر المملوكي ؛ إلا أن المجتمع لم يكن كله عصر رخاء ، فقد تعرض لأوقات عصيبة تأثرت بها جميع طبقاته . فبالإضافة إلى الاضطرابات التي كان سببها المنافسات للتنازع حول السلطة ، والحروب التي شهدها العصر ، انتشرت مجاعات وأوبئة وكوارث طبيعية أودت بالكثير من الناس ، لم يملكوا حيالها سوى الاستسلام والتضرع إلى الله لرفع هذا البلاء ، وأرجع البعض منهم أسبابها إلى غضب الله على الشعب لتفشى المظالم في البلاد ، وكان الحكام يدعون الناس إلى صلاة الاستسقاء . ومن مظاهر ذلك ما حدث عام (٦٩٤ هـ– ١٢٩٥ م) ، حيث توقف نزول المطر في دمشق ، وزاد الغلاء بعد أن أنفقت الغلال على الأمراء ، فانتشرت المجاعة بين الرعايا ، كما أصاب مصر في هذا العام وباء عظيم ، حتى إن الميت كان يلقى على الطرقات عدة أيام لا يجد من يدفنه[٤] ، وهكذا عاش الناس في ذلك العصر حياة الاضطراب وعدم الاستقرار .

رابعاً : البيئة العلمية :

شهد العصر المملوكي نشاطاً علمياً واسعاً ؛ مهدت له الظروف السياسة التي أحاطت بالعالم الإسلامي ، بعد ما حل به على أيدي المغول والقوى الصليبية ، فأصبحت مصر وبلاد الشام مقصداً للعلماء وطلاب العلم ، حيث رحل أصحاب العلم وطالبوه من بغداد عاصمة الخلافة

---

(١) ينظر : قاسم عبده قاسم : عصر سلاطين المماليك ، ١٨–١٩ .

(٢) ينظر : قاسم عبده قاسم : عصر سلاطين المماليك ، ٢١ .

(٣) ينظر : ابن إياس : بدائع الزهور ، ٩٧/١ .

(٤) ينظر : المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، القسم الثالث ، ٨٠٨/١–٨٠٩ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العباسية ، وغرناطة مركز الخلافة الإسلامية الأندلسية إليهما ، وكثر العلماء والأدباء والشعراء فيهما .

ظهرت ثقافة سلاطين المماليك من خلال عنايتهم بأبناء جلدتهم من الناحية التربوية والثقافية والعلمية ، وتنشئتهم تنشئة صارمة ، اعتمدت على التربية الدينية والتربية العسكرية ، وذكر المقريزي طريقة تنشئتهم فقال : "... إذا قدم بالمملوك تاجره عرضه على السلطان ونزله في طبقات جنسه وسلمه لطواشي برسم الكتابة ، فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم ، وكانت كل طائفة لها فقيه ، يحضر إليها كل يوم ، ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالى ، ومعرفة الخط والتمرن بآداب الشريعة ، وملازمة الصلوات والأذكار ، وكان الرسم إذ ذاك أن لا تجلب التجار إلا المماليك الصغار ، فإذا شب الواحد من المماليك علمه الفقيه شيئا من الفقه ، وأقرأه فيه مقدمة ، فإذا صار إلى سن البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحرب من رمى السهام ولعب الرمح ونحو ذلك ، فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه ..."[1] .

واهتم السلاطين في العصر المملوكي بإنشاء مكاتب لتعليم الأيتام من أبناء المسلمين منذ الصغر ، "... فأقيم في عصر سلاطين المماليك الكثير منها ، واهتم منشئوها بحبس الأوقاف عليها ، للعناية بأمر الأيتام وتعليمهم ، وتوزيع الغذاء والكساء عليهم . من ذلك مكتب السبيل ، الذي أنشأه السلطان الظاهر بيبرس بجوار مدرسته ، وقرر لمن فيه من أيتام المسلمين الخبز في كل يوم ، والكسوة في فصلي الشتاء والصيف . كذلك أنشأ السلطان قلاوون مكتباً لتعليم الأيتام ، ورتب لكل طفل بالمكتب جراية في كل يوم ، وجامكية في كل شهر ، وكسوة في الشتاء وأخرى في الصيف . هذا مع ملاحظة أن الأمر لم يقف عند حد توفير الطعام والكساء ، فضلاً عن معلوم شهري للأيتام ، وإنما تعدى ذلك إلى توفير أدوات الكتابة لهم ، من أقلام ومداد وألواح ، وقد خصص لكل مكتب مؤدب يساعده عريف ، ويقوم المؤدب وعريفه بتعليم الصغار الكتابة وتحفيظهم القرآن . وجرت العادة أن يرتب الواقف مؤدباً وعريفاً لكل خمسين يتيماً ، كحد أقصى لما يمكن أن يعهده به من الأيتام لمؤدب واحد يساعده عريف "[2] .

واتخذت اللغة العربية لغة رسمية في عصر المماليك ؛ على الرغم من أن حكامها من الأعاجم ، إلا أن كونهم مسلمين ، واهتمامهم بالدين الإسلامي ؛ جعلهم يهتمون بلغة الإسلام ،

---

(١) المقريزي : المواعظ و الاعتبار ، ٣/٦٥-٦٦ .

(٢) سعيد عاشور وآخرون : موسوعة الحضارة العربية الإسلامية ج٣ ، نظم الحكم والإدارة ، ٣/٤٣٣ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فأولوا اللغة العربية عناية خاصة ، ولم تكن اللغة التركية في ذلك الوقت قادرة على القيام بدواوين الدولة المختلفة وشؤون القضاء ، وهذا ما جعلهم يستعينون بأبرع أهل اللغة ، والذين سموا بأهل العمامة ، لمزاولة ما يختص باللغة العربية من أعمال ، مما أدى إلى رواج العربية والفصحى داخل الدواوين وظهور طبقة ممتازة من رجال اللغة والأدب والإنشاء[١] .

وكثرت المدارس في عهد المماليك ، وأنشئت دور الكتب ، واهتم سلاطين الدولة باختيار معلميها ، وبذلوا المعونات لطلابها ، فراج سوق التعليم واتسعت حركته ، وقد كان هناك نوعان من التعليم ، تعليم عسكري ، وهو خاص بأبناء طائفة المماليك لتعليمهم ما يؤهلهم للمحافظة على السلطة والحكم ، وتعليم شعبي ، وهو لكافة أبناء الشعب ، يدرسون فيه بالمجان ، سواء في المساجد أو بدور العلم ، وهكذا زخر العصر بعدد وافر من العلماء .

هذا ويمتاز العصر المملوكي بأنه عصر الموسوعات العلمية والأدبية الكبرى ، فقد ظهرت فيه طائفة من العلماء في أنواع من العلوم المختلفة ، ونشطت حركة التأليف في الكتب والموسوعات بعد الاجتياح التتري ، وقضائهم على الكثير من الكنوز الأدبية التي كانت قد ألفت في العصور السابقة . ومن أكابر علماء هذا العصر الذين تبوأت كتبهم مقامها الفذ في تراث الأدب العربي ، كتاب صبح الأعشى لأبي العباس القلقشندي ، وكتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري ، وكتاب نهاية الأرب في فنون الأدب لأحمد بن عبد الوهاب النويري . وضمت كتب العصر الأدبية العديد من المؤلفات في النثر والشعر . وعلى صعيد الشعر فقد حافظ على وجوده في الحركة الأدبية ، وخلف شعراء العصر ما يدل على كثرة إنتاجهم ، مبتكرين نماذج تدل على روعة البيان وجمال التصوير ؛ من خلال التوجه الديني الذي كان سائداً في ذلك العصر ، واتسع النظم في الشعر ، وفي حين نظم العباسيون في الخمر نظم شعراء عصر المملوكي بالحشيشة ، وأكثروا من شعر الفكاهة والألغاز ، " كذلك وجد في أعمال السلاطين والأمراء ، وبطولاتهم في التصدي لأعداء الدين والأمة ما أعانه على الارتباط بالطبع الصادق أكثر من ارتباطه بالرياء وبهرج الصنعة الزائفة "[٢] . ووجد سلاطين المماليك في الأدب،

---

(١) ينظر : محمود رزق سليم : الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث ، مطابع دار الكتاب العربي ، ١٩٥٧م ، ١٣ .

(٢) نبيل خالد أبو علي : الأدب العربي بين عصرين المملوكي والعثماني ، ط ١ ، دار المقداد للطباعة ، غزة – فلسطين ، ٢٠٠٨م ، ٥٨ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

دعاية يستطيعون من خلالها الإشادة بأعمالهم وفتوحاتهم ، وذم الطرف الآخر ، ولهذا شجع بعضهم عليه ، وعمل على تقريب الشعراء منه ، ومنهم السلطان بيبرس والسلطان قلاوون .

في بداية العصر المملوكي أثمرت جهود ذاتية ، وجهود الطبقة المثقفة في النهوض بمسيرة الأدب ، ظهرت من خلال المؤلفات العديدة التي زخرت بها المكتبات ، ليكون بالقوة التي كان عليها في العصور السابقة ، وامتداداً لها ، والعمل على الارتقاء بالعلم والأدب . وكان لاشتغال طبقة المتعممين بالمناصب الكتابية دوراً بارزاً في هذه النهضة ، إلا أن التغيرات السياسية والاجتماعية التي تمت بعد ذلك نتيجة كثرة الحروب والفتن الداخلية والخارجية ، تركت أثرها على حركة النثر والشعر ، وبدأ يتخلل الأدب بعض الضعف ، والركاكة في الأسلوب ، نظراً لتكلم الناس بالعامية ، ونظمهم الفنون الأدبية بالعربية الفصحى ، فاختلطت العامية بالفصحي في بعض المؤلفات النثرية والشعرية وتسربت إليها بعض الألفاظ الدخيلة ، حاول الكثير من الأدباء والشعراء الحفاظ على خلو أعمالهم منها . ومع ذلك فقد شهد العصر المملوكي نشاطاً علمياً واسعاً في سائر الفنون والعلوم ، " حتى عدت المؤلفات بعشرات الألوف في مدة زمنية لم تتجاوز ثلاثمائة عام ، تعاقب خلالها على الحكم سلاطين أشداء ، وجهوا همهم إلى الحرب والجهاد ، ولكنهم لم يغفلوا أبدا عن تشجيع العلوم وتقريب العلماء ، فلا يخلو عصر أحد منهم من بناء جامع أو مدرسة ، أو مكتبة ..."[1] .

(١) الدميري : حياة الحيوان الكبرى ، ٦/١ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الـفـصـل الأول

الـهجـــاء الفـــردي

تـــوطـــئـــة : غياب الهجاء الفردي والقبلي .

المبحث الأول : هجاء النفس والشكوى من الفقر.

المبحث الثاني : الهجاء الهزلي .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

توطئة : غياب الهجاء الفردي والقبلي :

يجدر بنا في هذه التوطئة ، تعريف الهجاء لغة واصطلاحاً . حيث وردت كلمة هجاء في اللغة عند ابن منظور بعدة صور منها ، هجا ، هجاه يهجوه هجواً وهجاء وتهجاء ؛ أي شتمه بالشعر ، وهو خلاف المدح ، وقيل هو الوقيعة في الأشعار ، وروي عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : اللهم إن فلاناً هجاني فاهجه اللهم مكان ما هجاني[١] .

أما المعنى الاصطلاحي فنتمثله في قول الزمخشري : " فلان يهجو فلاناً ، هجاءً ، يعدد معايبه ، وهو هجَّاء ، وله أهاجي ، وهجاه مهاجاة ، وتهاجياً ، وبينهما تهاج . والمرأة تهجو زوجها هجاء قبيحاً إذا ذمت صحبته وعددت عيوبه ، وهو على هجاء فلان ، على مقداره في الطول والشكل "[٢] .

لذلك نستطيع أن نقول بأن الهجاء من الهياج ، وهو ضد الاستقرار ، حيث يعتمل في النفس مجموعة من المؤثرات تهيج الشعور وتنقل المهيج أياً كان ، من حالة مستقرة إلى حالة متأثرة مستنفرة ، تريد أن تلقي بما ساورها على الطرف الآخر (المهجو – المراد هجاؤه) .

والمقصود من الهجاء ، " الوقوف على ملحه وما فيه من ألفاظ فصيحة ، ومعان بديعة ، لا التشفي بالأعراض والرتعة فيها . وليس الهجاء دليلاً على إساءة المهجُّو ولا صدق الشاعر فيما رماه به ، فما كل مذموم بذميم ، ولا كل ملوم بمليم ، وقد يهجى الإنسان بهتاناً وظلماً ، أو تقرباً إلى عدو ، أو عبثاً ، أو إرهاباً لمن يخشى الشاعر سطوته فيجبن عن هجائه "[٣] .

ويرى أبو الطيب المتنبي[٤] أن الشخص الذي تعرض للذم أفضل ممن ذمه ، فيقول[٥] :

وإذا أتتكَ مذمتي مِنْ ناقصٍ فهي الشهادةُ لي بأني كاملُ

---

(١) ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (هجا) .

(٢) أبو القاسم جار الله الزمخشري (ت٥٣٨هـ/١١٤٣م) : أساس البلاغة ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩م ، ٦٩٦.

(٣) ابن حمدون (ت٥٦٢هـ/١١٦٧م) : التذكرة الحمدونية ، تحقيق إحسان عباس وبكر عباس ، ط ١ ، دار صادر، بيروت – لبنان ، ١٩٩٦م ، ٩٢/٥ .

(٤) هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد ، الجعفي الكوفي الكندي ، ولد بالكوفة ، ونشأ بالشام ، وهناك من يعده اشعر الإسلاميين ، ولد بالكوفة عام ٣٠٣هـ/٩١٥م ، توفي عام ٣٥٤هـ/٩٦٥م . ينظر : الزركلي ، الأعلام ، ١١٥/١ .

(٥) الدميري : حياة الحيوان الكبرى ، ٣٨٨/٢ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويمثل الهجاء غرضاً مهماً في الشعر العربي ، وأصلاً من أصوله ، يعبر به الشاعر عن لومه أو سخطه أو كرهه لكل ما هو ثائر عليه ، أو عائباً له . وكما ظهر المديح الذي يعبر عن العاطفة والإعجاب ظهر الهجاء الذي يعبر عن السخط والاشمئزاز ، واستمر كذلك على مدى العصور الأدبية .

تطور فن الهجاء منذ العصر الجاهلي حتى العصر المملوكي تطوراً كبيراً ، وتطور مفهومه مع مرور العصور الأدبية ، وفرق العرب بين الهجاء المستحسن والهجاء المقذع . وأورد محمد ابن سلام الجمحي عن يونس بن حبيب[١] أنه قال : " أشد الهجاء ، الهجاء بالتفضيل ، وهو الإقذاع عندهم "[٢] . وفي عصر الإسلام نهى رسول الله عن الهجاء المقذع بقوله : " من قال في الإسلام هجاء مقذعاً فلسانه هدر "[٣] . وفي العصرين الأموي والعباسي فضل أغلب الشعراء قصر الهجاء وترك الفحش فيه . ويفضل ابن رشيق التعريض على التصريح في الهجاء فيقول : " وجميع الشعراء يرون قصر الهجاء أجود ، وترك الفحش فيه أصوب ، إلا جريراً فإنه قال لبنيه : إذا مدحتم فلا تطيلوا الممادحة ، وإذا هجوتم فخالفوا ، وقال أيضاً : إذا هجوت فأضحك . وسلك طريقته في الهجاء سواء علي بن العباس بن الرومي ، فإنه كان يطيل ويفحش ، وأنا أرى (الجمحي) أن التعريض أهجى من الصريح ؛ لاتساع الظن في التعريض ، وشدة تعلق النفس به، والبحث عن معرفته ، وطلب حقيقته ، فإذا كان الهجاء تصريحاً أحاطت به النفس علماً ، وقبلته يقيناً في أول وهلة ، فكان كل يوم في نقصان لنسيان أو ملل يعرض ، هذا هو المذهب الصحيح ، على أن يكون المهجو ذا قدر في نفسه وحسبه ؛ فأما إن كان لا يوقظه التلويح ، ولا يؤلمه إلا التصريح ؛ فذلك ولهذه العلة اختلف هجاء أبي نواس ، وكذلك هجاء أبي الطيب فيه اختلاف ؛ لاختلاف مراتب المهجوين"[٤] .

---

(١) هو يونس بن حبيب الضبي ، أبو عبد الرحمن ، أديب نحوي ، عالم بالشعر ، وله فيه ديوان ، وتوفي عام ١٨٢هـ/٧٩٨م . ينظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ٢٤٤/٧ .

(٢) ابن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ/١٠٧١م) : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط ٥ ، دار الجيل ، بيروت – لبنان ، ١٩٨١م ، ١٧٠/٢ .

(٣) القيرواني : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، ١٧٠/١ .

(٤) القيرواني : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، ١٧٢/٢-١٧٣ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفي العصر المملوكي يرى النويري أن الهجاء يكون لأناس يستحقونه فيقول : " ويستحق الهجاء من اتصف بسوء الخصال ، واتسم بأخلاق الأرذال والأنذال ، وجعل اللؤم جلبابه وشعاره ، والبخل وطاءه ودثاره ..."[١] .

واستحسن العرب في الهجاء ألا يكون في الصفات التي لا دخل للإنسان فيها ، واعتبر ابن قدامة مخالفة ذلك عيباً في الهجاء فيقول : " وجماع القول فيه ، أنه متى سلب المهجو أموراً لا تجانس الفضائل النفسية كان ذلك عيباً في الهجاء ، مثل أن ينسب إلى أنه قبيح الوجه ، أو صغير الحجم ، أو ضئيل الجسم ، أو مقتر ، أو معسر ، أو من قوم ليسوا بأشراف إذا كانت أفعاله في نفسه جميلة وخصاله كريمة نبيلة ، أو أن يكون أبواه مخطئين إذا كان مصيباً ، أو غويين إذا وجد رشيداً سديداً ، أو بقلة العدد إذا كان كريماً ، أو بعدم النضار إذا كان راجحاً شهماً . فلست أرى ذلك هجاء جارياً على الحق "[٢] .

وهكذا فإن جميع المفاهيم السابقة للهجاء فضلت قصره ، وترك المقذع والفاحش منه ، وبينت الأساليب التي تستخدم فيه من تصريح وتعريض وتورية وسخرية . وظلت هذه المفاهيم تعكس مظاهر الحياة في كل عصر ، على رغم تعدد مفاهيمه .

أما أنواع الهجاء فيمكن الاستدلال عليها من خلال تناول كل عصر من العصور لهذا الفن، إلا أنها جميعاً تدور حول ثلاث تقسيمات ، وهي :

الهجاء الفردي ، ويدخل فيه الهجاء القبلي والنفسي ، والهجاء السياسي ، ويدخل فيه هجاء المدن ، وهجاء رجال الدولة ، والهجاء الاجتماعي ، ويدخل فيه الهجاء المذهبي والديني ، والنقد الاجتماعي .

بدأ الهجاء في العصر الجاهلي فردياً ، ليجرد المهجو من الفضائل التي كانت سائدة في ذلك الوقت ، وقبلياً يبرز مثالب قبيلة ما ، ويجردها من الفضائل ، ويفخر بقبيلته ويظهر مناقبها .

---

(١) شهاب الدين النويري (ت٧٣٣هـ/١٣٣٤م) : نهاية الأرب في فنون الأدب ، مطابع كوستاتسوماس وشركاه ، القاهرة ، ٢٦٧/٣ .

(٢) أبي الفرج قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ/٩٤٩م) : نقد الشعر ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، د.ت ، ١٨٧ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

واشتهر بالهجاء في ذلك العصر طرفة بن العبد[١] ، والأعشى[٢] ، وزهير بن أبي سلمى[٣] .

وكان الشعراء يهجون القبائل التي أهلها ذوو فضل وشرف كثير . وقد ذكر الجاحظ بعض القبائل التي أهلكها الهجاء ، وكانت فيها فضل وشرف فيقول : " وفي نمير شرف كثير . وهل أهلك عَنزة ، وجَرما ، وعُكلا ، وسَلول ، وباهلة ، وغَنيا ، إلا الهجاء؟! وهذه قبائل فيها فضل كثير وبعض النقص ، فمحق ذلك الفضل كله هجاء الشعراء "[٤] .

وكانت القبائل تخشى الهجاء و تحذره ، حتى بلغ منها مبلغاً جعلهم يأخذون المواثيق على الشاعر إذا أسروه بعدم الهجاء أو بشد لسانه بحبل ، كما صنعوا بعبد يغوث ابن وقاص الحارثي[٥] حين أسرته بنو تيم يوم الكلاب ، وهو الذي يقول[٦]:

أقولُ وقدْ شَدُّوا لِساني بِنسعةٍ أمَعشرَ تيمٍ أطلِقوا منْ لِسانيا[٧]
وتضحكُ مني شيخةٌ عبشميَّةٌ كأنْ لمْ ترى قبلي أسيراً يَمانيا[٨]
كأنِّي لمْ أركبْ جواداً ولمْ أقلْ لخِيلي كَري كَرةً عنْ رجاليا
فيا راكباً إمَّا عَرضْتَ فَبلِّغنْ ندامايَ منْ نَجرانِ أنْ لا تلاقيا
أبا كربٍ والأيهمينِ كليهما وقيساً بأعلى حضرموتَ اليمانيا

---

(١) هو أبو إسحاق ، عمرو بن عبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة ابن قيس بن ثعلبة ، لقب بطرفة لبيت قاله ، من أصحاب المعلقات ، ولد نحو ٨٦هـ/٥٣٨م ، وتوفي نحو ٦٠ ق.هـ/٥٦٤م . ينظر : الزركلي : الأعلام ، ٢٢٥/٣ .

(٢) هو أبو بصير ، ميمون بن قيس بن جندل من بني قيس بن ثعلبة الوائلي ، أعشى قيس ، من أصحاب المعلقات ، توفي عام ٧هـ/٧٢٤م . ينظر : الزركلي : الأعلام ، ٣٤١/٧ .

(٣) هو ربيعة بن رياح المزني ، من أصحاب المعلقات والحوليات ، وله ديوان شعر ، توفي ٣٠ق.هـ/٦٠٩م . ينظر : الزركلي : الأعلام ، ٥٢/٣ .

(٤) أبو عثمان الجاحظ (ت٢٥٥هـ/٨٦٩م) : البيان والتبيين ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ٣٦/٤ .

(٥) هو عبد يغوث هو ابن وقاص بن صلاءة الحارثي ، قتلته التيم يوم الكلاب ، كان سيد بني الحارث ، وشاعراً يمانياً قوياً ، توفي نحو ٤٠ ق . هـ/٥٨٤ م . ينظر : الزركلي : الأعلام ، ١٨٧/٤ .

(٦) الجاحظ : البيان والتبيين ، ٤٥/٤ .

(٧) نسعة : حبل . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (نسع) .

(٨) عبشمية : أصلها عبد شمس قبيلة من تميم ، والنسب عبشمي . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (شمس) .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ظل الهجاء سائداً في العصر الإسلامي للدفاع عن الرسول ضد المشركين ، وازدهر الهجاء القبلي والفردي نظراً لوجود الحروب بين المسلمين والكفار ، وأصبح الهجاء بين فريقين ، فريق يدافع عن الدعوة الإسلامية ، وفريق يدافع عن الكفر والضلال . لذا اختلفت معانيه عن العصر الجاهلي ، وكف عن شتم الناس وتجريحهم والتعرض لأعراضهم ، وتوجه لهجاء الكفار باتهامات تحمل معاني الإسلام ، بعيداً عن الفحش والسباب ، فهجوا فيهم كفرهم وضلالهم . واشتهر بهذا الفن حسان بن ثابت[١] شاعر الرسول ، وكعب بن زهير[٢] ، والحطيئة[٣] ، وهؤلاء من الشعراء المخضرمين ، أدركوا الجاهلية والإسلام . وكنموذج للهجاء في العصر الإسلامي هجاء حسان بن ثابت للحارث بن هشام ، عندما هرب من معركة بدر ، وهو يشد لجام جواده ، وترك أخاه أبا جهل يقتل ، فأنشد فيه هذه الأبيات[٤] :

إنْ كنـــتَ كاذِبتـــي الَّتـــي حَدّثتِنـــي ونجـوتَ منجَـى الحـارثِ بـــنِ هشـــامِ

تـــركُ الأحبـــةِ أنْ يُقاتِـــلَ فيهـــم ونجـــا بـــرأسِ طَمِـــرَّةٍ ولجـــامِ[٥]

وكما كان على شاعر العصر الجاهلي الذي يريد أن يهجو قبيلة أن يكون عالماً بمثالب تلك القبيلة ، استمر كذلك في العصر الإسلامي ، ولعب الشاعر في العصرين دور المؤرخ . وطبيعي أن لا يعرف كل أبناء القبائل مثالب القبائل الأخرى ، فإذا ما أنشأ الشاعر قصيدة في قبيلة ما ، فكأنه نشر تاريخاً لهذه القبيلة . وقد استأذن حسان بن ثابت النبي في هجاء مشركي قريش ،

---

(١) هو أبو الوليد ، حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري ، شاعر النبي ، كان رسول الله ينصب له منبراً في المسجد ليجيب عنه قريش بشعره ، ويقول له : إن روح القدس معك ما هاجيتهم ، توفي عام ٥٤هـ/٦٧٤م . ينظر : الصفدي : الوافي بالوفيات ، ٢٧١/١١ . وينظر : الزركلي : الأعلام ، ١٧٥/٢ .

(٢) هو أبو المضراب ، كعب بن زهير بن أبي سلمى المازني ، هجا النبي فأهدر دمه ، فجاءه معتذراً بقصيدة مطلعها (بانت سعاد فقلبي اليوم متبول) ، له ديوان شعر ، توفي عام ٢٦هـ/٦٤٥م . ينظر : الزركلي : الأعلام ، ٢٢٦/٥ .

(٣) هو أبو مليكة ، جرول بن أوس بن مالك العبسي ، لقب بالحطيئة لقصره ، شاعر مخضرم ، من فحول الشعراء، له ديوان شعر ، أدرك الإسلام ثم ارتد ، توفي نحو ٤٥هـ/٦٦٥م . ينظر : محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٣م) : فوات الوفيات ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ٢٧٦/١ . وينظر: الزركلي : الأعلام ، ١١٨/٢ .

(٤) خليل شرف الدين : الموسوعة الأدبية الميسرة ٨ ، حسان بن ثابت الأنصاري من الحرية إلى الإلتزام ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٢م ، ٢٢-٢٣ .

(٥) طمرة : حفرة . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (طمر) .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فأمره النبي أن يستعين لهجائهم بأبي بكر ؛ لعلمه الواسع بأنساب العرب[١] . ويدل هذا على أهمية الهجاء في الحرب النفسية ؛ لعلم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومعرفته بأهمية غزوهم والتأثير عليهم من الداخل ، وفي المقابل كان يعزز هدف الإسلام من وراء الحرب التي يتم خوضها .

في العصر الأموي برز الهجاء بصورة غير معهودة عما كانت عليه ، فأصبح طاغياً على المديح ، وكان سبب ذلك تشجيع الخلفاء الأمويين على فن الهجاء لزيادة تمكنهم في الحكم ، فأثاروا النعرات القديمة والعصبية القبلية ، بعد أن كان الإسلام قد أحل محلها العصبية الدينية ، فشاع في العصر الأموي الهجاء الفردي والقبلي مرة أخرى ، وأصبح الهجاء شبيهاً بالهجاء الجاهلي في الكثير من أسلوبه وأغراضه ، كما ظهر فيه فن جديد هو فن النقائض التي اشتهر بها جرير[٢] ، والفرزدق[٣] ، والأخطل[٤] ، وفيها مزج بين الفخر والهجاء ، وأشير إلى ماضي القبائل وحاضرها . ومما يدل على عودة النزعة القبلية قول جرير يهجو النميري[٥] :

فغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ مِن نُمَيرٍ فَلا كَعْباً بَلَغْتَ ولا كِلابا

إذا غضِبَتْ عَلَيكَ بَنو تَميمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غِضابا

وهكذا تغيرت حياة المجتمع العربي بعد ظهور الإسلام تغيراً شديداً ، فجاء العصر الأموي مستمداً ثقافته من العصر الإسلامي ومتمثلاً بتعاليمه وآدابه ، وخصائصه الشعرية ، دون أن يتخلى عن تقاليد أدب العصر الجاهلي وشعره ، ليصبح مزيجاً من العصرين ، بالإضافة إلى

---

(١) ينظر : مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب ، دار الكتاب العربي ، ٦٠/٣ .

(٢) هو أبو حزرة ، جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي الكلبي ، لقب بجرير ، من تميم ، من فحول شعراء الإسلام ، قيل أنه فاق غيره في فنون الشعر الأربعة ، الفخر والمديح والهجاء والنسيب ، له ديوان شعر ، كثرت المهاجاة بينه وبين الفرزدق ، وجمعت نقائضه مع الفرزدق ، ولد عام ٢٨هـ/٦٤٠م ، وتوفي عام ١١٠هـ/٧٢٨ م . ينظر: الزركلي : الأعلام ، ٤٥٦/١ .

(٣) أبو فراس ، همام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي ، شاعر مشهور ، قيل لولا شعره لذهب ثلث لغة العرب ونصف أخبار الناس ، توفي عام ١١٠هـ/٧٢٨ م . ينظر : الزركلي : الأعلام ، ٩٣/٨ .

(٤) هو أبو مالك ، غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة ابن عمرو ، من بني تغلب ، شاعر نصراني ، كان شاعر الأمويين ، من أشهر شعراء عصره ، تهاجى مع جرير والفرزدق ، له ديوان شعر ، ولد عام ١٩هـ/٦٤٠م ، وتوفي عام ٩٠هـ/٧٠٨ م . ينظر : الزركلي : الأعلام ، ١٢٣/٥ .

(٥) محمد بن سلام الجمحي (ت٢٣١هـ/٨٤٦م) : طبقات فحول الشعراء ، شرح محمود محمد شاكر ، دار المدني، جدة – السعودية ، د.ت ، ٤١٢/٢ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المستجدات الأدبية التي تمت في ذلك العصر نتيجة للوجود الأجنبي ، والحضارة الجديدة ، والنزاعات بين الفرق المختلفة من الخوارج والشيعة والزبيريين والأمويين ، فتطورت فنون الشعر القديمة كالمدح والفخر والهجاء ، وظهرت فنون أدبية جديدة كفن النقائض ، الذي جمع بين الحزازات القبلية القديمة ، والمستجدات التي حصلت في حياة المجتمع الجديد [١] .

أما في العصر العباسي فقد طرأ تغير آخر على فن الهجاء ، حيث ضعفت العصبية القبلية وحلت محلها العصبية القومية ، ولم تعد للأنساب تلك الأهمية السابقة التي كانت عليها ، واهتم الهجاء بإظهار العيوب الفردية التي قادت الشعراء إلى التعرض لهجاء الخلفاء ؛ وهو لون من ألوان الهجاء السياسي برز في ذلك العصر ، ومنه هجاء دعبل الخزاعي[٢] لاثنين من الخلفاء ، وهما المعتصم والواثق ، حيث هجا الاثنين معاً بعد وفاة المعتصم وتولي الواثق الخلافة ، فيقول[٣] :

الحمـــــدُ للهِ لا صبـــرٌ ولا جلـــــــــدُ ولا رِقـــــادٌ إذا أهـــلُ الهـوى رقَـــــــدوا
خَليفـــةٌ مـــاتَ لـــم يَحـزنْ لـــهُ أحـــدُ وآخـــرُ قـــامَ لـــمْ يَفـــرحْ بِـــهِ أحـــدُ
فمُـــرُّ هـــذا ومُـــرُّ الشُّـــؤمِ يـتبعُـــهُ وقـــامَ هـــذا وقـــامَ الويْـــلُ والنَّكَـــدُ

كما شاع الهجاء الشخصي والسياسي ، الذي يركز على ذكر المساوئ الفردية والاجتماعية ، ومال شعر الهجاء إلى الصورة الكاريكاتورية ، كما نجدها في قول ابن الرومي[٤]:

---

(١) ينظر : شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ط ١١ ، دار المعارف ، القاهرة – مصر ، د.ت ، ٣٤-٣٥ . وينظر : محمد مصطفى هدارة : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٣م ، ١٤٣ .

(٢) هو دعبل بن علي بن رزين الخزاعي ، أبو علي ، كوفي الأصل ، شاعر هجاء ، هجا الخلفاء في العصر العباسي ، كان صديق البحتري ، له ديوان شعر ، ولد عام ١٤٨هـ/٧٦٥ م ، وتوفي عام ٢٤٦هـ/٨٦٠ م . ينظر : الزركلي : الأعلام ، ٣٣٩/٢ .

(٣) الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ/١٠٧١م) : تاريخ بغداد وذيوله ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٦م ، ١٧/١٤ .

(٤) شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الثاني ، ط١٢ ، دار المعارف ، مصر ، ٢٠٠١م ، ص ٢١٢ . ابن الرومي هو أبو الحسن ، علي بن العباس بن جريج ، شاعر كبير رومي الأصل ، له ديوان شعر ، ولد عام ٢٢١هـ/٨٣٦ م ، مات مسموماً في بغداد بعد أن هجا وزير المعتضد عام ٢٨٣هـ/٨٩٦ م . ينظر : الزركلي : الأعلام ، ٢٩٧/٤ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يقتِّـــرُ عيســـى عَلـــى نَفسِـــهِ ولَيـــسَ بِبـــاقٍ ولا خالـــدِ
فلـــو يستطيـــعُ لتقتيـــرِهِ تَنفَّـــسَ مِـــنْ مِنْخَـــرٍ واحِـــدِ

وللتأكيد على ما سبق أورد هنا وصف شوقي ضيف عن اتصال الهجاء بحياة الشعب والعامة ، حيث يقول : "... هي حياة لم يعد أساسها العصبيات القبلية كما كان الشأن في العصر الأموي ، ومن أجل ذلك ضعف فن النقائض لقيامه عليها إلا أسراباً قليلة كانت تظهر من حين إلى حين ، ولكن إذا كان هذا الفن قد ضعف ، فإن الهجاء لم يضعف بسبب التنافس الشديد بين الشعراء ، وقد عمت فيه روح جديدة ، إذ أخذوا يريشونه سهاماً مصمية . ويخيل إلى الإنسان أن أصحابه لم يتركوا مثلبة خلقية أو نفسية في شخص إلا صوروها ، وكأنما يريدون أن يطهروا المجتمع منها ، ولم يتورعوا أحياناً عن هجاء الخلفاء والوزراء ..."(١) .

وتطور الهجاء في العصر المملوكي ، فبعد أن كان الهجاء فردياً وقبلياً ، يدور حول الصراعات القبلية أو الحزبية ، كما كانت الحال في العصور السابقة ، أصبح صورة صادقة للدفاع عن الملاحم الإسلامية في ظل وجود الأحداث الكبرى ضد الفرنجة والتتار . وساد الهجاء روح جديدة تمثلت في كافة جوانب المجتمع في العصر المملوكي ، وأصبح شخصياً لا دخل للقبيلة فيه . " لقد أخذ الهجاء في هذا العصر الطابع الشعبي في معانيه وأساليبه واختيار أوزانه الخفيفة ..."(٢) .

يعود السبب لاختفاء الهجاء القبلي والتفاخر بالأنساب في العهد المملوكي ؛ إلى أن المماليك الذين يحكمون البلاد لا ينتمون إلى أصل واحد أو بقعة معينة تجمعهم ؛ بل كانوا لفيفاً من الأجناس والقوميات المتعددة التي تم جلبها من أقاصي البلاد في الشرق والغرب آنذاك ؛ لذلك لم يعرج الشعراء لا في مدحهم ولا في هجائهم على التفاخر بالأنساب . فالنسب بالنسبة إلى المماليك غير متبلور وغير محدد ، والمكان غير موحد ، لربما هناك أعداد قليلة ترجع في عصورها إلى عدة مدن وأصقاع ، وهذا مما كان له الأثر الكبير في عدم بروز هذا النوع من الهجاء .

---

(١) شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول ، ط ١٦ ، دار المعارف ، مصر ، ٢٠٠٤م ، ١٦٧ .

(٢) نبيل خالد أبو علي : محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ، مطبعة الوحدة ، رام الله – فلسطين ، ٥٨.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وللوقوف على صور الهجاء ودرجاته في العصر المملوكي نجد أنه كان منه ، " المقذع ، والمعتدل ، والضاحك والساخر ، ومنه ما تناول الأفراد أو النماذج الوظيفية كالوزراء والقضاة ، والمستخدمين ، والفقهاء . واتخذ الهجاء وسيلة للنقد الاجتماعي يحاول فيه الشعراء أن يظهروا عيوب الموظفين أو العمال ، والذين يتولون الأعمال العامة ، فيكشفون عن انحرافاتهم من أخذ الرشاوي ، وظلم الرعية والمغالاة في أخذ الأموال من المكوس وغيرها . كذلك نجد من صور الهجاء ما يتناول فيه الشعراء بعض نقائض السلوك العام في الشارع والسوق "[١] .

أما الهجاء الفردي فبما أن مبعثه المنازعات الفردية ، والخلافات الشخصية التي هي صورة طبيعية للصراع على العيش والمال والجاه بين الأفراد في كل زمان ومكان ، فقد ظل هذا النوع من الهجاء قائماً العصر المملوكي ، بل وعلى مدى العصور . وبقي قائماً بين الشعراء الذين كانت تجرهم المنافسة إلى تجاوز حدود الهجاء التي كانت معروفة من قبل ، وربما تجاوز ذلك فيهجو الشاعر بأقذع الكلمات ، واشتدت موجته وركز على العيوب والمثالب مازجاً بذلك السخرية ، التي بدأ ظهورها في العصر الأموي ، وظل تيارها مستمراً في العصور التالية .، إلا أن صور الهجاء الفردي اختلفت في ذلك العصر ، " ولم يستخدم الشعراء معاني الهجاء التقليدية في الغالب ، من سلب الفضائل النفسية أو الإنسانية والاجتماعية من شخصية المهجو ، بل اعتمدوا على السخرية ، ورسم الشخصية بصورة هزلية ، والنيل منه بضروب من التعريض المقذع والماجن ، الذي ينطوي على ألفاظ جنسية أو تتناول الأعراض وتكشف العورات "[٢] .

من هذا المنطلق نجد أن الهجاء في العصر المملوكي تناول الفرد بصورة مختلفة عن العصور السابقة ، حيث إنه أصبح ، " يتناول الفرد باعتباره فرداً في المجتمع ، لا شأن لقبيلته وقومه به على الإطلاق ، مثلما كان الحال في شعر الهجاء القديم حتى في القرن الأول ؛ إذ كان الشاعر ينظر إلى نسب المهجو ومخازي قبيلته كأساس لهجائه . ولا ريب أن هذا التغير كان نتيجة للتحضر في المدن ، واكتمال الشخصية الاجتماعية لأفراده فيه واستقلالها عن القبيلة

---

(١) محمد زغلول سلام : الأدب في العصر المملوكي ، ٣ الشعر والشعراء ، منشأة المعارف ، الاسكندرية – مصر، ٣٨ .

(٢) محمد زغلول سلام : الأدب في العصر المملوكي ، ٣ الشعر والشعراء ، ٣٩ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأحكامها الصارمة "[1] . وهجاء أبو الحسين الجزار[2] لزوجة أبيه الشيخة يعتبر مثالاً على الهجاء الفردي بمعانيه الجديدة في العصر المملوكي ، كما في قوله[3] :

تَـــــزَوَّجَ الشيـــــخُ أبـــــي شَيخـــــةً ... ليـــــسَ لهـــا عَقـــــــلٌ ولا ذِهـــــــنُ
كَأنهـــــا فـــــي فَرشِهـــــا رُمَّـــــــةٌ ... وشَعرُهـــــا مـــــن حَولِهـــــا قطـــــنُ
وقائـــــلٌ قـــالَ لـــي كـــــمْ سِنُّهـــــا ... فَقلـــتُ مـــــا فـــي فمهـــا سِـــــنُّ
لو سَفـــرَتْ غُرَّتُهـــا فـــي الدُّجـــــى ... مـــــا جَـــرتْ تُبْصِرُهـــــا الجـــــنُّ[4]

وعلى الرغم من غياب الهجاء الفردي والقبلي في العصر المملوكي ؛ إلا أن الشعراء عنوا بمعظم الموضوعات التي كانت مطروقة في السابق ، مع بعض التطورات الجديدة التي دخلت هذا الفن والتي يمكن تلخيصها فيما يلي : " استمرار ميله إلى الشعبية في المعاني والأساليب والأوزان ، والرغبة في الهزل والإضحاك ، وانحرافه الكامل من القبلية أو الجماعية إلى الفردية ، وتضاؤله في طرق المعاني السياسية والدينية والعَقَدية ، وجنوحه إلى الهجاء الساخر (الكاريكاتوري) الذي شاع وانتشر في مطلع القرن الثاني"[5] .

غياب الهجاء الفردي والقبلي عند شعراء العصر المملوكي لا يعني عدم وجود مثل هذه النماذج في أشعارهم ؛ وإنما تعني غياب الأهمية والقيمة التي كانت تتمتع بها في العصور الأولى، والتأثير الكبير الذي كانت تتركه على المهجو . فقد وجدت نماذج (وإن كانت قليلة) في شعر الهجاء تتناول القبائل على سبيل الهجو ، ممزوجة بالدعابة والسخرية والهزل .

---

(١) قصي الحسين : الأدب العربي في العصرين المملوكي والعثماني ، المؤسسة الحديثة للكتاب ، طرابلس – لبنان، ٢٠٠٦م ، ٢٣٠ .

(٢) هو يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد بن علي ، جمال الدين ، أبو الحسين الجزار ، كان يعمل بالجزارة، أديب مصري ، له كتاب (فوائد الموائد) ، فاق أهل عصره ، وصار من فحول المتأخرين ، مدح السلاطين والملوك ، ويعتبر أكثر شعراء عصره هجاءً ، ولد عام ٦٠٣هـ/١٢٠٦م ، وتوفي عام ٦٧٩هـ/١٢٨٠م . ينظر ترجمته في : الصفدي : الوافي بالوفيات ، ٢٨٢/٤-٢٩٢ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ٥٧٠/١٧ .

(٤) الغرة : البياض . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (غرر) .

(٥) بكري شيخ أمين : مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ، ط ٣ ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت – لبنان ، ١٩٨٠م ، ١٣٩ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومما ورد في ذلك ، قول ابن بنيمان بن أبي الجيش[١] في هجائه للتلعفري ، حين قامر بالخفاف في أبيات يشكوه فيها للملك الناصر[٢] :

يـــا مليكـــاً فـــاقَ الأنـــامَ جميعـــاً ... منـــهُ جـــودٌ كالعـــارضِ الوكَّـــافِ[٣]
والَّـــذي راشَ بالعطايـــا جناحـــي ... وتَلافـــى بعـــدَ الإلَـــهِ تَلافـــي
مـــا رأينـــا ولا سمعنـــا بشيـــخٍ ... قبـــلَ هـــذا مقامـــرٍ بالخِفـــافِ
وبهـــا كـــمْ يُـــدَقُّ فـــي كُـــلِّ يـــومٍ ... فـــي قَفـــاهُ والـــرأسِ والأكتـــافِ
أســـودُ الوجـــهِ أبيـــضُ الشعـــرِ لكـــنْ ... فـــي سحيـــمٍ وقُبحِـــهِ وخِفـــافِ[٤]
يدَّعـــي نِسْبـــةً إلـــى آلِ شيبـــا ... نِ الـــقـــبـــائـــلِ الأشـــرافِ
وهـــمُ يُنكـــرونَ مـــا يَدَّعيـــهِ ... فهـــو والقـــومُ دائمـــاً فـــي خِـــلافِ
مثـــلُ نجـــدٍ لـــو استطاعـــت لقالـــت ... ليـــسَ هـــذا الدَعـــيُّ مـــنْ أكْنافـــي
فابســـطْ العُـــذرَ فـــي هَجـــاءِ رَقيـــعٍ ... عـــادلٍ عـــنْ طرائـــقِ الإنْصـــافِ

ومن خلال قراءة مجموعة من النماذج الشعرية لدى كبار الشعراء في العصر المملوكي ، نستطيع أن نرسم صورة واضحة ومكثفة عن عدة مظاهر سياسية ، واجتماعية ، وأدبية ، تظهر هجاء بعض الأوضاع السلبية التي كانت سائدة في ذلك الوقت ، حيث إن الهجاء لم يأت من فراغ ، فهو بين الشعراء منشؤه التحاسد ، والمعاصرة ، ومدى القرب والبعد من السلطة الحاكمة ، فنقرأ من خلال الهجاء أهم المظاهر السياسية ، وكيف كانت تدار مقاليد الحكم . أما عن المظاهر الاجتماعية التي يرسمها الهجاء ، فهو تعرف طبقات المجتمع والحياة ، ومستوى المعيشة لدى الشعراء ، وقد كان اختلاف الفوارق الاجتماعية من الأسباب المهمة التي أدت إلى الهجاء ، ومن الناحية الأدبية ، نستطيع من كل ما سبق أن نرسم لوحة كاملة للحركة الأدبية ، وعلى رأسها (حركة الهجاء) ، التي هي نتاج عن التعبير والاحتجاج وعدم الرضى على كل المستويات .

---

(١) هو سليمان بن بنيمان بن أبي الجيش بن عبد الجبار بن بنيمان ، أبو الربيع ، شرف الدين ، أديب وشاعر ، توفي عام ٦٨٦هـ/١٢٨٧م ، وقد فاق التسعين عاماً . ينظر ترجمته في : ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ٢٤/٦ .

(٢) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ٢٢٠/١٥-٢٢١ .

(٣) وكاف : السائل . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (وكف) .

(٤) سحيم هو عبد شاعر أعجمي الأصل ، كان يعجب النبي بشعره ، اشتراه أحد بطون بني أسد ، وهم بني الحسحاس ، إلا أنه كان يتشبب بنسائهم فقتلوه وأحرقوه عام ٤٠هـ/٦٦٠م ، وله ديوان شعر . ينظر : الزركلي : الأعلام ، ٧٩/٣ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبحث الأول : هجاء النفس والشكوى من الفقر :

هجاء النفس يعنى وصف بشاعتها الخَلقية والخُلقية من وجهة نظر الهاجي نفسه ، ويكون الهاجي هو المهجو ، لذا تبرز فيها صور بلاغية ، وشعور صادق ، لأنه يصعب أن يحب الإنسان شيئاً أكثر من نفسه . وهجاء النفس يجعلنا نرى عيوبنا ، ونعبر عنها تعبيراً صادقاً ؛ فالإنسان هو الشخص الوحيد الذي يعرف نفسه . وقد تناول الشعراء على مدى العصور هذا اللون من الهجاء ، وامتلأت كتب الأدب به .

وأول من بدأ بهجاء نفسه من الشعراء المعروفين هو الحطيئة ؛ الذي كان يهجو كل شيء ، حتى إنه إن لم يجد من يهجوه هجا نفسه . ولعلنا نذكر نموذجاً على هجاء الحطيئة لنفسه[١] :

أبـــتْ شفتـــايَ اليـــومَ إلَّا تكلُّمـــاً بســـوءٍ ، فمـا أدرى لِمـــنْ أنـــا قائِلُـــهْ
أرى لـــي وجهـــاً شَـــوَّهَ اللهُ خَلقَـــهُ فقُبِّـــحَ مـــنْ وجـــهٍ وقُبِّـــحَ حامِلُـــهْ

وممن هجا نفسه أبو دلامة ، وذلك حين " دخل أبو دلامة[٢] على المنصور وعنده المهدي وعيسى بن موسى ، فقال له المنصور : اهج بعض من في المجلس . فقال في نفسه : من أهجو ، الخليفة أم ابن أخيه؟ ما أحد أحق بالهجاء مني ، فقال :

ألا أبلـــغْ لديـــكَ أبـــا دُلامـــة فلســـتَ مـــنَ الكـــرامِ ولا كَرامَـــةْ
جمَعـــتَ دَمامـــةً وجَمَعـــتَ لؤمـــاً فـــذاكَ الـــلـــؤمُ تتبعـــهُ الدَمامـــَـــةْ
إذا لَبـــسَ العِمامـــَـةَ قلـــتُ قـــردٌ وخنزيـــرٌ إذا وضـــعَ العِمامـــَـةْ

فضحك المنصور وأمر له بجائزة "[٣] .

ولم يهجُ القدماء فقط أنفسهم بل هناك من طلب من الشاعر أن يهجوه ، وهذا يدل على

---

(١) عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت٢٧٦هـ/٨٩٠ م) : الشعر والشعراء ، تصحيح وتعليق مصطفى أفندي السقا ، مطبعة المعاهد ، القاهرة – مصر ، ١٩٣٢م ، ١١١.

(٢) هو زيد بن الجون الأسدي ، اتهم بالزندقة لتهكمه ، واشتهر بالدعابة ، نشأ بالكوفة ، واتصل بخلفاء بني العباس، توفي عام ١٦١هـ/٧٧٨م . ينظر : الزركلي : الأعلام ، ٣/٤٩-٥٠ .

(٣) ابراهيم بن محمد البيهقي (ت٣٢٠هـ/٩٣٢م) : المحاسن والمساوئ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، د.ت ، ١/٢٤٥ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

رغبة الشخص في معرفة رأي الآخرين به لسبب ما . وقد هجا أبو العتاهية[١] المهدي حين طلب منه ذلك فيقول : " خرجت مع المهدي إلى الصيد فتفرق أصحابه وبقيت معه وقد أقبل علينا المطر ، فانتهينا إلى ملاح معه زورق ، فقال لنا : ادخلا من هذا المطر . فدخلنا ، ووقعت الرعدة على المهدي من شدة البرد ، فقال له الملاح : هل لك أن ألقي عليك جبتي؟ فقال : نعم . فألقاها عليه . فما زال يتقرقف حتى نام ، ثم أقبل الخدم والغلمان وألقوا عليه الخز والوشي ، فلما انتبه أمر بدفع ذلك إلى الملاح وقال : يا أبا العتاهية ألا هجوتني! فقلت : يا أمير المؤمنين وكيف تطيب نفسي بهجائك؟ قال : فإني أسألك بالله ، فقلت[٢] :

يـــا لابـــسَ الوشـــي على شيبِـــهِ مـــا أقبـــحَ الأشيـــبَ فـــي الـــداحِ[٣]

فهجاء النفس يجعلنا نحكم على أنفسنا ، ويكشف الشاعر عما تجسده نفسه في داخلها ، فهو كالنقد الذاتي ، حتى إنه يعتبر أكثر إيلاماً وأقرب إلى جلد النفس . وقد صدق الإمام أبو الحسن البصري النحوي(ت٣٦٠هـ/٩٦١م) حين قال[٤] :

يعيـــبُ النـــاسُ كُلُّهـــم الزَّمانـــا ومـــا لزمانِنـــا عيـــبٌ سِوانـــا

نَعيـــبُ زمانَنـــا والعيـــبُ فينـــا ولـــو نَطـــقَ الزَّمـــانُ إذاً هَجانـــا

وهجا الكثيرون من شعراء العصر المملوكي أنفسهم ، وقذفوها بأفظع الاتهامات . ومن الشعراء الذين نضح شعرهم بهذا اللون من الهجاء في ذلك العصر أبو الحسين الجزار ، الذي هجا نفسه في مواقف عديدة ، وهجا أطماعه التي جعلت جسمه بارداً من الهموم ، في لوحة صادقة تعبر عن شدة المعاناة ، كقوله[٥] :

أدْرِكونـــي فَبـــي مـــنَ البـــردِ هـــمٌّ ليـــسَ يُنْسَـــى وَفـي حَشَـــاي التهـــابُ

أَلْبستْنـــي الأطمـــاعُ وهمـــاً فها جســـ ـــمـي عَـــارٍ ولـــي فِـــرًى وثيـــابُ

كلمـــا ازرقَ لـــونُ جسمـي مـــن البـــر ـــدِ تَخيلـــتُ أنـــَّـــهُ سِنجـــابُ

---

(١) هو أبو إسحاق ، إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني العنزي ، لقب أبا العتاهية لعتوه ، شاعر مبدع من طبقة المولدين ، ولد عام ١٣٠هـ/٧٤٨ م ، وتوفي عام ٢١١هـ/٨٢٦ م . ينظر : الزركلي : الأعلام ، ٣٢١/١ .

(٢) إبراهيم بن محمد البيهقي : المحاسن والمساوئ ، ٢٤٤/١ .

(٣) الوشى : ألوان كثيرة من الثياب . الداح : النقش . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (شي) ومادة (داح) .

(٤) ابن ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م) : معجم الأدباء ، تحقيق إحسان عباس ، ط ١ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٣م ، ٢٦٢٠/٦ .

(٥) الكتبي : فوات الوفيات ، ٢٨٨/٤ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يقر الشاعر بأطماعه ويعتبرها وهماً تعلق به ، جعلت جسمه بارداً لا حرارة فيه حتى إنه يزرق من شدة البرد ، ويشبه جسمه بهذه الحالة بالسنجاب . فهنا يعترف الشاعر بصفة الطمع ويحكم على نفسه بأنه طماع دون الحاجة لأن يصفه شخص آخر بذلك ، ويعترف أنه لا يستطيع أن يقاوم أطماعه ، بل إنه يستنجد الآخرين ليدركوه ، فأطماعه قد أخذت منه مأخذاً وصل إلى الذروة .

وها هو ذا ابن دانيال[١] يهجو حظه وبخته بالشؤم ؛ لأنه اضطر إلى بيع عبده وحماره ، ولم يعد لديه شيء ، فأصبح فقيراً بعد أن باع كل ما يملكه ، فيقول[٢] .

ما عاينَـــتْ عَينـــايَ فـــي عُطْلَتـــي أيشـــمَ مـــنْ حظِّـــي ومـــنْ بَخْتـــي[٣]
قـــدْ بعـــتُ عَبـــدي وحِمـــاري وقَـــدْ أصبحـــتُ لا فَوْقـــي ولا تَحْتـــي

وبأبيات أخرى يهجو جسمه الذي أصبح نحيلاً بسبب الحب ، يكاد من شدة نحوله أن يذوب كأنه ورق يحركه نسيم الصبا ، كما في قوله[٤] :

محـــبٌّ غـــدا جِسْمُـــهُ ناحـــلاً يكـــادُ لفـــرطِ الضَّنـــى أنْ يذوبـــا
ورَّقَّ فلـــو حركَتْـــهُ الـصِّبـــا لصـــارَ نَسيمـــاً وعـــادتْ قضيبـــا[٥]

كذلك هجا الشعراء الشيب في رأسهم . ومنهم الشاعر ابن نباتة[٦] ، رغم أنه من المعروف أن ظهور الشيب دليل على وقار الرجل ورشده ، إلا أن الشاعر يصر على بقائه على ما كان

---

(١) هو محمد بن دانيال بن يوسف الموصلي ، له كتاب (طيف الخيال) ، وكان شاعراً وطبيباً وكحالاً ، وله ديوان شعر ، موصلي الأصل ، ونشأ بالقاهرة ، ولد عام ٦٤٧هـ/١٢٥٠م ، وتوفي عام ٧١٠هـ/١٣١٠م . ينظر ترجمته في : الكتبي : فوات الوفيات ، ٣٣٠/٣ . وينظر : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ١٥١/٩-١٥٢ .

(٢) أبو الفلاح عبد الحي بن عماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م) : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تحقيق محمد الأرناؤوط ، ط ١ ، دار ابن كثير ، دمشق – بيروت ، ١٩٩١م ، ٥٠/٨ .

(٣) أيشم : لفظ عامي لكلمة أشأم . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (شأم) .

(٤) ابن فضل الله العمري (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ط ١ ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي – الإمارات ، ٢٠٠٢م ، ٣٨٧/١٩ .

(٥) القضيب : الغصن . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (قضب) .

(٦) هو محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي ، أبو بكر ، جمال الدين ، فارقي الأصل ، ومصري المولد ، شاعر عصره ، ، له ديوان شعر ، وله كتاب (سرح العيون) ، ولد عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م ، وتوفي عام ٧٦٨هـ/١٣٦٦م . ينظر ترجمته في : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ٧٦/١١ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عليه في الصبا ، فيقول[١] :

لا حبَّذا شيبٌ برأسي ولا شيبٌ بقلبي أقذيا عيني[٢]
ما كنتُ بالتائبِ منْ صَبوتي أصلاً فقدْ تُبْتُ بِشيئينِ

ولا يكتفي ابن نباته بهجاء الشيب بل يهجو كبره الذي لم يصلح من حاله ، حتى إنه ازداد نحساً بكبره . ويتمادى في هجاء نفسه حتى يصل به الحد إلى أن يصفها بالنحس الكبير[٣] :

وكنْتُ أظنُ في كِبَري صَلاحاً يُكَفرُ زَلةَ السِّنِ الصَغيرِ
فلمّا أنْ كَبِرْتُ ازددتُ نَحْساً فقل ما شِئتَ في النَّحسِ الكَبيرِ

ولم يكن ابن نباته الوحيد الذي هجا شيبه في هذا العصر ، فهذا ابن الوردي[٤] يهجو الشيب أيضاً لظهوره في رأسه ولحيته ، ويعتبر هذا عيباً بل عيبين عاقبه الدهر بهما في حين رد الآخرين بعيب واحد ، كقوله[٥] :

مَنْ كانَّ مردوداً بعيبٍ فَقَد ردَّتني الغِيدُ بعيبين[٦]
الرَّأسُ واللِّحيةُ شَابَا معاً عاقَبَني الدَّهرُ بِشَيبين

ويهجو السراج الوراق[٧] نفسه موريا لأنه لا يشبه العرب في شكله ، فهو أزرق العينين أشقر كالأعاجم ، إلا أنه يركب الحمار وليس الفرس[٨] :

ومنْ رآني والحمارُ مركَبي وورقَتي للرومِ عِرْقٌ قدْ ضربْ
قالَ وقدْ أبْصرَ وجْهيَ مُقبلاً لا فارسَ الخَيلِ ولا وجْهَ العربْ

---

(١) الكتبي : فوات الوفيات ، ١٥٩/٣ .

(٢) القذى : ما يقع في العين وما ترمى به . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (قذى)

(٣) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ، ٥٧٠/١٩ .

(٤) هو زين الدين عمر بن محمد بن أبي الفوارس ، قاض وأديب وشاعر ، ولى قضاء منبج ، له ديوان شعر ، وصاحب كتاب (تاريخ ابن الوردي) أو المعروف بـ (تتمة المختصر) ، ولد بالمعرة بسوريا عام ٦٩١هـ/١٢٩٢م ، وتوفي عام ٧٤٩هـ/١٣٤٩م . ينظر ترجمته في : الكتبي : فوات الوفيات ، ١٥٧/٣-١٦٠.

(٥) الكتبي : فوات الوفيات ، ١٥٩/٣ .

(٦) الغيد : المرأة الناعمة . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (غيد) .

(٧) هو عمر بن محمد بن حسن ، سراج الدين الوراق ، أبو حفص ، مصري الأصل ، شاعر وأديب ، له ديوان شعر ، ولد عام ٦١٥هـ/١٢١٩م ، وتوفي عام ٦٩٥هـ/١٢٩٦م . ينظر ترجمته في : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ٦٩/٨ .

(٨) الكتبي : فوات الوفيات ، ١٤٠/٣ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولا يهجو السراج نفسه بل يتوقع أيضاً أن يهجوه الآخرون ، فهو يعترف بأن صحائفه أصبحت سوداء لسوء أفعاله ، في حين أن صحائف الأبرار مشرقة ، كما في قوله[١] :

يا خَجْلتـي وصَحائِفـي سـودٌ غَـدَا وصحائـفُ الأبْـرارِ فـي إشْـراقِ
وتَوقُّعـي لِمُوبـخٍ لـي قائِـلٍ أهكـذا تكـونُ صحائـفُ الـوراقِ

ويعترف التَلْعَفَري[٢] بعدم صلاحه وإن كان يحب أهل الصلاح ، وبفعله للمعاصي وإن كان يكره أهل المعاصي ، فيقول في هجاء نفسه[٣] :

أحِـبُّ الصالحيـنَ ولسـتُ منهـمْ رجـاءَ أنْ أنـالَ بهـم شَفاعـةْ
وأُبْغِـضُ مَـنْ بِـهِ أثـرُ المعاصـي وإنْ كنَّـا سَـواءَ فـي البِضاعـةْ

ولربما أراد الشاعران في النموذجين السابقين الورع والخوف من الله أكثر مما أرادا هجاء أنفسهما .

كثرت أبيات هجاء النفس التي تناولها شاعر العصر المملوكي بجرأة كبيرة تكشف عن عيوبه ، وتذمره مما ألم به فيطلق للسانه العنان ساخراً من نفسه بروح مرحة ، مثيراً بذلك مشاعر السخط والرضى في آن واحد ، مستخدماً أسالـيباً بسيطة وواقعية ، وتصويراً حياً ، حتى أنه يبتدع لنفسه عيوباً قد لا يعتبرها الآخرون عيوباً ، ويصورها بصور جديدة لم يسبقه إليها أحد .

وخلال هجاء الشعراء لأنفسهم هجوا فقرهم أيضاً . والشكوى من الفقر عادة نتيجة لأوضاع اقتصادية واجتماعية لا تقتصر على عصر من العصور ، إلا أن الشعراء في العصر المملوكي تناولوها بنظرة مختلفة تنم عن لحظات الضيق التي كانوا يمرون بها ، وحالات الفقر التي تقلب فيها الشعراء . وقد وردت في الأبيات السابقة نماذج لشعراء يمزجون فيها بين هجاء النفس والشكوى من الفقر ، كما في أبيات أبو الحسين الجزار وابن دانيال ، وجاءت شكواهم صادقة معبرة عن حالهم بلوحات فنية متنوعة . ويرى ابن رشيق القيرواني أن : " الفقر آفة الشعر ، وإنما ذلك لأن الشاعر إذا صنع القصيدة وهو في غنى وسعة نقحها وأنعم النظر فيها على مهل ، فإذا

---

(١) الكتبي : فوات الوفيات ، ٢٣٩/١ .

(٢) هو محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة ، شهاب الدين الشيباني التلعفري ، أديب بارع ، وشاعر مشهور ، مدح الملوك والأعيان ، وكان يلعب القمار ، فطرد من مصر ثم من حلب ، ولد بالموصل عام ٥٩٣هـ/١١٩٧م ، وتوفي عام ٦٧٥هـ/١٢٧٧م . ينظر ترجمته في : الكتبي : فوات الوفيات ، ٦٢/٤ .

(٣) ديوان شهاب التلعفري (ت ٦٧٥هـ/١٢٧٧م) ، تحقيق وتقديم رضا رجب ، ط ٢ ، دار الينابيع ، دمشق ، ٢٠٠٤م ، ص ٥٨٢ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كان مع ذلك طمع ، قوي انبعاثها من ينبوعها ، وجاءت الرغبة بها في نهايتها محكمة ، وإذا كان فقيراً مضطراً رضي بعفو كلامه ، وأخذ ما أمكنه من نتيجة خاطره ، ولم يتسع في بلوغ مراده ولا بلوغ مجهود نيته ؛ لما يحفزه من الحاجة والضرورة ، فجاء دون عادته في سائر أشعاره وربما قصر عمن هو دونه بكثير . ومنهم من تحمي الحاجة خاطره ، وتبعث قريحته ؛ فيجود ، فإذا أُوسع أَنِفَ ، وصعب عليه عمل الأبيات اليسيرة فضلاً عن الكثيرة ، وللعادة في هذه الأشياء فعل عظيم ، وهي طبيعة خامسة كما قيل فيه "[1] .

ويعتبر الفقر مظهراً أساسياً في عصر طبقي كالعصر المملوكي ، يعيش فيه طبقة من الأغنياء ، وطبقة أخرى من الفقراء . والشاعر عفيف الدين ابن عدلان[2] يرى أن الفقر في عصره متوقع له أن يدوم ؛ لأن الكرام قد ماتوا ولم تأتِ الدنيا بأمثالهم ، وقد ذكر ذلك بقوله[3] :

لا تَعجبَنَّ إذا ما فاتَكَ المطلبْ وعَوِّدْ النفسَ أنْ تَشقى وأنْ تَتعبْ

إن دامَ ذا الفقرِ في الدنيا فلا تَعْجبْ ماتَ الكرامُ وما فيهم فتىً أعْقبْ

وممن جمع بين هجاء النفس والشكوى من الفقر الشاعر ابن نباته . فهو في أبياته يوضح مدى الحال الأليم الذي وصل إليه حين اجتمع شيبه وفقره معاً لدرجة يرثى لها ، كقوله[4]:

لقدْ أصبحتُ في حالٍ يرقُّ لمثلها الحجرُ

مشيبٌ وافتقارُ يدٍ فلا عينٌ ولا أثرُ

كذلك هجا الشاعر المعروف بابن الفقيسي[5] نفسه وشكا فقره حين اجتمعا معاً ، فخارت قواه

---

(١) القيرواني : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، ٢١٥/١ .

(٢) هو علي بن عدلان بن حماد بن علي ، أبو الحسن ، لقب بعفيف الدين ، إمام وعلامة في الأدب ، من تصانيفه (عقلة المجتاز في حل الألغاز) ، ولد بالموصل عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، وتوفي بالقاهرة عام ٦٦٦هـ/١٢٦٧م . ينظر ترجمته في : الكتبي : فوات الوفيات ، ٤٣/٣-٣٧ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ١٩٧/٧.

(٤) ابن حجة الحموي : خزانة الأدب ، ١٤٨/٢ .

(٥) هو الحسن بن شاور بن طرخان بن حسن ، ناصر الدين بن النقيب ، المعروف بابن الفقيسي أو النفيسي ، له كتاب (منازل الأحباب ومنازه الألباب) ، شاعر وله ديوان شعر ، توفي عام ٦٨٧هـ/١٢٨٨م . ينظر ترجمته في : الصفدي : الوافي بالوفيات ، ٢٩/١٢-٣٦ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وجفاه النوم ، فقال فيهما[١] :

وجُـــرِّدَتْ مـــــعْ فقـــري وشَيخوخَتـــي قُواهـــا فَنومـــي عـــن جُفونـــي مُشـــرَّدُ
فـــلا يَدَّعـــي غَيـــري مَقامـــي فإنَّنـــي أنـــا ذَلـــك الشَّيْـــخُ الفقيـــرُ المُجـــرَّدُ

وهناك من يداري فقره بالفخر فلا يعرف الناس بفقره . ويكشف لنا الشاعر أبو الفضل بن أبى الوفاء[٢] عن كثرة هؤلاء ، وبأنه كان واحداً منهم ، وهو يفتخر بنفسه لأنه كثير المعاني ويشكوها بأنه رغم ذلك فقير[٣] :

عَبْـــــدُكَ الصَّـــــبُّ المُعنَّـــــى عـــَـــرَفَ الفَقـــــرَ وَذاقَـــــهْ[٤]
فَلكَـــــمْ فاخِـــــرٍ مُحتـــــا جـــاً شَكـــا فَقْـــراً وفاقَـــهْ

وهكذا كان للشعراء في هجائهم النفسي قاموس لفظي خاص بهم ، وصور متنوعة ، ولوحات فنية يرسمون بها صفاتهم الظاهرة والباطنة ، ويصورون أنفسهم بمعانٍ مؤلمة بتفاوت خيالي ، وتصوير عبثي لطيف ، مجسمين عيوبهم الصغيرة ، هاجين أنفسهم وهاجين حظهم وبختهم لكونهم فقراء ، بأسلوب شعبي ، وألفاظ سهلة ، وتعابير بسيطة .

ولم يشكُ الشعراء فقط من الفقر ؛ بل أيضاً مما يدل على الفقر ، وذلك بهجاء ما لا يَعْقِل، فهجوه بصور فنية متناهية الغرابة بأساليب سهلة ومعبرة ، ممزوجة بروح السخرية مما هم عليه من حال . ويصادفنا في هذا العصر ما قاله الشاعر ابن دنيال ، وهو يشكو حاله وداره التي لم يعد فيها سواه ، وقد أمعن في تصوير حاله عند النوم بصور تبعث على السخرية ، وتعكس جانباً من جوانب المجتمع المملوكي[٥] :

أَصْبحـتُ أَفْقـرَ مَـنْ يَـروحُ وَيَغْتَـدي مـا فـي يَـديَ مِـن فاقَـةٍ إلا يَـدِي
فـي مَنْـزِلٍ لـمْ يَحْـوِ غَيْـري قاعِـداً فَـإذا رَقَـدْتُ رَقَـدْتُ غَيـرَ مُمـدَّدِ
لـمْ يَبـقَ فيـهِ سِـوى رُسـومِ حَصيـرَةٍ وَمَخـدَّةٍ كانـتْ لأُمِّ المُهْتَـدِّي

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ٣١٧/٧ .

(٢) هو عبد الرحمن بن أحمد بن محمد ، أبو الفضل بن أبي الوفاء ، ولد عام ٧٨١هـ/١٣٧٩م ، شاعر مصر ، وقيل بأنه أشعر بني الوفاء ، وله ديوان شعر ، توفي غريقاً في النيل عام ٨١٤هـ/١٤١١م . ينظر ترجمته في : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ١٣٦/١٣ . وينظر : الزركلي : الأعلام ، ٢٩٤/٣ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ١٣٧/١٣ .

(٤) الصب : الغزير . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (صبب) .

(٥) الكتبي : فوات الوفيات ، ٣٣٣/٣ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مُلقىً عَلى طَرَّاحةٍ في حَشوِها قَملٌ كَمثلِ السُّمسُمِ المُتَبدِّدِ
والفَأرُ يَرْكُضُ كالخيولِ تَسابَقَتْ مِنْ كُلِّ جَرْداءِ الأَديمِ وَأجْرَدِ[1]
هَذا وَكَم ناشِرٍ طاوي الحَشا يَبْدو كَمثلِ الفاتِكِ المُتَردِدِ
هَذا وَلي ثَوبٌ تَراهُ مُرَقَّعاً مِن كُلِّ لَونٍ مِثْلَ ريشِ الهُدهُدِ

وتابع الشعراء هجاء دارهم بالخراب الذي يعيشون فيه ، متناولين معاني مستوحاة من القرآن الكريم ، فنرى أبو الحسين الجزار يشكو داره موريا في أبياته ما بين المعاني التي أرادها ، والمعاني المرادة في القرآن ، ولا فرق عنده إن كان في داره أم على قارعة الطريق[2] :

ودارِ خَرابٍ بِها قَدْ نَزَلْتُ وَلكِنْ نَزَلْتُ إلى السابِعَةْ
طَريقٌ مِنَ الطُّرْقِ مسلوكةٌ فَحُجَّتُها لِلوَرى شاسِعَةْ
فَلا فَرْقَ ما بَينَ أنِّي أكونُ بِها أو أكونُ عَلى القارِعَةْ
تُساوِرُها هَفَواتُ النَّسيمِ فَتُصْغي بِلا أذنٍ سامِعَةْ

واستكمل شعراء العصر المملوكي هجاء مالا يعقل بهجاء ما يدل على الفقر أيضاً ، فهجوا الحمَّامات التي اختص بها عامة الناس ، أما الحمَّامات الخاصة فقد اقتصرت على بيوت السلاطين والأمراء . وهجاء الشعراء لهذه الحمَّامات العامة دليل واضح على ما كانت تعبر عنه في ذلك العصر . فالشاعر ابن الأعمى[3] يهجو حَمَّاماً بأقذع الكلمات ؛ لظلامه وضيقه وعدم وجود الماء فيه ، وكأنه قبر موحش يلقى فيه أشد أنواع العذاب ، مستوحياً من ألفاظه المعاني الدينية التي وصف بها القرآن عذاب القبر والنار ووقوف مالك خازن النار على بابه ، حتى أنه يجد أن هذا العذاب أهون مما يكابده من عذاب في هذا الحمام[4] :

إنَّ حَمَّامَنا الَّذي نحنُ فيهِ قَدْ أناخَ العذابُ فيهِ وخَيَّمْ
مُظْلِمُ الأرضِ والسَّما والنَواحي كُلُّ عَيبٍ مِن عَيبِهِ يَتعلَّمْ
حَرْجُ بابِهِ كَطاقَةِ سِجنٍ شَهِدَ اللهُ مَنْ يُجَزَ فيهِ يَنْدَمْ

---

(١) الأديم : جمع آدمة ، وجه الأرض . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (أدم) .

(٢) تقي الدين ابن حجة الحموي (ت٨٣٧هـ/١٤٣٤م) : خزانة الأدب وغاية الأرب ، تحقيق عصام شعيتو ، دار ومكتبة الهلال ودار البحار ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٤م ، ٦١/٢ .

(٣) هو علي بن محمد بن المبارك ، كمال الدين ، أديب وشاعر ، وكان خطيب القدس ، وله (المقامة البحرية) ، توفي عام ٦٩٢هـ/١٢٩٣م . ينظر ترجمته في : الكتبي : فوات الوفيات ، ٨٧/٣–٨٨ .

(٤) الحنبلي : شذرات الذهب ، ٧٣٦/٧ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبِـــــــه مَالـــكُ غَـــدا خـــازنَ النَّـــا ... رِ بَـــــلـــى مـــالـــكُ أرقُّ وأرحـــــمْ
كلَّمـــا قلـــتُ قَـــــدْ أَطَلـــتَ عَذابـــي ... قَـــالَ لـــي إخْسَـــأْ فيـــــهِ ولا تَتكلـمْ
قُلـــتُ لمَّـــــا رَأيتُـــــهُ يَتلظَّـــــى ... ربَّنـــا اصْـــرفْ عنَّـــا عـــذابَ جهنَّـــمْ

ومن مظاهر الفقر الثياب القديمة والمهترئة ، تناولها ابن الجزار بعرض بسيط ، فيه تعبئة كبيرة للحالة المزرية التي يعيشها ، فجاءت ألفاظه خالية من التنميق والصنعة ، فهي تجري شاكية وضعها وحالها . ويتحسر على ثوبه المهترئ ، ولم يعد ينفع فيه الرقع ، فيقول فيه[١]:

لـــي نِصفيَّـــةٌ تُعـــدُّ مـــن العُمـــرِ شيئـــاً ... سنينـــــاً غَسلتُهـــــا ألـــــفَ غَسلَـــــةْ
لا تسألنـــــي عـــــنْ مُشتراهـــــا ففيهـــــا ... منـــــذُ فصَّلتُهـــــا نشـــا يحمِلَـــــهْ
كـــلَّ يـــومٍ يحوطُهـــا العصـــرُ والـــدَّقُّ ... مِـــــراراً ولـــــنْ تُقِـــــرَّ بعمَلَـــــهْ
نسَـــفَ الريـــحُ صدرَهـــا والمـــرازبُ ... فباتـــتْ تشكـــو هِـــزاءً نَزَلَـــــهْ
أيـــنَ عَيشـــي بهـــا القديـــمُ وذاكَ ... التِّيـــهُ فيهـــا وخُضرَتـــي والشِّملَـــةْ[٢]
قـــال لـــي النَّـــاسُ حيـــن أطنبـــتُ فيهـــا ... بـــسْ أكْثَـــرتَ خَلِهـــا فهـــي تَقلَـــةْ[٣]

وقد يجمع الشاعر بين معاني الهجاء القديم ومعاني الهجاء في عصره . ونجد لدى الشعراء كثيراً من الإشارات الدالة على ذلك ، ومنهم صفي الدين الحلي[٤] ، فهو يهجو اصطبل صديقه على لسان فرسه ، يشكو فيه من سوء المعيشة ، مستعيراً لذلك ما استعمله القدماء في بداية قصائدهم بالوقوف على الأطلال ، ولكنها ليست أطلال المحبوبة بل أطلال مالا يعقل ، وقد أحسن الشاعر تشطير[٥] أبيات من معلقة امرئ القيس ، كما نرى في قوله[٦] :

---

(١) أبو الفتح اليونيني (ت٧٣٦هـ/١٣٣٥م) : ذيل مرآة الزمان ، ط ٢ ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٩٢م ، ٧٣/٤ .

(٢) التيه : الكبر . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (توه) .

(٣) بس : تستعمل لزجر الدابة ، ويستخدمها العامة بكثرة . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (بسس) .

(٤) هو عبد العزيز بن سرايا بن علي بن أبي القاسم بن أحمد بن نصر ، أبو المحاسن ، شاعر العصر ، اشتغل بالتجارة ، له ديوان شعر ، ولد عام ٦٧٧هـ/١٢٧٩م ، وتوفي في بغداد عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م . ينظر ترجمته في : الصفدي : الوافي بالوفيات ، ٢٩٢/١٨-٢٩٣ .

(٥) التشطير هو " أن يقسم الشاعر بيته شطرين ، ثم يصرع كل شطر منهما ، لكنه يأتي بكل شطر من بيته مخالفاً لقافية الآخر كل شطر عن أخيه " . ابن حجة الحموي : خزانة الأدب ، ٣٨١/١ .

(٦) شهاب الدين الأبشيهي (ت٨٥٠هـ/١٤٤٦م) : المستطرف في كل فن مستظرف ، مطبعة المعاهد ، القاهرة – مصر ، ١٩٣٣م ، ٧/٢ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

رأى فَرَسِي اصْطبلَ عيسى فَقال لي ... قِفا نَبكِ مِن ذِكرى حبيبٍ ومَنزِلِ
بِهِ لَمْ أَذقْ طعْمَ الشَّعيرِ كَأَنَّني ... بِسقطِ اللِّوى بينَ الدُّخولِ فَحَومَلِ
تُقَعْقِعُ مِنْ بَردِ الشِّتاءِ أَضالُعي ... لمَا نَسَجْتَهَا مِنْ جَنوبٍ وشَمْأَلِ

وهجا البهاء زهير[1] ليله الطويل ، مما يدل على الضيق وسوء الأوضاع وكثرة الهموم ، فيقول[2] :

حَدِّثوا عَنْ طولِ ليلٍ بِتُّهُ ... هلْ رأيتمْ هلْ سمعتمْ هلْ عُهِدْ
لا رعاهُ اللهُ ما أطولَهُ ... تَحْبِلُ المرأةُ فيهِ وتَلِدْ
ليسَ ما أشكوهُ منه واحداً ... كلُّ شيءٍ مَرَّ بي فيهِ نَكِدْ

وفي أبيات تدل على صعوبة وقسوة الحياة التي يعيشها الإنسان ، يشكو ابن دقيق العيد[3] من فقره ، ويخشى إذا شكا فقره أن يفقد حياءه بين الناس ، وإن فضل الصبر على الشكوى أن يقتله الفقر . فيقول بأبيات تدل على صعوبة الاختيار[4] :

لعمري لقدْ قاسيتُ بالفقرِ شِدَّةً ... وقعتُ بها في حَيْرةٍ وشتاتِ
فإن بُحتُ بالشكوى هَتكتُ مُروءتي ... وإن لمْ أبُحْ بالصَّبرِ خِفتُ مماتي
فأعظِمْ بهِ من نازلٍ بمُلِمَّةٍ ... يُزيلُ حيائي أو يُزيلُ حياتي

وهكذا تشكلت نفسية الشاعر ، وتلونت أحاسيسه ، تبعاً لبيئته ومجتمعه ، وتلاعب بألفاظه ومعانيه معبراً عن همومه وأحزانه ، واستخدم صوراً نادرة ومتطورة في فن الهجاء ، وخاض فيما لم يخض فيه القدماء ، وأصبح هجاؤه قريباً من الشعب ملتصقاً به ، يجمع فيه بين قيم الهجاء المعنوية والحسية ، ويهجو ما يعقل ، فيهجو شخصه متناولاً في ذلك شكله وصفاته التي لا يرتضيها لنفسه ، ويهجو ما لا يعقل ليعبر به عن فقره وسوء أحواله ، كالدار وما في داخل الدار، ليعبر بذلك عما يجول بداخله بمعان سامية وألفاظ تدل على صور الهجاء العفيف .

---

(١) ديوان البهاء زهير (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م) ، شرح وتحقيق محمد طاهر الجبلاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ٢، دار المعارف ، القاهرة – مصر ، ١٤٨ .

(٢) ديوان البهاء زهير ، ٧٥ .

(٣) هو محمد بن علي بن وهب بن مطيع ، تقي الدين أبو الفتح ، قاضي القضاة ، وله أشعار كثيرة ، ومن مصنفاته (الإلمام) ، ولد عام ٦٢٥هـ/١٢٢٨م ، وتوفي عام ٧٠٢هـ/١٣٠٢م . ينظر ترجمته في : الكتبي : فوات الوفيات ، ٤٤٢/٣-٤٤٣ .

(٤) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ١٤٣/٤ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الهجاء الهزلي :

الهزل فن أدبي ارتبط بحياة الناس والمجتمع ، فهو يريح النفس ويشرح الصدر ، وهو نقيض الجد ، الذي قد تمله النفس فتلجأ إلى الهزل للترويح والتنفيس ، إلا أنه أشد إيلاماً من الهجاء المباشر ؛ لما يحمله من تأثير في النفس ، حتى غدا سلاحاً يستخدمه الشعراء في هجائهم ضد الآخرين ، ومنفذاً للتعبير عن الآلام وتفريغ الطاقات المكنونة .

يختلف الهجاء المباشر عن الهجاء الهزلي في طبيعة الهجاء ، فالهجاء المباشر هو هجاء جدي ، واضح المعاني ، بينما الهزلي يمزج بين الضحك والألم ، فيرسم على شفتيك ابتسامة قبل أن يكتمل ظهورها تبدأ بالتأمل في معاني الكلمات الواردة ، فتشعر بالمرارة ، وهنا تختفي الابتسامة . ولنقل إن الهجاء الهزلي وسيلة الهجَّاء القوي .

ويعتبر ابن رشيق القيرواني أن الهجاء الهزلي أشد أنواع الهجاء ؛ لأنه تجاهل فيما يعلمه الهاجي ، ويستشهد على ذلك بقول زهير[١] :

وما أدري وسوفَ إخالُ أدري أقومٌ آلُ حصنٍ أم نساءٌ

فإنْ تكنْ النساءُ مُخبئاتٍ فحقَ لكلِّ مُحصَّنةٍ هِداءٌ

ويفرق شهاب الدين النويري بين التهكم والهزل فيقول : " فالفرق بينه وبين الهزل الذى يراد به الجد ، أن التهكم ظاهره جد وباطنه هزل ، والهزل الذى يراد به الجد على العكس منه ، ..."[٢] ، ويضرب ابن حجة الحموي[٣] مثالاً للهزل الذي يقصد به الجد بحادثة حصلت معه فيقول : " ومن أظرف ما وقع في هذا الباب ، أنه حصل لي بالديار المصرية جَرَب ، أشرفت منه على التلف ، فوصف لي الحيكم بطيخًا ، وهو عزيز الوجود في تلك الأيام ، فبلغني أنه أُهدى إلى مولانا ، المقر الأشرف القاضوي الناصري محمد بن البارزي ، صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية ، عظم الله تعالى شأنه ، بطيخ ، فكتبت إليه :

مولاي عاقَبَني الزمانُ بجربةٍ وقدِ انْقَطعتُ بجسميَ المسلوخِ

---

(١) القيرواني : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، ١٠٤/٢ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ، ١٧٩/٧ .

(٣) هو أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزراري ، تقي الدين ابن حجة ، ولد في حماة بسوريا عام ٧٦٧هـ/١٣٦٦م ، شاعر الشام ، ويعده ابن حجر العسقلاني شاعر العصر ، وتوفي عام ٨٣٧هـ/١٤٣٣م . ينظر ترجمته في : ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م) : إنباء الغمر بأنباء العمر ، تحقيق حسن حبشي، القاهرة ، ١٩٩٤م ، ٥٢٢/٣-٥٢٣ . وينظر : الحنبلي : شذرات الذهب ، ٣١٩/٩-٣٢٠ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وعُميتُ مِنْ حُزني على ما تَمَ لي لكنْ شَممتُ روائحَ البطيخِ

فالكناية على طلب البطيخ ، سبكت في أحسن قوالب الهزل ، مع حسن التضمين ..."[١] .

لم يخل الشعر الجاهلي من الأبيات التي تحمل معاني الهجاء الهزلي ، إلا أن الدعوة إليها لم تكن واضحة ، فقد كانت ما تحمله فقط من أصل الفطرة التي لا تخلو من التنادر . ويستدل على ذلك بقول مصطفى صادق الرافعي : " ولا جرم أنه لم يكن للعرب شعر هزلي في جاهليتهم ، لكنهم مع ذلك لم يدعوا التنادر ؛ إذ هو شيء في أصل الفطرة وفي مذاهب المعاني ، فجاءوا لذلك في شعرهم بنوع من التهكم يستخف الوقور ويرمي إلى الغاية من سياسة الهزل ، فيبقى حسرة ولا يذهب ضحكا ..."[٢] . ومما وجد من الهجاء الهزلي قول الحطيئة[٣] :

دعَ المكارمَ لا ترحلْ لبُغْيَتِها واقعدْ فإنَّكَ أنتَ الطاعمُ الكاسي

وازدهر الهجاء الهزلي في العصر العباسي ، وتطور حتى تحول إلى هجاء جديد ممزوجاً بالضحك والسخرية . وكان أبو نُواس[٤] أبرع شعراء زمانه في هذا اللون من الهجاء . ومن قوله في هذا المجال[٥] :

قُلْ لزهيرٍ إذا حَدا وشَدا أقْلِلْ وأكْثِرْ فأنْتَ مِهْذارُ

سَخنتَ مِنْ شدَّةِ البرودةِ حـ تَّى صِرتَ عِنْدي كأنَّكَ النَّارُ

لا تُعْجِبْ السامِعونَ مِن صِفتي كَذلكَ الثَّلجُ باردٌ حارُ

وفي العصر المملوكي مال الشعراء إلى الهجاء الهزلي ، و" بدا هذا الميل واضحا في أساليب الشعراء ، واتخذوا أحياناً التورية والتلميح والتوجيه والجناس وغيره ، وسيلة إلى ذلك . وبدت فكاهاتهم ونكتهم في جملة أغراض شعرية منها : الشكوى والنقد الاجتماعي والألغاز وغيرها . وإذا عرفنا أن الفكاهة والنكتة من أهم دعائم الأسلوب الشعبي في مصر والشام ، رأينا

---

(١) ابن حجة الحموي : خزانة الأدب وغاية الارب ، ١٢٧/١ .

(٢) مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب ، ٩١/٣ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ٣٥٠/١١ .

(٤) هو الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن صباح ، شاعر العراق في عصره ، اتصل بخلفاء بني العباس ، وله ديوان شعر ، ولد عام ١٤٧هـ/٧٦٣م ، وتوفي عام ١٩٨هـ/٨١٤ م . ينظر : الزركلي : الأعلام ، ٢٢٥/٢-٢٢٦ .

(٥) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ٣١٨ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إلى أي حد كان تجاوب شعراء العصر مع بنى وطنهم ، وإلى أي مدى كانوا متأثرين بهم حتى في دعائمهم الأسلوبية "[١] .

استخدم الشعراء في هجائهم الهزلي ما يتناسب مع بيئتهم ، فكانت معاني الهزل عندهم نوعاً من أنواع السخرية ، الذي هو أيضاً لون من ألوان الهجاء[٢] ، يتعمد فيه الشاعر أن يثير الضحك ، " وقد خلت معانيه من المعاني السياسية أو الدينية إلا ما خدم منها الجانب الهزلي الفكه ، حيث تحول شعراء هذا اللون إلى المعاني الساخرة ، وعمدوا إلى رسم الصور الكاريكاتورية دونما حاجة إلى الإقذاع ، ..."[٣] . ومن الشعراء الذين اشتهروا وأجادوا الهجاء الهزلي في العصر المملوكي البهاء زهير ، وأبو حسين الجزار ، وصفي الدين الحلي ، وابن دانيال الموصلي ، وغيرهم[٤] .

ومن النماذج الشعرية على الهجاء الهزلي ، هجاء البهاء زهير لشخص ثقيل الظل ، يجمع فيها بين الهزل وضده ، نافياً الصفتين عن هذا الرجل ، فمما قاله[٥]:

بحقِ اللهِ مَتِّعْني ... مِنْ وجهِكَ بالبعدِ
فَما أشْوقَني مِنكَ ... إلى الهُجرانِ والصَّدِّ
فما تَصلحُ للهَزْلِ ... ولا تَصلحُ للجِدِّ
وماذا فيكَ مِنْ ثِقْلٍ ... وماذا فيكَ مِنْ بَرْدِ
فلا صُبِّحتَ بالخَيرِ ... ولا مُسِّيتَ بالسَّعْدِ

ومن الشعراء الذين كان لهم نظم في الهجاء الهزلي التلعفري ، الذي يهجو رجلاً ثقيلاً بكلمات هزلية بسيطة سهلة المعاني ؛ لما يكابده في مجالسته لهذا الرجل الثقيل الظل ، ويتمنى

---

(١) محمود رزق سليم : الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث ، مطابع دار الكتاب العربي ، ١٩٥٧م ، ٨٢ .

(٢) للتوسع حول هذا الموضوع راجع : شعيب بن أحمد الغزالي : أساليب السخرية في البلاغة العربية دراسة تحليلية تطبيقية ، رسالة ماجستير ، إشراف عبد اللطيف المطعني ، كلية اللغة العربية ، السعودية – جامعة أم القرى ، ١٩٩٥م .

(٣) نبيل خالد أبو علي : محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ، ٥٨ .

(٤) للتوسع حول هذا الموضوع راجع : نيفين عمرو : السخرية في الشعر في العصر المملوكي الأول (٦٤٨هـ–٧٨٤هـ) ، رسالة ماجستير ، إشراف علي عمرو ، كلية الدراسات العليا ، جامعة الخليل ، ٢٠٠٩م .

(٥) ديوان البهاء زهير ، ٧٤ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أن يبعده الله عنه ، وألا يكون بينهما أي اتصال[١]:

لنـــا جَلـــيسٌ بـــــاردٌ معجـــــبٌ أبْعـــــدَهُ اللّـــــــهُ وأمثالَـــــــهُ
إذا احْتَبَـــي فـــي مجلـــسٍ تائهـــاً أخْـــــرجَ مِثـــــلَ الأرضِ أثقالَـــــهُ
وَيَدَّعـــي فـــي نســـبِ المصطفـــى وفِعلُـــه يُكـــذبُ مـــا قالَـــهُ
يـــا ربُ لا تقـــضِ اتِّصالـــي بـــهِ يومـــاً وقَطِّـــعْ مِنـــهُ أوصالَـــهُ

وفي أبيات أخرى يهجو التلعفري من يتنبأ له بالخسران يوم القيامة والحشر إلى جهنم ، وينعته بالجهل لصدور مثل هذه الأقوال عنه ، متناولاً الأمر بالهزل والتهكم ، والاستهتار بأفعاله ، التي دعت الآخرين إلى إطلاق هذه الاتهامات عليه ، رغم أنه لم يحاول نفيها ، بل يتوقع الخير من الله ، كما يفهم من خلال الأبيات التي يقول فيها[٢] :

مَـــنْ قـــالَ عَـنِّـــي بـأنِّـــي يـــومَ القيـــامـــةِ أَخْـــسَـــرْ ؟
وأنَّـــنـــي بِـــذُنـــوبـــي إلـــى جَـهـــنـــمِ أُحْـــشَـــرْ ؟
مُـــرَّ – يـــا جَـــهـــولُ – ودَعْـــنـــي أنـــا بِـــرَبِّـــي أَخْـــبَـــرْ

وتناول ابن الوردي الهجاء الهزلي بصورة مضحكة ، حين هجا شخصاً أضافه وصعد به إلى السطح دون أن يطعمه شيئاً ، سوى أنه كان يقدم له الماء طوال الليل ؛ لذا استخدمها في أبياته عن طريق التورية فيقول فيه هاجياً شدة بخله ، وقد خالف بذلك سنة إكرام الضيف[٣] :

أحَـــلَّ الضُّيـوفَ علـــى سَطحـــهِ وفَرَّجَهُـــم فـــي نجـــومِ السَّمـــا
وقَطَّـــعَ بالجـــوعِ أمعاءَهُـــم وإنْ يُغاثـــوا يُغاثـــوا بمـــا

ويهجو صفي الدين الحلي في موقف آخر فيتناول الشكل الخارجي لرجل متكبر مكار جهم الوجه ، ويهزأ من شكله ويصفه بالبوم ، ويصف كبره ومكره بالغراب ، حتى إنه لا يكتفي بذلك ،

---

(١) علي بن موسى بن سعيد الأندلسي (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م) : الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار المعارف ، مصر ، ٦٥ .

(٢) ديوان التلعفري ، ٥٦١ .

(٣) شمس الدين محمد النواجي (ت٨٥٩هـ/١٤٥٥م) : الشفاء في بديع الاكتفاء ، تحقيق محمود حسن أبو ناجي ، دار مكتبة الحياة ، بيروت – لبنان ، ٧٥ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بل يصفه بالماء السراب الذي لا يستقر في قبضة الإنسان ، ليزيد من الصورة الهزلية التي يقدمها لنا فيقول[١] :

لـــيَ جـــارٌ كأنَّـــهُ البـــومُ فـــي الشَّكـــلِ ولكـــن فـــي عُـجْـــبِـــهِ فـــغُـــرابُ
هـــوَ كـــالـــمـــاءِ إنْ أردتَ لَـــهُ قبضـــاً وإنْ رُمْـــتَ مَـــورِداً فسَـــرابُ

لم تسلم المرأة من الهجاء عند شعراء العصر المملوكي ، وتناولوها بالسخرية بلوحة تثير الضحك ، وكأن ما ينظم فيها وما ينشد من هجاء صورة واقعية لصفات معروفة عند النساء . فالبوصيري[٢] من خلال قصيدة له يضمنها أبياتاً يهزأ فيها من زوجته ، وأخت زوجته ، ويهزأ من نفسه أيضاً ؛ لأنه خضع لهما في نهاية الأمر ، فيسرد أحداث ما دار بين زوجته وأختها بصورة هزلية غاية في الروعة ، ويصف كيف عادت زوجته إليه مسرعة ، محرضة عليه غاضبة منه ، وعلى رغم تهديده لها ، قامت بضربه على رأسه بالآجُرَّة[٣] ، ويصف ذلك هازئاً بنفسه قائلاً[٤] :

ويـــومَ زارتْ أمُّهُـــم أختَهـــا والأُخـــتُ فـــي الغَيـــرةِ كالضُّـــرةْ
وأقْبلـــتْ تشْكـــو لهـــا حالَهـــا وصبرَهـــا مِنـــي عَلـــى العُسْـــرةْ
قالـــتْ لهـا كيـــفَ تكـونُ النِّســـا كَـــذا مـــعَ الأزواجِ يـــا غَـــرَّةْ
قومـــي اطلبـي حقَّـــكِ مِنـــهُ بـــلا تخلـــفٍ مِنـــكِ ولا فَتـــرَهْ
وإنْ تأبَّـــى فَخُـــذي ذَقنَـــهُ ثـــمَّ انْتِفيهـــا شَعـــرةً شَعـــرةْ
قالـــتْ لهـــا مـــا عادَتـــي هَكـــذا فـــإنَّ زَوجـــي عِـــنْـــدَهُ ضَـجْـــرهْ
أخـــافُ إنْ كلمتُـــهُ كَلْمـــةً طَلَـقـنـــي قـــالـــتْ لـهـــا: بَـعْـــرهْ
فَهوَّنَـــتْ قَـــدريَ فـــي نفْسِهـــا فَـجـاءتْ الـــزَّوجـــةُ مُحْـــتَـــرَّهْ

---

(١) ديوان صفي الدين الحلي (ت٧٥٠هـ/١٣٤٩م) ، مطبعة حبيب أفندي خالد ، دمشق ، ١٢٩٧م ، ٤٥٩-٤٦٠ .

(٢) هو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن صهناج ، شرف الدين أبو عبد الله ، من دلاص ، شاعر مشهور ، اشتهر بالبردة ، وله ديوان شعر ، ولد عام ٦٠٨هـ/١٢١٢م ، وتوفي بالإسكندرية عام ٦٩٦هـ/١٢٩٧م . ينظر ترجمته في : الصفدي : الوافي بالوفيات ، ٣/٨٨-٩٤ . وينظر : الكتبي : فوات الوفيات ، ٣/٣٦٢-٣٦٩ . وينظر : الزركلي : الأعلام ، ٦/١٣٩ .

(٣) الآجرة : تعني الجرة وهي مفرد جرار ، إناء من خزف كالفخار . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (جرر) .

(٤) تنظر القصيدة كاملة في : ديوان البوصيري (ت٦٩٤هـ/١٢٩٤م) ، شرح وتقديم أحمد حسن بسج ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٥م ، ١٠٦-١٠٧ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فاستَقبلتنـــــي فتَهدَّدْتُـــهـــــــــا فاستقْبَـــلـــتْ رأســـي بـــآجُـــرَّهْ
وباتـــتْ الفتنـــــــةُ مـــا بيننـــــا مـــــنْ أوَّلِ الليـــلِ إلـــــى بُكْـــرة

وهكذا كان لهجاء الأقارب ظهور قوي على مسرح الهجاء الهزلي عند شعراء العصر . ومما ورد من أبيات أخرى تظهر هذا الفن ، أبياتاً لأبي حسين الجزار يهجو فيها زوجة أبيه ؛ لأنه تزوجها وهي شيخة ثم توفي ، وكان قد أوصى لها بالصداق . ويبدو أن الجزار حاقد على زوجة أبيه ؛ لحصولها على هذا الصداق ، فجاء هجاؤه صادراً عن نفس ساخرة غاضبة [١] :

أذابَـــتْ كِلَى الشيـــخِ تِلـــكَ العَجـــوزةُ وأردَتْـــــــهُ أنْفاسُهـــــا المُرْديـــــــةْ
وقـــدْ كـــانَ أَوْصـــــى لهـــا بالصَّـــداقِ فمـــــا فـــــي مُصيبَتِـــــهِ تعزيـــــــةْ
لأنِّـــــي مـــــا خِلـــــتُ أنَّ القتيـــلَ يُوصـــي لقاتِلِـــــهِ بالديـــــــةْ

أولع شعراء العصر بالهجاء الهزلي ، ونظموا الكثير من قصائدهم على منواله ، وكان للحمامات نصيب من هذا الهجاء ، حتى تحول إلى شيء من التجديد في ذلك العصر ، فكانت لهم الأسبقية في تناولهم لها بطريقة هزلية مضحكة ، تنم عن مدى ما يلاقونه فيها من عذاب ، وبدلاً من أن يكشف به كربته ، يلاقي الإنسان منه أكثر من كربه . ويصور شرف الدين الأنصاري[٢] هذه المعاناة فيقول[٣] :

دخلـــــتُ حَمامَكُـــــم فجاشَـــــــتْ بألـــــفِ كُـــــربٍ لكشـــــفِ كُربَـــــهْ
فَقلـــــتُ تبـــاً لحـــــبِ دنيـــــا نَعيمُهـــــــا بالشَّقـــــاءِ أشبَـــــهْ

كما ارتبط الهجاء الهزلي بحياة الناس ومعاملاتهم ، فظهرت جوانب من الحياة العربية وما ساد فيها في العصر المملوكي من تطور في المجتمع ؛ لدرجة أن يطمع أصحاب المراكز في القليل مما يملكه الآخرون من الناس العاديين ، وكأن من حقهم الحصول على كل شيء دون إرادة أو استشارة من صاحب هذا الشيء . وها هو البوصيري يهزأ من ناظر الشرقية ؛ لطمعه في

---

(١) الكتبي : فوات الوفيات ، ٢٩٢/٤ .

(٢) هو عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن بن محمد بن منصور بن خلف ، كان يقرأ القرآن ، واشتغل بالأدب ، ولد بدمشق عام ٥٨٦هـ/١١٩٠م ، وتوفي بحماة عام ٦٦٣هـ/١٢٦٥م . ينظر ترجمته في : اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ٢٣٩/٢-٢٤٠ . وينظر : ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، ٢١٠/٢ .

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ٢٦٥/٢ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

شراء حمارته دون إرادته ، حتى إنه جهز له ثمنها وأرسله له ، فكتب لهذا الناظر يهجوه ويهجو نفسه على لسان حمارته متهكماً به لطمعه فيها فيقول[١] :

يـــا أيُّهـــا السَّيـــدُ الـــذي شَهـــدتْ ... ألفاظُـــهُ لـــي بأنَّـــهُ فاضِـــلُ
أقصـــى مُـــرادي لـــو كنـــتُ فـــي بلـــدي ... أرْعـى بهـــا فـــي جَوانِـــبِ السَّاحِـــلْ
مـــا كـــان ظنِّـــي يبيعُنـــي أحـــدٌ ... قـــطُّ ولكـــنْ سَيـــدي جاهِـــلُ
لـــو جَرَّســـوهُ علـــيَّ مـــنْ سَفَـــهٍ ... لقلـــتُ غيظـــاً عليـــه يستاهِـــلُ[٢]
وبعـــدَ هـــذا فَمـــا يَحـــلُ لكـــمْ ... بَيعـــي فإنِّـــي مِـــنْ سَيـــدي حامـــلُ

يواصل الشعراء نظم الهجاء بالتعرض للحيوانات ، وبينما اختار البوصيري الحمارة لتكون هي الهاجية ، اختار الشاعر السراج الوراق برذوناً ليكون هو المهجو ، ونلاحظ في الأبيات التالية مدى هزله وتهكمه منه ، فهو يحسد الآخرين من الخيل لوضعهم الأفضل منه ، بينما هو يقدم ويؤخر بقدمه ، يحاول الوصول إلى العشب فلا يجده[٣] :

لصاحـــبِ الأحبـــاسِ برذونـــةٌ ... بعيـــدةُ العهـــدِ عـــن القَـــرِطِ[٤]
إذا رأت خيـــلاً علـــى مَربـــطٍ ... تقـــولُ سبحانـــكَ يـــا مُعطـــي
تَمشـــي إلـــى خَلـــفٍ إذا مـــا مَشـــتْ ... كأنَّمـــا تَكتـــبُ بالقِبطـــي

وعرف الشاعر المملوكي بهجائه للحرفة التي يشغلها ؛ لأنه لا يجد غيرها يقتات منه ؛ ولكساد سوق الشعر في ذلك العصر . ومن الطريف في هجاء الحرف ، ما كان من مهاجاة ابن أبي الفتح[٥] لأبي الحسين الجزار ، وقد كثرت المهاجاة بينهما . ومن ذلك قوله ساخراً في حرفة الجزار ، خالطاً بين الهجاء الهزلي وروح الدعابة[٦] :

إنْ تـــاهَ جَزارُكُـــم عليكُـــم ... بِفطنـــةٍ عِنْـــدَهُ وكَيِّـــسِ
فليـــسَ يَرجُـــوهُ غيـــرُ كلـــبٍ ... وليـــسَ يخشـــاهُ غيـــرُ تيـــسِ

---

(١) ديوان البوصيري ، ١٦٥ .
(٢) جرس : أصابته البلايا . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (جرس) .
(٣) الأبشيهي : المستطرف ، ٣٥١/١ .
(٤) برذونة : أنثى الدابة . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (برذن) .
(٥) هو مجاهد بن سليمان بن مرهف بن أبي الفتح ، التميمي ، عرف باسم ابن أبي الربيع ، مصري ، شاعر مشهور ، توفي عام ٦٧٢هـ/١٢٧٤م . ينظر ترجمته في : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ٢١٠/٧ .
(٦) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ١٨٤/٧ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكنموذج آخر على هجاء الحرف ، سخرية الإسعردي[١] من حرفة الكحالين ؛ التي قد تؤدي إلى فقد النظر إن خابت يد الكحال ، فيقول هاجياً كحالاً يدعى شمس ، مصوراً المشهد بصورة ساخرة تبعث على النفور من الكحالين لما يلحقه من ضرر إذا أخطأ الهدف[٢] :

دعـــوا الشمـــسَ مـــنْ كُحـــلِ العيـــونِ فكفُّـــهُ تســـوقُ إلـــى الطَّـــرفِ الصَّحيـــحِ الدَّواهيـــا
فكـــمْ ذهبَـــتْ مـــن ناظـــرٍ بســـوادِهِ وخَلَّـــتْ بياضـــاً فوقَهـــا ومآقيـــا

ويعرض شمس الدين محمد الواسطي[٣] صورة هزلية منفرة للاقتراب من أصحاب العود والمزامير أو الاستماع إليهم ، حين لا يجيدون العزف . ويصور صاحب العود بالعقرب ، والزمار بالحية ، وكلاهما يلدغان إذا اقتربت منهما ، ويعرض هذا التشبيه بقوله[٤] :

شَبَّهـــتُ ذا العـــوادِ والزامـــرِ إذْ ضاقـــتْ علينـــا بهـــمُ المناهـــجُ
بعقـــربٍ يَضـــرِبُ وهـــو ساكـــتٌ وأربَـــدٍ يَنفـــحُ وهـــو خـــارجُ[٥]

تابع الشعراء هجاءهم ليصلوا إلى أصحاب العلم الذين لا يجيدون في علمهم ، فبالغوا في هجائهم وأمعنوا في الاستهزاء بهم ، ومن هؤلاء الفئة ، الأطباء الذين لا يتقنون مهنتهم . ويهجو صفي الدين الحلي طبيباً اسمه إسحاق ، أساء إلى علمه ومهنته السامية . ففي حين يعرف الطبيب بعمله الجدي لمعالجة المرضى ، يعمل هذا الطبيب على قتل الناس ، ويهزأ الشاعر صفي الدين الحلي من أدواته ؛ التي يسلها في قتل المرضى ، مستخدماً في ذلك أبياتاً تقطر بالهزل والمرارة ، فيرينا صورة هزلية مضحكة ، لكنها تحتوي على معان جدية ، فيقول[٦] :

مباضِـــعُ إسحـــاقَ الطبيـــبِ كأنَّهـــا لهـــا بفَنـــاءِ العالَميـــنَ كَفيـــلُ
مُعَـــوَّدَةٌ ألا تُسَـــلَّ نِصالُـــها فَتُغْمَـــدَ حتـــى يُستبـــاحَ قتيـــلُ

---

(١) هو محمد بن يعقوب بن علي ، مجير الدين ابن تميم الإسعردي ، يجيد في نظم المقاطع الشعرية وليس القصائد ، سكن حماة وتوفي بها عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م . ينظر ترجمته في : الصفدي : الوافي بالوفيات ، ١٤٨/٥ .

(٢) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ٩٢/٣ .

(٣) هو محمد بن علي بن إبراهيم الواسطي ، ناصر الدين بن نور الدين ، صوفي واعظ وأديب ، ولد سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م ، وتوفي عام ٧٧٧هـ/١٣٧٥م . ينظر ترجمته في : أبو الفضل أحمد ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م) : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، دار الجيل ، بيروت، د.ت ، ٥٣/٤ .

(٤) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ٥٤/٤ .

(٥) أربد : حية . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (ربد) .

(٦) ديوان صفي الدين الحلي ، ٤٥٨ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لم يترك الشعراء في العصر المملوكي مظهراً مستنكراً من مظاهر الحياة ، إلا وتناولوه بالهجاء الهزلي ، فلم يسلم من هجائهم حتى المباني التي أنشأها أصحاب النفوذ ، فنرى إبراهيم المعمار[١] يهجو جزيرة البحر[٢] ؛ المعروفة بحليمة ، وكانت تقام فيها الفواحش والمنكرات حتى جاهر الناس بالقبيح فيها ، فيصورها هازلاً بها وبمن بها ، فيقول[٣] :

جزيـــــرةُ البحـــــرِ جُنَّـــــتْ بهـــــا عُقـــــولٌ سَليمـــــةْ
لِمـــا حَـــوتْ حُســـنَ مَعنـــى ببسطَـــةٍ مُستقيمـــةْ
وكـــمْ يخوضـــونَ فيهـــا وكـــمْ مَشَـــوا بـــالنميمـــةْ
ولـــم تَـــزَلْ ذا احتمـــال مـــا تِلـــكَ إلا حَليمـــةْ

ويهجو ابن الوردي ناعورة كان يضرب في حسنها المثل حين أنشئت في عهد الخليفة الناصر بن عبد الرحمن ، ولم تعد لها أوصافها القديمة ، فيقول[٤] :

ناعـــــورةٌ مذعـــــورةٌ ولهانـــــةٌ وحائـــــرةٌ
المـــــاءُ فـــــوقَ كتفِهـــــا وهـــــي عليـــــهِ دائـــــرةٌ

وجدت نماذج للهجاء الهزلي في العصر المملوكي تتناول الهزل مع التجريح ، فيهجو الشاعر أناساً في أشكالهم التي لا دخل لهم فيها ، وربما أراد الشاعر من ذلك أن يشفي غليله من المهجو ، فكأنه يثبت فيه شيئاً ظاهراً لا يستطيع أن يخفيه ، لأنه لا يستطيع أن يثبت عنده ما يخفيه ، وقد تكون بين الشاعر والمهجو ضغينة ، وقد يكون هذا الهزل للدعابة والظرف . فالشاعر شمس الدين ابن الصائغ[٥] يهجو رجلاً مقطوع اليد ، ويرى أنه طالما قطعت يده فهو سارق ، فيقول[٦] :

تجنَّـــبْ كـــلَّ أقطـــعٍ فهـــو لـــصٌّ يريـــدُ لـــك الخيانـــةَ كـــلَّ ساعـــةْ

---

(١) هو جمال الدين إبراهيم بن علي المعمار ، أديب وشاعر ، وله ديوان شعر ، مات بالطاعون عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م . ينظر ترجمته في : ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ٤٠٩/١ .

(٢) للاستزادة : ينظر : المقريزي : المواعظ و الاعتبار ، ٨٠٨/٢ .

(٣) المقريزي : المواعظ و الاعتبار ، ٨٠٩/٢ .

(٤) ابن حجة الحموي : خزانة الأدب ، ١٧٤/٢ .

(٥) هو محمد بن عبد الرحمن بن علي الزمردي ، شمس الدين ، أبو عبد الله ، اشتهر بابن الصائغ الحنفي ، برع في الفقه والعربية والأدب ، ولد عام ٧١٠هـ/١٣١٠م ، وتوفي عام ٧٧٦هـ/١٣٧٥م . ينظر ترجمته في : ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ٤٩٩/٣-٥٠٠ .

(٦) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ١٥٦/٨ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومـــا قَطَعـــوهُ بعـــدَ الوصـــلِ لكـــن أرادوا كفَّـــهُ عـــنْ ذي الصِّناعـــةْ

وفي رجل أعور يسخر محيى الدين بن عبد الظاهر[١] منه لأنه لا يغطى عينه ، ويرى أن ستر الشخص لعيوبه ضرب من الحياء يفتقده هذا الفتى ، وفيه يقول[٢] :

وأعـــورُ العيـــنِ ظـــلَّ يكشِفُهـــا بـــلا حيـــاءٍ مِنـــهُ ولا خِيفـــةْ

وكيـــف يُلقـــى الحيـــاءُ عنـــدَ فتـــىً عورتُـــهُ مـــا تَـــزالُ مَكشوفـــةْ

سخر الشعراء أيضاً في ذلك العصر من أصحاب اللحى الطويلة ، وعبروا عنها بصور هزلية متهكمة ، وبتصوير يثير الضحك ويبعث على النفور من أصحابها ومن مظهرهم ، الذي يحاولون به إخفاء حقيقة أمرهم ، ويستعيرون من الشعراء الآخرين أبياتاً تساعدهم على إظهار الصورة كاملة ، فيضمنوها في نظم أبياتهم . ونرى مثل ذلك في قول ابن العفيف التلمساني[٣] في رجل له لحية يدعى ابن سعيد مضمناً أبياته بعض ما ورد في معلقة امرئ القيس وهي (كبير أناس في بجاد مزمل)[٤] ، ومما ورد لابن العفيف قوله[٥] :

أرى لابـــنِ سعـــدٍ لحيـــةً قـــدْ تكاثفَـــتْ علـــى وجهِـــهِ واستقبلـــتْ غيـــرَ مقبـــلِ

ودارتْ علـــى أنـــفٍ عظيـــمٍ كأنَّـــهُ كبيـــرُ أنـــاس فـــي بجـــادِ مزَّمـــل[٦]

كذلك احتوت أشعار الهزل على الأمثال الشعبية المعروفة ، والصفات التي اتصف بها أناس معينون وعرفوا واشتهروا بها ، كمارد بالبخل ، وأشعب بالطمع . وهذا ما وظفه السراج

---

(١) هو عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر بن نجدة ، الجذامي ، قاض وكاتب وناظم بارع ، ولد بمصر عام ٦٢٠هـ/١٢٢٣م ، وتوفي بمصر أيضاً عام ٦٩٢هـ/١٢٩٣م . ينظر ترجمته في : الكتبي : فوات الوفيات ، ١٧٩/٢ .

(٢) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ١٥٣/١٧ .

(٣) هو محمد بن سليمان بن علي ، شمس الدين ، ابن الشاعر عفيف الدين التلمساني ، يلقب بالشاب الظريف ، ولد بالقاهرة عام ٦٦٠هـ/١٢٦٢م ، وتوفي عام ٦٨٨هـ/١٢٨٩م . ينظر ترجمته في : الصفدي : الوافي بالوفيات ، ١٠٩/٣ .

(٤) تنظر المعلقة كاملة في : محمد بن أبي الخطاب القرشي (ت١٧٠هـ /٧٨٦م) : جمهرة أشعار العرب ، ط ١ ، المطبعة الخيرية ، مصر ، ١٩١٢م ، ٨٧-١٠٥ .

(٥) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ، ٢٧٨/١٦ .

(٦) بجاد : كساء مخطط من أكسية الأعراب . مزمل : ملتف . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (بجد) ومادة (زمل) .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الوراق في هزله من رجل عرف ببخله الشديد ، فيقول[1] :

وبـــاخـــلٍ أطْـعَـمـنـــي بِـشَـــرِّهِ وغَـــرَّنْـــي بـالـبـارِقِ الخَـلَّـــبِ

لـــو قُـلـتُ يـا أبْخَـلَ مِـنْ مـــارِدٍ لـقـالَ يـا أطْـمَـعَ مِـنْ أشْـعَـبِ

نرى فيما تقدم ، ومما ورد من عدة أمثلة متنوعة تجسد وصف الشعراء وتعبيرهم بطريقة هزلية للإنسان والحيوان والبيئة والجماد ، ولم يستثنوا حتى المباني والآثار المندرسة ، حتى إنهم لم يسلم منهم النساء وإن كان بعضهم يمت إليهم بقرابة ، فهذا يهجو زوجته ، وذلك زوجة أبيه ، وآخر شقيقة زوجته . وقد عرجوا أيضاً ليجدوا مرتعاً خصباً لهجومهم وهزلهم بأصحاب الحرف حمَّالين وصناع وحلاقين ومزينين وأصحاب الكراء ، كما أنهم انتقدوا بشدة أنصاف المتعلمين الذين كانوا يدعون العلم وهو منهم براء .

وقد نسج الشعراء لنا عدة صور ، وبالغوا في الطرفة ، وقد امتازت هذه الأبيات بسلاسة الأسلوب وبساطة التعبير ، وقلة عدد أبيات المقطوعة ، كم لاحظت الباحثة أنهم كانوا في تعبيرهم وتصويرهم يميلون إلى النظم وتجسيد الصورة مما أوقعهم في الألفاظ العامية ، وهذا في رأي الباحثة من لزوم الأمر لديهم ، فكيف بهم يصورون لنا بدقة تنم عن قوة الملاحظة والتأمل ورتابة مراقبة الشخص المراد هجاؤه ، مما أدى إلى الإمعان في الوصف والمبالغة في الهزل ، فجاء شعرهم بصورة فنية مكثفة ، تفصح عن قدرات ممتازة في استخدام حسن الصنعة والمهارة الشعرية ، كما أنها تدل على حس مرهف في وصف مظاهر الصفات القبيحة الظاهرة والباطنة في شخصية المهجو ؛ لذلك جاءت صوره وكأنها لوحة رسمت بيد فنان مبدع أجاد استخدام الألوان بصورة موفقة .

---

(١) الكتبي : فوات الوفيات ، ١٤٧/٣ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الثاني

الهجاء السياسي والاجتماعي

المبحث الأول : هجاء المدن

المبحث الثاني : هجاء رجال الدولة

المبحث الثالث : الهجاء المذهبي والديني

المبحث الرابع : النقد الاجتماعي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تأثر الأدب بالحياة السياسية والاجتماعية في مختلف عصوره ، وتفاعل الشعراء مع حياة مجتمعهم المتنوعة ، وظواهره الحضارية والثقافية ، وطبقاته الخاصة والعامة ، وما يصحبها من ترف أو فقر ، وأصبح شعرهم بجميع فنونه وثيقة صادقة تظهر تفاصيل الحياة والمجتمع .

ولعب الهجاء السياسي دوراً في إيقاظ الناس من سباتهم ، حيث خاطب الوجدان والمشاعر والعقول ، وتناول شؤون الحكم ، وندد بفظائع الحكام ، وفضح أساليبهم في قمع الناس داخل المجتمع . كما كان للهجاء الاجتماعي دور في تناول الحياة اليومية العادية ، كنوع من التعبير عن مساوئ العصر الذي يعيشه الشاعر ، ومظاهره السلبية ، حيث يمكن من خلاله تعرف واقع الحياة ودور الأدب فيه ، ومدى مساهمة الشعراء في ذلك الوقت في التعبير عن مجتمعهم ، وموقفهم من الأحداث ، وقدرتهم على تصوير الواقع ، وتسجيل حوادث العصر ، ووصف أحوالهم، من خلال ما تحمله أشعارهم من مضامين تنم عن رفضهم لما هو منبوذ في الحكم والمجتمع ، فنظم الشاعر في المساوئ السياسية ، والدينية ، والاجتماعية .

بدأ ظهور الهجاء السياسي والاجتماعي من خلال القبيلة ، التي تمثلت في العصر الجاهلي ، حيث كانت تقوم مقام الدولة في العصور التالية ، وكان يربطها نظام العصبية ، فاتصل شعره بموقف القبيلة الاحتجاجي . هذا على اعتبار أن الشعر القبلي لون من الشعر الاجتماعي ، يدور حول التنازع في مجتمع واحد ، أما إذا اعتبرنا أن كل قبيلة تمثل دولة صغيرة ، تعيش نزاعاً سياسياً ، فهو لون من الشعر السياسي[١] . وعلى هذا فالهجاء السياسي أو الاجتماعي في العصر الجاهلي يمكن تمثله في قول عروة بن الورد[٢] ، الذي يبين وجود طبقتين في المجتمع ، طبقة الأغنياء ، وهي الطبقة التي يسعى الشاعر للوصول إليها ، وطبقة الفقراء ، وهي الطبقة المنبوذة ، فيقول[٣] :

---

(١) ينظر : محمود رزق سليم : موسوعة عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، الجزء الرابع ، المجلد ٦٤/٨ .

(٢) هو عروة بن الورد بن زيد العبسي ، كان يلقب بعروة الصعاليك ، من شعراء الجاهلية ، له ديوان شعر ، توفي حوالي ٣٠ق.هـ/٥٩٤م . ينظر : الزركلي : الأعلام ، ٢٢٧/٤ .

(٣) البغدادي : التذكرة الحمدونية ، ٩١/٨ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ذَريني للغِنى أسْعى فإنَّني رأيتُ الناسَ شرُّهمْ الفقيرُ
وأبعدَهم وأهونَهمْ عليهمْ وانْ أمسى لهُ حسبٌ وخيرُ
ويقضيهِ الدَّنيُّ وتَزدريهِ حليلتُهُ وينهرُهُ الصغيرُ
وتلقى ذا الغِنى ولهُ جَلالٌ يكادُ فؤادُ صاحبِهِ يطيرُ
قليلٌ ذنبَهُ والذنبُ جمٌّ ولكنْ للغَنِيَّ ربٌّ غفورُ

وفي عصر صدر الإسلام ، شملت الدعوة الإسلامية السياسة والمجتمع معاً ، فامتزجت السياسة بالدين ؛ الذي هو جزء من المجتمع ، فكان هجاء الأعداء هو جوهر الهجاء السياسي والاجتماعي في ذلك العصر ، وسجلاً للمنازعات القائمة على أساس العقيدة ، كهجاء حسان بن ثابت لأبي سفيان قبل إسلامه ، حيث يقول فيه[١] :

ألا أبلغْ أبا سُفيانَ عنى فأنتَ مُجَوَّفٌ نخبٌ هَواءُ
بأنَّ سيوفَنا تركتك عبْداً وعبدَ الدَّار سادتُها الإماءُ
هَجوتَ محمَّداً فأجبْتُ عَنهُ وعندَ اللهِ في ذاكَ الجزاءُ
أتهجُوهُ ولستَ لهُ بكفءٍ فشرُّكُما لخيرِكُما الفِداءُ
هجوتَ مُباركاً بَراً حنيفاً أمينَ اللهِ شيمتُهُ الوفاءُ
فمن يهجو رسولَ الله منكُم ويمدحُهُ وينصرُهُ سواءُ
فإنَّ أَبي ووالدَه وعِرضي لعِرضِ مُحمَّدٍ مِنكمْ وِقاءُ
لساني صارمٌ لا عَيبَ فيهِ وبَحري لا تُكدِّرُهُ الدِّلاءُ[٢]

وفي العصر الأموي كانت المساحة التي يسيطر عليها الأمويون قد اتسعت ؛ بعد الفتوحات التي تمت في العصر الإسلامي ، وعملوا على توسيعها ، إلا أن التنازع بين المتنافسين على الخلافة أدى إلى كثرة الحروب والخلافات ، فكان للهجاء دور في رصد الكثير من الوقائع التي تعرضت للهزيمة ، والعادات المنبوذة في المجتمع ؛ حيث كثرت الأحزاب والانشقاقات داخله . وازدادت النزاعات السياسية بين هذه الأحزاب ، واشتد الصراع بينها ، مما أدى إلى ظهور الهجاء السياسي ، باعتباره غرضاً قائماً بذاته ، وأصبح للأحزاب السياسية شعراء يتحدثون بأساليب

---

(١) نبيل خالد أبو علي : دراسات في الأدب العربي في العصرين الإسلامي والأموي ، دار المقداد للطباعة ، غزة – فلسطين ، ٢٠١٠م ، ٢٦ .

(٢) الدلاء : مفرد دلو إذا كان العدد كثير جداً ، وهو ما يستسقى به . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (دلا) .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الهجاء اللاذعة . ومما ورد في ذلك الغرض ، هجاء ابن عرادة السعدي[١] لسلم بن زياد[٢] ، حين علم بموت يزيد بن معاوية[٣] فكتم ذلك ، وأغلق عليه بابه ، ولم يتحرَ للأحداث الجارية بعد ذلك[٤] :

يـأيـهـا الـملـكُ الـمـغـلِّـقُ بـابَـهُ ... حـدثـتْ أمـورٌ شـأنُـهـنَّ عـظـيـمُ
قـتـلـى بـحَـرَّةَ والـذيـن بـكـابُـلٍ ... وزيـدُ أُعـلِـنَ شـأنُـهُ الـمكـتـومُ
أبَـنـى أمـيـةَ إن آخـرَ مُـلـكِـكُـم ... جَسـدٌ بجُـوَّازيـنِ ثَـمَّ مُـقـيـمُ[٥]
طَـرَقَـتْ مَـنـيَّـتَـهُ وعـنـدَ وسـادِهِ ... كـوبٌ وزِقٌ راعِـفٌ مَـرْثـومُ[٦]
ومَـرنـةٌ تبكـى عـلـى نَـشـواتِـهِ ... بالصنـجِ تَـقعـدُ مَـرةً وتَـقـومُ

وازدادت حدة الهجاء السياسي والاجتماعي في العصر العباسي ، واتسع نطاقه ، واتجه نحو التركيز على الانحراف الديني ، والمذهبي ، بعد استعانة العباسيين بعناصر جديدة في شؤون الدولة . ثم بدأ العصر العباسي في التفكك ، والانقسام السياسي ، وظهرت فيه دويلات صغيرة ، وانتشرت الثورات والفتن ، فظهرت اتجاهات جديدة في الهجاء . وممن عبر عن الهجاء السياسي

---

(١) هو محمد شافعي ، ابن عرادة السعدي ، من مطوبس ، قرأ القراءات ، وتلا عليه بلدية تاج السكندري ، شاعر ، وقال السخاوي إنه لم يعثر له على ترجمة زيادة على ذلك . ينظر : شمس الدين أبو الخير محمد السخاوي (ت٩٠٢هـ/١٤٩٧م) : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د.ت ، ٢٥٩/١١ .

(٢) هو سلم بن زياد بن أبيه ، أبو حرب ، ولاه يزيد بن معاوية خراسان ، أحبه الناس ومدحه الشعراء ، توفي بالبصرة عام ٧٣ هـ/٦٩٢م . ينظر : الزركلي : الأعلام ، ١١٠/٣ .

(٣) هو يزيد بن معاوية بن ابي سفيان ، ثاني ملوك الدولة الأموية ، ولد في قرية الماطرون في الشام ، ونشأ في دمشق ، في أيامه استشهد الحسين بن علي ، ولد عام ٢٥هـ/٦٤٥م ، وتوفي عام ٦٤هـ/٦٨٣م . ينظر : الزركلي : الأعلام ، ١٨٩/٨ .

(٤) النويري : نهاية الأرب ، ٥١٢/٢٠-٥١٣ .

(٥) الجواز : السقي ، جوازين أي ساقيتين . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (جوز) .

(٦) زق : سقاء . راعف : سائل دامي . مرثوم : ملطخ . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (زقق) ، (رعف) ، (رثم).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والاجتماعي في العصر العباسي ، هجاء الشاعر أبي فراس الحمداني[١] للروم حين أرادوا مناقشته في الدين[٢] :

أما مـــنْ أعجـــبِ الْأَشْيَـــاءِ عِـــلـــجٌ يُعرِّفَنـــي الْحَـــلَالَ مـــن الْحَـــرَامِ[٣]

بَنـــو الدُّنْيَـــا إذا مَاتُـــوا ســـواءٌ وَلَـــو عُمِّـــرَ المُعمَّـــرُ ألـــفَ عَـــامِ

كذلك تأثر الأدب المملوكي بالحياة السياسية والاجتماعية ، فبرز فيه الهجاء بنوعيه السياسي والاجتماعي ، فلم تدخل فيه الصراعات الحزبية كما الحال في العصرين الأموي والعباسي ؛ بل بدأ كردة فعل للحركات العنيفة ، والحروب المضطربة ، وأطلق الشاعر لنفسه العنان ليهجو الحياة السياسية والاجتماعية بما فيها من مدن بعد اتساع المساحة التي يسيطر عليها المماليك ، فهجوا رجال الدولة وأصحاب الحكم ، كذلك تناولوا المذاهب الدينية المختلفة ، ونقدوا المجتمع بكل ما دار فيه من قضايا ، كرفض أنواع الظلم والاستبداد ، وتناقضات الواقع وآلامه ، حتى " كثرت شكوى الشعراء من الناس وأخلاقهم وطبائعهم ، وفشا الذم من الزمان والأهل والأقارب والأصحاب والبلد والقطر والإقليم ، فقالوا كثيراً مما لا يحصيه عد ، حتى كان لهم باب في هجاء المدن والبلاد ، دخله شعراؤهم ليحطوا من قدر المكان وسكانه ، ..."[٤] .

فانبرت جوانب تستحق الوقوف عندها ، والتأمل خلالها فيما أصابها من تجديد ، وما أحدثته من تأثير ، يعكس ما دار في بيئة العصر . ولعل في تفصيل مواضيع الهجاء السياسي والاجتماعي في العصر المملوكي ، ما يمكننا من تعرف دور الشعراء البارز في كشف جوانب الخلل فيهما ، ومحاولتهم الإفصاح عما يشعرون به بكل جرأة وقوة ، وتصديهم للجوانب السلبية ، والمظاهر السيئة في مجتمعهم ، بوصفهم جزءاً لا يتجزأ من ذلك المجتمع ، يعيشون أفراحه ، ويعانون آلامه .

---

(١) هو الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربعي ، أمير وفارس وشاعر ، أسر في القسطنطينية في معركة مع الروم ، فعرف برومياته في الأسر ، له ديوان شعر ، ولد عام ٣٢٠هـ/٩٣٢م ، وتوفي عام ٣٥٧هـ/٩٦٨م . ينظر ترجمته في : الزركلي : الأعلام ، ١٥٥/٢ .

(٢) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ٢٠٣/١١-٢٠٤ .

(٣) العلج : الحمار الوحشي . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (علج) .

(٤) نبيل خالد أبو علي : محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ، ٦٣ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبحث الأول : هجاء المدن :

ترتبط دوافع هجاء المدن في أي عصر بأسباب عدة ، منها ، عدم الحصول على العطاء المأمول من الحاكم ، أو الظروف السياسية في فترة الحروب أو العدوان ، التي تضطر الكثير من الناس إلى ترك مدنهم والرحيل إلى مدن أو بلاد أخرى ، وقد تكون هناك أسباب أخرى تجعل الشخص يهجو المدينة ، كالمجاعات والأوبئة وانتشار الأمراض ، أو ما يلحظه فيها من مظاهر سيئة يحدثها أصحاب الحكم في الدولة ، وقد يكون الهجو فقط على سبيل الدعابة . أياً كانت الأسباب ، فالشاعر يطلق للسانه العنان ليعبر عن ضجره ، فيصب غضبه على هذه المدينة التي يعيش فيها ، أو تلك التي رحل عنها[١] .

ظهر هجاء المدن كمظهر من مظاهر التجديد في القرن الثاني[٢] ، إلا أنه لم يكن مزدهراً ، فبدأ في أواخر العصر الأموي بعد اتساع المناطق التي سيطرت عليها الدولة ، والتنازع على حكمها . ومما يدل على ظهور هجاء المدن في ذلك العصر ، هجاء ابن أبي الزوائد[٣] لبغداد بعد أن زارها ، وتشوقه إلى المدينة ، فيقول[٤] :

يَـــا ابْـــن يحيـــى مَـــاذَا بَـدا لَـكَ مَـــاذَا ... أمُقـــامٌ أمْ قَـــدْ عَـزَمْـــتَ الخيـــاذا[٥]
فالبَراغـــيـــثُ قَـــدْ تَثَـــوَّرَ مِنْهَـــا ... سامِـــرٌ مَـــا نَلُـــوذُ مِنْهـــا مَـــلاذا
فَنَـحُـــكُ الجُلـــودَ طَـــوْراً فَتَدْمَـــى ... وَنَـــحُـــكُ الصُـــدورَ والأفْـــخـــاذا
فَسَقَـــى اللهُ طَيْبَـــةَ الوَبْـــلَ سَحّـــاً ... وَسَقّـــى الكَـــرْخَ والصـــرَةَ الـــرَذاذا[٦]
بَلْـــدَةٌ لَا تَـــرَى بِهِـــا العَيْـــنُ يَوْمـــاً ... شـــارِبـــاً لِلَنبيـــذِ أَو نَـبَّـــاذا

---

(١) للتوسع حول هذا الموضوع راجع : مشهور الحبازي : شعر هجاء المدن والأقاليم في زمن حروب الفرنجة دراسة موضوعية ، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات ، العدد التاسع عشر ، القدس – فلسطين ، شباط ٢٠١٠م .

(٢) ينظر : محمد مصطفى هدارة : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ٤٣٠ .

(٣) هو سلمة بن يحيى بن زيد بن معبد بن ثواب بن هلال ، والد المفضل بن سلمة النحوي ، كان يسكن المدينة ، وزار بغداد في ولاية المهدي ، وهو من مخضرمي الدولة الأموية والعباسية . ينظر : الصفدي : الوافي بالوفيات ، ٢٠١/١٥ .

(٤) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ٢٠١/١٥ .

(٥) خاوذ : التنحي أو الانقطاع . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (خوذ) . أما خياذ فلم أعثر لها على أصل .

(٦) الكرخ : سوق ببغداد . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (كرخ) .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أوْ فَتـــىً ماجِنـــاً يَـــرى اللَهْـــوَ والبـا طِـــلَ مَجْـــداً أوْ صاحِبـــاً لَـــوَّاذا
هَـــذِهِ الـــذالُ فاسْمَعوهـــا وَهاتـــوا شـاعِـــراً قَـــالَ فِـي الـــرَويِّ عَلـى ذَا
قالهَـــا شاعِـــرٌ لَـــوَ أَنَّ القَـــوافـــي كُـــنَّ صَخْـــراً أُطـــارَهـــنَّ جُـــذاذا

وفي القرن الخامس ارتبط هجاء المدن بهجاء المجتمع والأشخاص ، بعد ظهور الدويلات الصغيرة ، وضعف الأحزاب ، فازداد هجاء المدن ليعبر به الشاعر عن مشاعر الغضب تجاه أهل المدينة ، متمثلاً باسمها ، كما هجا الحيص بيص[١] بغداد ، لظلم أميرها له ، وقرر أن يرحل عنها ؛ إلى بلد فيه الحقوق محفوظة ، ويعبر عن ذلك بقوله[٢] :

سأرحـــلُ عـــنْ بغـــدادَ لا عَـــنْ مَلالـــةٍ الـــى بلـــدةٍ يحنـــو علـــيَّ أميرُهـــا
إلـــى بلـــدةٍ فيهـــا الكـــلابُ بحالِهـــا كـــلابٌ ومـــا رُدَّت إليهـــا أمورُهـــا

في العصر المملوكي فرح بعض الشعراء بزوال الدولة السابقة لدولة المماليك ، وبداية عهد الدولة الجديدة ؛ إلا أن هناك من الشعراء من أصيب بخيبة الأمل ، فهجا الدولتين معاً ، ومن هؤلاء الشعراء البهاء زهير[٣] ؛ الذي عاصر الدولتين ، فنراه يقول فيهما[٤] :

دولـــةٌ كـــمْ قـــدْ سألنـــا ربَنـــا الـــتعويـــضَ عـــنهـــا
وفـــرِحـــنـــا حـــيـــنَ زالـــتْ جـــاءَنـــا أنـــحـــسُ مـــنـــهـــا

وعرف العصر المملوكي بكثرة تغير حكامه ، لتنافس المماليك فيما بينهما على السلطة، وقد شهد الشعراء هذا التغير ، فعبر بعضهم عن استيائه بهجاء القطر الذي يحدث فيه ذلك . ومن هؤلاء الشعراء ابن الوردي ، فهو يهجو الأقطار التي يكثر تغيير نائبها وقد لا يمضي شهران على توليته النيابة ، فيتساءل الشاعر عن حال أهل قطر يحدث فيه ذلك بقوله[٥] :

هـــذه أمـــورٌ عـــظـــامُ مـــن بعضهـــا القلـــبُ ذائـــبْ

---

(١) هو سعد بن محمد بن سعد بن الصيفي التميمي ، المعروف بالحيص بيص ، ويلقب بأبي الفوارس ، له ديوان شعر ، توفي في بغداد سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م . ينظر : الزركلي : الأعلام ، ٨٧/٣ .

(٢) كمال الدين ابن العديم (ت٦٦٠هـ/١٢٦٢م) : بغية الطلب في تاريخ حلب ، تحقيق سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت – لبنان ، ٤٢٦٧/٩ .

(٣) هو زهير بن محمد بن علي بن يحيى بن الحسن بن جعفر ، بهاء الدين ، أبو الفضل ، شاعر وأديب بارع ، مصري الأصل ، ولد بمكة عام ٥٨١هـ/١١٨٥م ، وتوفي عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م . ينظر ترجمته في : الصفدي: الوافي بالوفيات ، ١٥٦/١٤ .

(٤) ديوان البهاء زهير ، ٢٨٨ .

(٥) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، ٣٣٦/٢ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مـــــا حـــــالُ قُـــطـــرٍ يليـــــهِ فـــــي كـــــلِّ شهريـــــنِ نائـــــبْ

وأكثر الشعراء من هجاء المدن التي يتحكم حكامها بها ، وخاصة الديار المصرية والشام ، مراكز الحكام المماليك . فالزين الأنصاري[١] يهجو الشاميين لتحكمهم بديار مصر ، حتى أن الشام لم تعد تحتمل ظلم حكامها ؛ الذي أضحى فوق طاقتها ، ويعتبرها الشاعر هي الفريدة من دون البلاد التي ابتليت بمثل هؤلاء الحكام ، فيقول[٢] :

شكـــتْ الشـــامُ ثقالـــةً ممـــن بهـــا جُبلـــوا علـــى شـــيءٍ يفـــوقُ جبالَهـــا

فلـــذاكَ فـــي مصـــرَ لقلـــةِ حظِّهـــا دونَ الأراضـــي خَفَفَـــتْ أثقالَهـــا

ويهجو شهاب الدين الأعرج[٣] مصر ؛ لأن الأتراك استأثروا بحكمها ، فكيف يمكن لعاقل أن يتوقع أن يكثر الرزق في مصر ، وقد استولى عليه الأقباط والأتراك عن طريق السيف والترس؟ فقسموا الإقطاعات بينهما ، وأعطوا الترك والسلطان ثلث ما تخرجه الأرض ، وقسم الباقي نصف للقبط وسدس لباقي الخلق ، ويورد الشاعر هذا التقسيم فيقول[٤] :

وكيـــف يـــرومُ الـــرزقَ في مصـــرَ عاقـــلٌ و مـــن دونـــهِ الأتـــراكُ بالسيـــفِ والتـــرسِ

وقـــد جمعَتـــهُ القبـــطُ مـــن كـــلِّ وِجهـــةٍ لأنفسهـــمْ بالرُبـــعِ والثُمـــنِ والخُمـــسِ

فللتـــركِ والسلـــطـــانِ ثُلـــثُ خرَاجـــهـــا وللقبـــطِ نصـــفٌ والخلائـــقِ فـــي السُـــدسِ

وكان فساد رجال الدولة في المدينة سبب لهجاء هذه المدينة أو البلد ، فالزين الأنصاري يهجو هنا البلد التي يكون قاضيها فاسداً . فيقول متهكماً فيه ، جاعلاً كلمة (آدم) تدل على الكنية[٥] :

---

(١) هو عمر بن عبد الله بن عامر بن أبي بكر بن عبد الله السراج ، لقب بالزين الأسواني ، لأنه ولد بأسوان عام ٧٦٢هـ/١٣٦١م ، واستوطن الشام ، وله أشعار كثيرة ، ومعجم في الرجز ، هجا جميع الناس ، توفي عام ٨٢٦هـ/١٤٢٣م . ينظر ترجمته في : السخاوي : الضوء اللامع ، ٩٥/٦ .

(٢) السخاوي : الضوء اللامع ، ٩٦/٦ .

(٣) هو أحمد بن يحيى بن مخلوف بن مري بن فضل الله بن سعد بن ساعد ، مؤدب وأديب ، ولد عام ٧١٨هـ/١٣١٨م ، وتوفي عام ٧٨٥هـ/١٣٨٣م . ينظر ترجمته في : ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ٣٣٥/١ .

(٤) ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمر ، ٢٨٣/١ .

(٥) السخاوي : الضوء اللامع ، ٩٦/٦ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بنـــــي أساكفـــــةَ الدُّنيـــــا ليهنَكـــــمُ قضـــاءُ بخـــلِ ذوي الكـــــازاتِ والقَـــرْمِ[1]
الناتشيـــــــنَ بأفمـــــــامٍ تسيـــــلُ أذىً علـــى الذقـــونِ جلـــودُ الميـــتِ من غنـــمِ
لا أفْلحـــتْ بلـــدٌ قاضـــي القضـــاةَ بهـــا مـــــنْ جـــدُّهُ بـــــل أبـــــوهُ شعلـــــةُ آدَمِ

وخصص الشعراء نصيباً من هجائهم للمدن التي استطاع المماليك السيطرة عليها . فالشاعر محيي الدين بن عبد الظاهر يهجو مدينة سيس بعد أن دخل الملك الظاهر بلاد الأرمن ، واستولى على هذه المدينة[2] :

يـــا ويـــــحَ سيـــسَ أصبحـــتْ نهبـــةً كـــمْ عَـــوَّقَ الجـــاري بهـــا الجاريـــةْ
وكـــمْ بهـــا قـــدْ ضـــاقَ مـــنْ مسلـــكٍ يستوقـــفُ الماشـــي بهـــا الماشيـــةْ

ثم حدثت أمور أخرى عديدة في عهد الدولة المملوكية ، هيأت للشاعر أسباباً لهجاء المدن التي يسيطرون عليها ، فكثيراً ما يشعر الإنسان بالضيق تجاه المدينة التي أصابه فيها مكروه أو أصاب إنساناً عزيزاً عليه ، فكان ذلك من جملة الأسباب التي تناولها الشاعر ليهجو هذه المدينة. وكنموذج على ذلك أورد هنا هجاء آخر لابن الوردي في حماة بعد موت قاضيها ابن البازي الشافعي ، يقول فيها[3]:

حِمـــــاةُ مـــــذْ فارقَهـــــا شَيخُهـــــا قـــــدْ أعظـــمَ العاصـــي بهـــا الفَريـــةْ
صِـــرتِ كمـــنْ ينظُرُهـــا بلقعـــا أو كالـــــذي مَـــرَّ علـــى قَريَّـــةْ[4]

وأكثر الشعراء من هجاء المدن ، عند انتشار الكوارث ، والأمراض والمجاعات والأوبئة ، ومنهم ابن الوردي ، وذلك لأسباب عديدة ، فنراه يهجو مدينة منبج[5] بعد أن داهمها زلزال عام ٧٤٤هـ/١٣٤٤م ، أدى إلى خراب بيوتها ، التي كانت تشتهر فيها بتربية دودة القز ، وقضى هذا الزلزال على هذه البيوت بما فيها من دود قز ، حتى غدت قبوراً ، بعد أن كانت كالجنة ؛ بما تحويه من شجر التوت ، والحرير الذي تنتجه دودة القز ، وفي تلك الحادثة يقول الشاعر[6] :

---

(١) الكازات : الذين يشربون بالكوز . القرم : شدة الشهوة إلى اللحم . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (كوز) ، (قرم) .

(٢) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ٢١٥/١٠ . بلاد سيسية تقع في الشام بين أنطاكية وطرطوس ، يقال لها بالعامية سيس . ينظر : ابن ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٢٩٧/٣ .

(٣) الحنبلي : شذرات الذهب ، ٢١٠/٨ .

(٤) بلقع : أرض قفر . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (بلقع) .

(٥) منبج : بلد قديمة رومية الأصل ، قريبة من الشام . ينظر : ابن ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٢٠٥/٥ .

(٦) ينظر : الغزي : نهر الذهب ، ٥١٥/١ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مَنْبـــجٌ أهلُهـــا حكـــوا دودَ قـــز عندَهـــمْ تجعـــلُ البيـــوتَ قبـــوراً
ربُّ نِعَمِهـــم فقـــدْ ألَفـــوا مـــنْ شجـــرِ التـــوتِ جنـــةً وحريـــراً

وفي حوادث عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م يذكر ابن تغري بردي الوباء الذي حدث وعم جميع أقاليم الأرض ، حتى إنه كان يموت به في اليوم الواحد أكثر من خمسة عشر ألف شخص[١] . وكانت هذه حادثة أخرى دفعت ابن الوردي لهجاء المدن التي أصابها هذا الوباء ، فيقف ليهجو حلب ، ويصفها بأنها أرض مشقة ، وحية قاتلة ، بعبارات ممزوجة بالأسى والحزن تجاه الناس المصابين بهذا الوباء ، فيقول[٢] :

حـــلـــبُ واللهِ يـــكـــفـــي شـــرَّهـــا أرضُ مشـــقـــةٍ
أصبَـــحَـــتْ حَـــيـــةَ ســـوءٍ تَقـــتـــلُ النَّـــاسَ بِبَـــزقـــةٍ

وغضب من سكان سيس ؛ لسرورهم بما أصاب حلب من طاعون ، فدعا عليهم أن يصيبهم الوباء سريعاً كما أصاب حلب ، ويمزقهم جميعاً ، فقال [٣] :

سكـــانُ سيـــسَ يسرُّهُـم مـــا ساءَنـــا ودَّ ذا العوائِـــدِ مـــنْ عَـــدوِ الديـــنِ
اللهُ يُنْـــفِـــذُهُ إليـهـــمْ عاجـــلاً ليُمَـــزِقَ الطاغـــوتَ بالطاعـــونِ

ويقرر ابن نباتة الرحيل عن دمشق بعد أن أصابها البلاء الذي أصاب حلب و سيس ، طلباً للعيش في مكان آمن ، وينادى كل من يريد أن ينفد بجلده ، أن يسير معه ، بعد أن أصبح العيش فيها محالاً ، ورخصت كل الأنفس ، وقضى عليها الطاعون ، فيقول[٤] :

سِـــرْ بِنـــا عـنْ دمشـــقَ يا طالـبُ العيـــ شِ فـــمـــا فـــي المقـــامِ للمـــرءِ رغبـــةْ
رخِصَـــتْ أنـــفُـــسُ الخلائِـــقِ بالـطَّـــا عـــونِ فيهـــا فكـــلُّ نفـــسٍ بحبـــةْ

وفي عهد السلطان الأشرف الثاني ابن السلطان محمد بن قلاوون[٥] حدثت مجاعة شديدة سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٣م اجتاحت مدينة حلب ، وافتقد الناس فيها الخبز وعم الغلاء ، فانطلق بدر

---

(١) ينظر : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ١٠/١٥٥-١٥٦ .
(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ١٠/١٦٧ .
(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ١٠/ ١٦٨ .
(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ١٠/١٦٦ .
(٥) هو زين الدين شعبان بن حسين ، ابن محمد بن قلاوون ، من ملوك الدولة القولانية ، تسلطن وعمره عشر سنوات ، ولد سنة ٧٥٤هـ/١٣٥٣م ، وقتل على يد مماليكه سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٧م . ينظر ترجمته في : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ١١/٢٠ . وينظر : الزركلي : الأعلام ، ٣/١٦٣ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الدين بن حبيب[١] يهجوها بأنها مدينة لا تستحق العيش فيها ، فلا شيء أخضر بها ، حتى إن الخبز غلاؤه فاحش ، ويطلب من الآخرين الرحيل عنها وعدم الإقامة بها ، فيقول[٢] :

لا تقيمنَّ بي على حلبَ الشَّهـ ... ـباءِ وارحلْ فأخضرُ العيشِ أوهمُ
كيفَ لي بالمقامِ والخبزُ فيها ... لكلِّ رطلٍ بدرهَمينِ ودِرْهَمُ

كذلك حصل الغلاء الفاحش في مصر سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٥م ، مما جعل برهان الدين ابن جماعة[٣] الحموي الأصل يهجوها ، بأنها لا أمل فيها ، ولا يسكنها ذو عقل ، ففيها الترك والظلم والطاعون ، وفرط الغلاء ، وسوء الإنارة ، فيقول[٤] :

وماذا بمصرَ منَ المؤملاتِ ... فذو اللُّبِ لا يرتضي سَكَنُ
فتركٌ وجورٌ وفرطُ غلا ... وهمٌ وغمٌ والسراجُ يُدَخِنُ
يا ربُّ لطفاً منكَ في أمرِنا ... فالقلبُ يدعو واللسانُ يؤمِنُ

كما كان صعوبة الحصول على العيش سبب في هجاء المدينة أو أهلها ، فها هو ابن تولوا[٥] يهجو مصر ، لأنه لا يجد ما يقتات به ، إلا كتبه ، فيقول[٦] :

يا أهلَ مصرَ وجدتُ أيديكُم ... عنْ بسطِها بالنوالِ منقبضةْ
فمذْ عدِمتُ الغذاءَ عندَكُم ... أكلتُ كتبي كأنني أرضَهْ

---

(١) هو الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب ، بدر الدين ، أبو محمد ، أبو طاهر ، أخذ الأدب عن ابن نباتة وغيره ، دمشقي الأصل ، حلبي المولد والنشأة ، ولد عام ٧١٠هـ/١٣١٠م ، وتوفي عام ٧٧٩هـ/١٣٧٧م . ينظر ترجمته في : ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ٢٩/٢ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ٥٥/١١ .

(٣) هو إبراهيم بن عبد الرحيم بن محمد ابن جماعة الكناني ، أبو إسحاق ، برهان الدين ، ولد بمصر سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م ، ولي قضاء مصر ودمشق ، توفي سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م . ينظر ترجمته في : الزركلي : الأعلام ، ٤٦/١ .

(٤) ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمر ، ٣٥٥/١-٣٥٦ .

(٥) هو معين الدين أبو عمرو ، عثمان بن سعيد بن عبد الرحمن بن أحمد ابن تولوا الفهري ، له نظم كثير في الأشعار ، ولد عام ٦٠٥هـ/١٢٠٨م ، وتوفي بمصر عام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م . ينظر ترجمته في : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ٣١١/٧ .

(٦) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ٢٢/٢٠ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولجأ بعض الشعراء إلى هجاء المدينة بعد طرده منها ، وقد أُمر الشاعر جمال الدين ابن مطروح[١] بالسفر من دمشق إلى مصر بعد موت الصالح أيوب ، فعبر عن استيائه بأسلوب يظهر عدم المبالاة ، ويبطن مدى المرارة التي يشعر بها ، كقوله[٢] :

يقولـون سافِـرْ مـنْ دمشـقَ ولا تقـمْ وذلـكَ أمـرٌ مـا علـيَّ بـهِ بـأسُ
فقلـتُ علـى عينـي سمعـاً وطاعـةً فمـا جَلـقُ الدنيـا ولا أنتـمُ النَّـاسُ[٣]

وكان لطرد ملك مصر للتلعفري سبباً لهجائه لها ، حيث كان لا يكف عن المقامرة ، فعبر عن غضبه من هذا القرار بالدعاء على مصر بألا يأتيها مطر من السحب ، فقد دخلها بروحه وقلبه ، وخرج منها بلا روح أو قلب ، فنجده يقول[٤] :

مالـي ولمصـرَ لا سقاهـا ربـي غيثـاً غدِقـاً مـن سارياتِ السحـبِ
بالـروح دخلْتهـا وبالقلـبِ فـلا بالـروحِ خرجـتُ لا ولا بالقلـبِ

ويستمر ابن الوردي في هجائه للمدن ، ولا يبتعد عن مدن بلاد الشام ، فهو هنا يهجو مدينة البيرة[٥] ، دون سبب واضح للهجاء ، وربما يكون هجاء على وجه الدعابة ، كما نرى في قوله[٦] :

إنَّـما البـيـرةُ بـيـرٌ رحـلـتـي مـنـهـا سـعـادةْ
قـيـلَ والـبـيـرةُ بـيـرٌ قـلـتُ بـيـرٌ وزيـادةْ

---

(١) هو يحيى بن عيسى بن إبراهيم ، جمال الدين ، ولد بأسيوط سنة ٥٩٢هـ/١١٩٦م ، حظي بمكانة عند الصالح أيوب ، وبعد موته أعرض عنه خلفاء الصالح ، له ديوان شعر ، توفي في القاهرة سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م . ينظر ترجمته في : الزركلي : الأعلام ، ١٦٢/٨ . وينظر : الحنبلي : شذرات الذهب ، ٤٢٧/٧-٤٢٨ .

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ٢١١/١-٢١٢ .

(٣) جلق : موضع قريب من دمشق ، وقيل هي دمشق نفسها . ينظر : ابن ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ١٥٤/٢.

(٤) ديوان التلعفري ، ١٩ .

(٥) هناك موضعان للبيرة ، قد يكون الشاعر قصد هذه أو تلك ، فالبيرة : بلد تقع بين حلب والثغور الرومية أو هي الواقعة بين بيت المقدس ونابلس في فلسطين . ينظر : ابن ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٥٢٦/١ .

(٦) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، ٢١٣/٢ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأعرب ابن الوردي في الأبيات التالية عن سبب هجائه لشيزر[١] ، وكان ذلك السبب هو جوها الحار ، على رغم مرور نهر العاصي بها ، ويبدو أن مناخها لا يلائم ابن الوردي ، ويرفض المكوث بها ، فيشبه مناخها بالنار ، وهو من حزب المسلمين ، أصحاب الجنة ، فيقول فيها وكان قد ولي قضاءها[٢] :

قيـــلَ لـــي : شَيْـــزَرُ نـــارٌ وبهـــا العـــاصـــي مخـــلـــدْ
قلـــتُ : لا أمـــكـــثُ فـــيـــهـــا أنـــا مـــنْ حـــزبِ محمـــدْ

ونالت منطقة الأغوار نصيبها من الهجاء ، فصفي الدين الحلي يهجوها حين نزل بمنزل فيها ، وكما هو معروف فإن منطقة الأغوار من المناطق الحارة فيقول فيها[٣] :

لا جـــادَ هَطَّـــالُ السَّحائـــبِ بُقعـــةً بالغَـــورِ أضحـــتْ وهـــي شـــرُّ بِقاعِـــهِ
أرضٌ تضاعَـــفَ حَرُّهـــا وبعوضُهـــا فـــي مَرجِهـــا لمَّـــا حَللـــتُ بِقاعِـــهِ
وخـــلا الذُّبـــابُ بهـــا فليـــسَ ببـــارحٍ غَـــرِداً يحـــكُّ ذِراعَـــهُ بذِراعِـــهِ

ويرسم ابن أبي عباس الحنبلي[٤] البغدادي الأصل ، صورة بشعة لمدينة دمشق حين قدم إلى الشام ، وسكنها مدة ، فقال في هجائها إنه فيها غريب ، وهي بلد من سكنها يبحث عن دار إقامة ، ويهجو أهلها بثقالة أخلاقهم ، حتى إنه يستثقل فيها الهواء والماء ، ينام على أرضها مذعوراً ، كنوم البعير ، فيقول[٥] :

قـــومٌ إذا دخـــلَ الغريـــبُ بأرضهـــم أضحـــى يفكـــرُ فـــي بـــلادِ مقـــامِ
بثقالـــةِ الأخـــلاقِ منهـــم والهـــوى والمـــاءِ وهـــي عناصـــرُ الأجســـامِ
وزعـــورة الأرضيـــنِ فامنـــنْ وقـــعَ ونـــمْ كبعيـــرِ المستعجـــلِ التمتـــامِ

---

(١) شيزر : تقع قرب المعرة في الشام ، وقريبة من حماة . ينظر : ابن ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٣٨٣/٣ .

(٢) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، ٥٨/٢ .

(٣) ديوان صفي الدين الحلي ، ٤٥٦ .

(٤) هو سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم بن سعيد ابن الصفي ، نجم الدين ، أصله من قرية في بغداد تدعى طوف ، ولد عام ٦٥٧هـ/١٢٥٩م ، قدم الشام وسكنها مدة ، ثم أقام بمصر ، شرح الأربعين النووية ، وكتب على المقامات ، توفي بالخليل عام ٧١٦هـ/١٣١٦م . ينظر ترجمته في : ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ١٥٤/٢-١٥٥ .

(٥) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ١٥٥/٢ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بجـــــوارِ قاسِيـــــون هـــــمْ وكأنهـــــم مـــنْ جُرمـــــهِ خُلِقـــوا بغيـــرِ خصـــامِ[1]

لم يقف هجاء الشعراء عند هجائهم للمدن ، بل تعدوه إلى الهجاء على لسان الغير ، فالشاعر ابن النقيب الفقيسي يتمثل إبليس في مصر بعد أن منع الملك الظاهر الخمر والحشيش فيها ، حيث يرى أن إبليس يرفض الإقامة بها ، فلم تعد بالنسبة له أرض مقام ، يقول[2] :

مَنـــعَ الظـــاهرُ الحشيـــشَ مـــع الخمـــ رِ فوَلـــى إبليـــسُ منهـــا يسعـــى

قـــالَ مالـــي وللمقـــامِ بـــأرضٍ لـــم أُمَتـــعْ فيهـــا بمـــاءٍ ومرعـــى

ويصل الحد بالشاعر إلى أن يهجو المدينة بكل ما فيها من الأصحاب . ومن النماذج على ذلك ، هجاء سيف الدين السامري[3] لكل من بدمشق من الأصحاب ، ويستثني منهم شخصاً واحداً ؛ إلا أنه لا يعفيه من بعض الهجو ، على اعتبار أنه أفضل الموجود ، فيقول[4] :

قبـــحَ اللهُ كـــلَّ مـــن بدمشـــقَ مـــنْ أُصيحبانـــا ســـوى ابـــنِ سعيـــدِ

فهـــو علـــى شحِّـــهِ ومـــا يتعاطـــا هُ مـــن اللـــؤمِ أصلـــحُ الموجـــودِ

النماذج السابقة لشعراء العصر المملوكي في هجاء المدن ، تدور معظمها في ذم بلاد الشام والديار المصرية ؛ لأنها كانت حواضر وعواصم وملتقى المدن الكبرى التي يقطنها الحكام المماليك ، وكانت تقصدها الناس ، وعلى رغم كثرة الأشعار التي تناولتها بالمدح ، أثبتت هذه النماذج الصورة المعاكسة لها حين تناولتها بالهجاء ، وصور الشعراء ما حدث فيها من أمور عظام ، والتي أظهرت من خلالها الأسباب العديدة التي كانت سبباً واضحاً في هجائها ، كموت عزيز فيها، أو كثرة تغير حكامها ، أوتحكمهم بها ، أو فساد الحكم فيها ، وأوامرهم الظالمة الصادرة في حق الرعايا ، أو ما أصابها من مجاعات وما أدت إليه ، أو لمناخها ، وغير ذلك . وهي في مجملها تعكس صورة المجتمع في العصر المملوكي في الفترات التي كان يمر بها ، لترسم لنا صورة صادقة ، ومشاعر حية ؛ لما حفل به ذلك العصر ، ومدى المعاناة التي قاساها المجتمع .

---

(١) قاسيون : جبل مقدس يطل على دمشق ، وبه مغارة تعرف بمغارة الدم . ينظر : ابن ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٤/٢٩٥-٢٩٦ .

(٢) الكتبي : فوات الوفيات ، ١/٢٤٥-٢٤٦ .

(٣) هو أحمد بن محمد بن علي بن جعفر ، السامري نسبة إلى سامراء ، أديب وله شعر جيد وطويل في الهجو ، ينظر : الكتبي : فوات الوفيات ، ١/١٣٤-١٣٥ .

(٤) الكتبي : فوات الوفيات ، ١/١٣٦ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبحث الثاني : هجاء رجال الدولة :

يرتبط هجاء رجال الدولة بإطار الهجاء السياسي والاجتماعي ، فهو جزء منبثق عنه . والشعراء أناس من المجتمع ، حملت أشعارهم جوانب أظهرت مدى الانحراف والظلم والفساد الواقع عليهم من قبل رجال الدولة ؛ وهم أولئك الذين تولوا مناصب مهمة فيها ، وكان منهم الحكام والأمراء والوزراء والقضاة ، ومنهم من تولى أعلى المناصب في الدولة ، وهو غير جدير بها ، وهناك من استخدم منصبه لتحقيق مآربه الشخصية على حساب مصالح الآخرين ، كما تناول الشعراء مظاهر أخرى في أثناء هجائهم لهم ؛ كالفوضى والفساد . وكانت بعض مظاهر الهجاء ممزوجة بالسخرية والهزل ، ومنها ما تعدت ذلك إلى الهجاء اللاذع والجارح لتبرز مدى فساد أجهزة الحكم . والملاحظ في هذه الأشعار التي نظمها الشعراء في رجال الدولة أنها كانت في مجملها تحمل رسائل اجتماعية يراد منها تنبيه الناس وأصحاب الأمر إلى ما يحدث من مظالم وتقصير .

ولم تكن اللبنة الأولى لبداية ظهور هجاء المدن في العصر المملوكي ، فقد تناول العديد من شعراء العصر الأموي والعباسي الكثير من رجال الدولة بالهجاء ، ومنهم دعبل الخزاعي ؛ الذي كان يعرف بهجاء الملوك . وفي العصر المملوكي هناك الكثير من النماذج الشعرية لشعرائه تندد برجال الدولة ، وتهجو شيوع الفساد وتدني الأخلاق فيهم ، ولم يكن خوف الشعراء من حكامهم ليمنعهم من هجائهم ، ويفسر محمود رزق سليم السبب في ذلك بقوله : "... يبدو أنهم أمنوا جانب حكامهم حينذاك ، لتعالى هؤلاء الحكام من ناحية ، ولعجمتهم من ناحية أخرى ، ..."[١] . ومما ورد من هجاء لرجال الدولة ما قاله ابن دقيق العيد في أهل المناصب عامة[٢] :

أهلُ المناصبِ في الدنيا ورِفْعَتِها ... أهلُ الفضائلِ مَرذولونَ بينهمُ
قدْ أنزلونا لأنا غيرُ جنسِهمُ ... منازلَ الوحشِ في الإهمالِ عندَهمُ
فما لهمْ في توَقي ضَيرنا نظرٌ ... ولا لهم في ترَقي قَدْرنا هِمَمُ
فليتنا لو قَدَرْنا أن نُعَرفهم ... مِقْدارهمْ عندنا أو لو دَرَوْهُ همُ
لهم مريحانِ من جهلٍ وفرطِ غِنى ... وعِندنا المتعِبانِ العِلمُ والعَدمُ

---

(١) محمود رزق سليم : موسوعة عصر سلاطين المماليك ، الجزء الرابع ، المجلد ٢٣٣/٨ .

(٢) موفق الدين أبو ذر سبط ابن العجمي (ت٨٨٤هـ/١٤٧٩م) : كنوز الذهب في تاريخ حلب ، تحقيق شوقي شعث وفالح البكور ، ط ١ ، دار القلم ، حلب– سوريا ، ١٩٩٦م ، ١٠٢/١ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويهجو ابن الوردي كثرة الحكام الذين يتولون الحكم ، وكثرة النواب ، حتى إن الأسواق ما تكاد تتزين لملك أو نائب ، حتى تتزين لآخر ، ويستخدم صورة كاركاتورية مضحكة في تشبيه هذا الوضع السمج ، فتغييرهم أسرع من إنبات اللحية بعد حلقها ، وفيهم يقول[١] :

فكمْ ملكٍ جاءَ وكمْ نائبٍ يا زينةَ الأسواقِ حتى متى
قدْ كرروا الزينةَ حتى اللِّحى ما بقيتْ تلحقُ أنْ تنْبُتا

وكان السلاطين عرضة للهجاء حين يصدرون أوامر غير مرغوب فيها ، فالجزار يهجو المعز أيبك حين أمر بعدم خروج أي امرأة أو رجل بلا سراويل ، فيقول[٢] :

حنَّ الملكُ المعزُ على الرعايا وألزمهم قوانينَ المروةِ
وصانَ حريمَهم منْ كلِ عارٍ وألبسهُم سراويلَ الفتوةِ

ويبدو أن هناك الكثير من الأوامر السلطانية التي لم تجد قبولاً عند الشعراء ، فتناولوها بالهجاء ، ومن ذلك ما حصل في عهد الظاهر بيبرس حين منع الخمر والحشيش ، فاستخدم الشاعر ناصر الدين ابن المنير[٣] الماء والمرعى بدلاً من الخمر والحشيش ، ليسخر من هذا الأمر[٤] :

ليس لإبليسَ عندنا طمعٌ غير بلادِ الأميرِ مأواهُ
منعَتهُ الخمرَ والحشيشَ معاً أحرمَتْهُ ماءَهُ ومرعاهُ

ومن هجاء الشعراء للأمراء قول صلاح الدين الصفدي[٥] في أمير ظالم ، يقتل الناس ، كأنه جزار[٦] :

قدْ عَجِبنا لأميرٍ ظلمَ النَّاسَ وسَبخْ
فهو كالجَزارِ فيهم يذكرُ اللهَ ويذبحْ

---

(١) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، ٣٣٦/٢ .

(٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، القسم الثاني ، ٣٩٧/١ .

(٣) هو أحمد بن محمد بن منصور بن القاسم بن مختار القاضي ، ناصر الدين ، ابن المنير ، عالم وأديب ، وضليع في الأدب وفنونه ، وله مصنفات كثيرة ، من كتبه (القتفا عارض به الشفا) ، ولد عام ٦٢٠هـ/١٢٢٣م ، وتوفي عام ٦٨٣هـ/١٢٨٤م . ينظر ترجمته في : الكتبي : فوات الوفيات ، ١٤٩/١ .

(٤) الكتبي : فوات الوفيات ، ٢٤٥/١ .

(٥) هو خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي ، إمام ومؤرخ ، صاحب كتاب (الوافي بالوفيات) ، أخذ الأدب عن ابن نباته ، وتولي عدة مناصب في حلب ، ولد في صفد بفلسطين عام ٦٩٧هـ/١٢٩٨م ، وتوفي عام ٧٦٤هـ/١٣٦٣م . ينظر ترجمته في : الحنبلي : شذرات الذهب ، ٦٤/١ .

(٦) ابن حجة الحموي : خزانة الأدب ، ١٧٤/٢ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكذلك هجا الشاعر علم الدين ابن الصاحب[١] الأمير علاء الدين الطبرس[٢] ، وهو مصاب بالجنون ، وقد بنى عقداً فوق قنطرة قديمة تدعى بالمجنونة ، كان ماء النيل يمر من تحتها ، وقد عقدها قبواً للفقراء الذين كانوا يصحبونه ، وفيه يقول[٣] :

ولقد عجبتُ من الطبرسِ وصحبهِ ... وعقولُهمْ بعقودهِ مَفتونةْ
عقدوا عقوداً لا تَصحُ لأنهم ... عَقدوا لمجنونٍ على مَجنونةْ

ولم يكن الهجاء في الأمير ذاته فقط ، بل تناول ما يخص الأمير أيضاً ، وما يمتلكه ، فالبهاء زهير مثلاً يهجو مماليك الأمير وخيله ، فيقول فيهم[٤] :

مماليكُ مولانا الأميرِ وخيلُهُ ... كلابٌ إذا شاهدْتَهُم وعِظامُ
لقدْ ضاعَ فيهمْ مالُهمْ إذ تراهمُ ... وليسَ عجيباً أنْ يضيعَ حرامُ

ووجه الشاعر سيف الدين السامري هجاءً لاذعاً للأميرين سيف الدين طوغان ، وإيدمر ، حيث كان لكل منهما أستادار هما ، العلم سنجر ، والشجاع همام ، وقد استبدا بالأمر ، فيقول فيهما[٥] :

اسمُ الولايةِ للأميرِ وما لَهُ ... فيها سوى الأوزارِ والآثامِ
وجنايةُ القتلى وكلُّ مصيبةٍ ... تُجْني منافِعُها إلى هَمَّامِ
سيفانِ قدْ وليا وكلٌّ منهما ... ماضي العزائمِ دائمُ الإقدامِ
وببابِ كلٍّ منهما عَلَمٌ ينكلُ ... ما يَجودُ بِهِ منَ الأنْعامِ
والناسُ عندَها بناسي لا ولا ... يريانِ هادِ الناسِ كالأنعامِ
وقدْ استحلا منهمْ ما لمْ يزلْ ... من مالهمْ ودمائهمْ بحرامِ
فمتى أرى الدنيا بِغيرِ تشاجرٍ ... والقطعِ والتَّنكيسِ للأعْلامِ

---

(١) هو أحمد بن يوسف بن عبد الله بن شكر ، علم الدين ابن الصاحب ، مصري ، تعلم في صباه وحصل الكثير ، إلا أنه تجرد وتمفقر ، توفي عام ٦٨٨هـ/١٢٨٩م . ينظر ترجمته في : الصفدي : الوافي بالوفيات ، ١٩١/٨ .

(٢) هو علاء الدين الظاهري ألطبرس ، الدوادار الكبير ، مولى الخليفة الظاهر بن الناصر ، توفي عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م . ينظر : الصفدي : الوافي بالوفيات ، ٢٠٧/٩ .

(٣) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ٢٨٦/٣ .

(٤) ديوان البهاء زهير ، ٢٤٩ .

(٥) الكتبي : فوات الوفيات ، ١٣٩/١-١٤٠ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفرح الناس بالأمراء الظالمين الذين عوقبوا ، ونظم الشعراء فيهم الأبيات التي يهجونهم فيها وتظهر مدى فرحهم بما أصابهم . ومن هؤلاء الأمراء ، الأمير الظالم قوصون حين علق مسمراً[١]، وصنع الناس لذلك الحلوى ، فهجاه الشاعر جمال الدين المعمار بقوله[٢] :

شخصُ قوصونَ رأينا ... في العَلالي قِ مُسمرْ
فعجِبنا مِنهُ لمَّا ... جاءَ في التَّسميرِ سكرْ

وطال الهجاء الوزراء من رجال الدولة ، فنرى ابن دقيق العيد يهجوهم جميعاً بأضداد الصفات ، فهم من عجائب البر والبحر ، كما يهجو أفعالهم ؛ التي تجمع بين المدح والهجاء ، فيقول[٣] :

مُقبلٌ مُدبرٌ بعيدٌ قريبٌ ... مُحسنٌ مُذنبٌ عدوٌ حبيبٌ
عَجبٌ منْ عَجائبِ البرِّ والبحرِ ... ونوعٌ فَريدٌ وشَكلٌ غريبٌ

ويهجو الشاعر ابن الفقيسي أميراً تقلد الوزارة عن جهل بأمورها ، لا يتكلم ، ولا يسمع ما يدور حوله ، ففيه يقول[٤] :

أبكمُ قلدوهُ أمرَ الرعايا ... وهو من حليةِ الوزارةِ عُطْلُ
فهو بالبوقِ بالوزارةِ طبلُ ... وهو في الدستِ حين يجلسُ سطلُ

وفي وزير يهجو زمانه يدعى صدر ، يقول جمال الدين ابن مطروح ناقماً عليه ، آثراً فيه التورية، ربما لعدم القدرة على التغيير ، وربما لعدم القدرة على المجاهرة ، ويرى أن هذا الوزير يذم الزمان لعجزه عن الإصلاح ، ولولا هذا الزمان ما أصبح وزيراً[٥] :

أقولُ وقدْ ذمَّ الوزيرُ زمانَهُ ... منَ العَجزِ ذمَّ العاجزِ المُتحيرِ
تذمُ زمانَ السوءِ يا صدرُ ظالماً ... ولولا زمانُ السوءِ لمْ تتصدرِ

---

(١) ثبت قوصون على جمل وطوف به في شوارع القاهرة ، فشمت الناس به وفرحوا بتشهيره . ينظر : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ٢١/١٠ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ٤٠/١٠ .

(٣) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ١٤٥/٤ .

(٤) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ٣٣/١٢ .

(٥) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ٢٣٠/١ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن كان عرضة للهجاء والي الحسبة ؛ غير الأمين في حساباته ، وأصبح غنياً من سرقاته فيها ، ففيه يقول صلاح الدين الصفدي موريا بين كلمة المحتسب عند الله ، والمحتسب للمال[١] :

مَنْ وُلِّيَ الحِسبةَ يصبرُ على تَعرُضِ الواقفِ والسَّائرِ
فليسَ يَحظى بالمُنى والغِنى فِيهِمْ سوى المُحتسبِ الصَّابرِ

وتناول البوصيري طوائف المستخدمين بالهجاء[٢] بكل جرأة بالدعاء عليهم ، فقد عاشرهم وجربهم سنين طويلة ، ولم ير فيهم رجلاً حافظاً للأمانة . ويعدد الشاعر أسماء هؤلاء المستخدمين الخائنين للعهد ، فيقول هاجياً لهم ولأفعالهم السيئة ، مصوراً مدى فسادهم ، وفساد أخلاقهم[٣] :

ثَكِلْتُ طوائفَ المُستخدمينا فلمْ أرَ فيهمُ رجُلاً أمينا
فخذْ أخبارَهُم منِّي شِفاهاً وأنْظِرني لأُخْبِرَكَ اليَقينا
فقدْ عاشرتُهُمْ ولبثتُ فيهِمْ مع التَّجريبِ منْ عُمُري سِنينا
حَوتْ بُلْبَيسُ طائفةً لُصوصاً عَدَلْتُ بواحدٍ منهُم مِئينا
فُرَيْجى والصَّفِيَّ وصاحِبيهِ أبا يقطُونَ والنَّشوع السَّمينا
فكُتَّابُ الشَّمالِ هم جميعاً فلا صَحِبَتْ شِمالُهُمُ اليَمينا
وقدْ سرقُوا الغِلالَ وما عَلمنا كما سَرَقتْ بَنو سَيفِ الجُرونا
وكيف يُلامُ فُسَّاقُ النّصارى إذا خانتْ عُدولُ المُسلمينا
وجُلُّ النَّاسِ خُوَّانٌ ولكنْ أُناسٌ مِنهمْ لا يَستُرونا

كما تناول الشاعر ابن العطار[٤] المستخدمين بالهجاء ، وركز على الأقباط منهم ؛ لما حظوا به

---

(١) ابن حجة الحموي : خزانة الأدب ، ١٧٤/٢ .

(٢) يعتبر الدكتور نبيل خالد أبو علي أن البوصيري لم يقل شعراً في الهجاء ، وما يعده الآخرون هجاءً فما هو إلا من النقد الاجتماعي ؛ لأن هدفه المصلحة العامة . ينظر : نبيل خالد أبو علي : البوصيري شاهد على العصر المملوكي ، ط ٤ ، مطبعة دار المقداد للطباعة ، غزة ، ٢٠٠٥م ، ٥٢ .

(٣) تنظر القصيدة كاملة في : ديوان البوصيري ، ١٨٩ .

(٤) أحمد بن محمد بن علي الدنيسري ، شهاب الدين ابن العطار ، أديب وبارع وناظم للشعر ، له كتاب (نزهة الناظر في المثل السائر) ، توفي عام ٧٩٤هـ/١٣٩٢م . ينظر ترجمته في : ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ٢٨٧/١-٢٨٩ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من مكانة ومال عند السلاطين ، فيقول هاجياً المستخدمين من الأقباط والسلاطين معاً[١] :

قالـــوا تـــرى الأقبـــاطَ قـــدْ رزقـــوا حظـــــاً وأضْحـــــوا كالسلاطيـــــنِ
وعَللـــوا الأمْـــــوالَ قُلـــــتُ لهـــمْ رِزقُ الكِـــــلابِ علـــــى المجانيـــــنِ

وكان المماليك يهتمون بالمتصوفين ، وهذا مما كان مصدر غضب عند البعض ، من ذلك هجاء ابن الفوية[٢] المماليك الأعاجم والصوفية معاً ، يقول[٣] :

أعجامُنـــــا قـــدْ أصْبحـــتْ قُلوبهـــمْ وجْـــــداً بِحُـــــبِ الخانَقـــاةِ خافقَـــــةْ
لا تَعجبـــوا فَكـــلُّ كَلـــــبٍ نابـــــحٌ ولا يُـــحـــــبُ الكلـــــبُ إلا خانِـــقَـــــهْ

وللقضاة نصيب الأسد من هجاء الشعراء ، فلم يتركوا أمراً يدعو للهجاء إلا وتناولوه فيهم . وكان من المعروف أن من يتولى منصب القضاء يحمل على أكتافه عبئاً ثقيلاً ؛ لذا عف البعض عن توليه لهذا المنصب حتى لا يحمل وزره ، في حين تهافت البعض الآخر على الحصول عليه ، وهناك من وجد نفسه مجبراً على قبوله[٤] . والشاعر ابن تولوا الفهري يهجو القاضي ، الذي لا يفرق بين البار والفاجر ، فيحكم للجميع حكماً ظالماً لا عدل فيه ، ويصفه بألفاظ تنم عن مدى الغضب الذي يتملك الشاعر ، فيقول[٥] :

تَـــقـــدمَ الـــقـــاضـــي لِـــنـــوابـــهِ بقَطـــعِ رزقِ الـــبـــرِّ والفـــاجـــرِ
ووفَـــرَ الجـــزارُ مِـــنْ بيـــنـــهـــمْ فاعْجَـــبْ للُطـــفِ التيـــسِ بالجـــازرِ

كما نرى ابن دانيال يهجو القاضي بعد أن شكته زوجته إليه فقضى لها . وربما يكون القاضي منصفاً بهذا الحكم ؛ إلا أن ابن دانيال يجد فيه الإجحاف ، فيقذف القاضي بأبشع الهجاء في قصيدة طويلة يهجو فيها نفسه وحاله أيضاً ، وما ألم به بعد هذا الحكم ، فيقول في بداية أبياتها[٦] :

قـــلْ لقاضـــي الفســـوقِ والأدبـــارِ عَضَـــدُ البُلْـــهِ عُمـــدةُ الفُجَّـــارِ

---

(١) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ٢٨٨/١ .

(٢) هو محمد بن أحمد بن خالد بن محمد الإسكندراني ، شمس الدين ، المعروف بابن الفوية ، له أشعار كثيرة ، توفي بالطاعون في مصر عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م . ينظر ترجمته في : الصفدي : الوافي بالوفيات ، ١٠٨/٢ .

(٣) الصفدي : أعيان العصر ، ٢٦٣/٤ .

(٤) ينظر : محمود رزق سليم : موسوعة عصر سلاطين المماليك ، القسم الأول ، الجزء ٧٢/١ .

(٥) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ٣١٢/٧ .

(٦) الكتبي : فوات الوفيات ، ٣٣٦/٣ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والَّـــذي قـــدْ غـــدا سَفيـــهَ جَهـــلٍ ولـــهُ مِـــنْ قُرونِـــهِ كالصَّـــواري
بِـــكَ أشْكـــو مِـــنْ زَوجـــةٍ صَيَّرَتني غائبـــاً بيـــنَ سائـــرِ الحُضَّـــارِ
غَيَّبَتْنـــي عَنـــي بِمـــا أطْمَعَتنـــي فأنـــا الدَّهـــرُ مفكـــر فـــي انتظـار
غبـــتُ حتـــى لـــو إنهـــمْ صَفعونـــي قلـــتُ كُفُّـــوا باللهِ عـــنْ صَفـــعِ جـــاري
فنَهـــاري مِـــنَ البـــلادةِ ليـــلٌ فـــي التَّســـاوي والليـــلُ مثـــلُ النَّهـــارِ
دارَ راســـي عـــن بـــابِ داري فبـــاللهِ أخبرونـــي يـــا سادَتـــي أيـــنَ داري
ملكتـــنـــي حـــيـــارة وحيـــاراً حتـــى زادتْ بالدردبيـــسِ عيـــاري[1]
أيـــنَ مـــخُ الجِمـــالِ مـــنْ طبـــعِ مُخـــي فـــي التَّســـاوي وأيـــنَ مُـــخُ الحمـــارِ

ويهجو البوصيري الكتاب والقضاة بسوء أخلاقهم وفساد سيرتهم ، وتسلطهم على رقاب الناس ، ويحرض الوزير عليهم ، يقول[2] :

تَـحيلـــتْ القُـــضـــاةُ فَـــخـــانَ كـــلٌّ أمـــانَـــتَـــهُ وسَـــمَّـــوْهُ الأمـــيـــنـــا
وكـــمْ جَعـــلَ الفقيـــهُ العـــدلَ ظُلْمـــاً وصَيّـــرَ باطـــلاً حقـــاً مُبينـــا
ومـــا أخشـــى علـــى أمـــوالِ مصـــرَ ســـوى مِـــنْ مَعشـــرٍ يَتَأَولونـــا
يقـــولُ المسلمـــونَ لنـــا حقـــوقٌ بهـــا ولنحـــنُ أولـــى الآخِذينـــا
وقـــال القبـــطُ إنهـــمْ بمصـــرَ الـــ مُلـــوكُ ومـــنْ سواهُـــمْ غاصِبونـــا
وحَلَّـــتِ اليهـــودُ بِحفـــظِ سبـــتٍ لهـــمْ مـــالَ الطوائـــفِ أجمعينـــا
فـــلا تقبـــلْ مـــنَ النُّـــوابِ عُـــذراً ولا النُّظـــارِ فيمـــا يُهْمِلونـــا

وكان للتنافس بين القضاة أنفسهم الضالعين في الأدب ، والناظمين للشعر دور للهجاء فيما بينهما ، فهذا قاضي القضاة المعروف بابن المنير ، يهجو القاضي زين الدين أبو الفرج حين نازعه في الحكم ، ويتهمه بالجهل فيها ، فلابد له من التنحي عنها إلى من يستحقها ، فيقول[3] :

قـــلْ لمـــنْ يدعـــي المناصـــبَ بالجهـــ لِ تَنَـــحَ عنهـــا لِمـــنْ هُـــو أعْلـــمَ
إنْ تكـــنْ فـــي رَبيـــعِ وُلِّيـــتَ يومـــاً فعليـــكَ القضـــاءُ أمســـى محـــرمَ

(١) الدردبيس : الشيخ الكبير الهم . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (دردبس) .
(٢) تنظر القصيدة كاملة في : الكتبي : فوات الوفيات ، ٣٦٣/٣ .
(٣) نبيل خالد أبو علي : البوصيري شاهد على العصر المملوكي ، ٤٩ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويشمت الشعراء بالحوادث التي تقع للقضاة ، ويتلقفونها بسرعة لتكون من ضمن أشعارهم في الهجاء ، فالشاعر شمس الدين ابن الخياط[١] يهجو قاضياً بعد أن وقع عن بغلته ، ويقول شامتاً به[٢] :

بَغلـــــةُ قاضينـــــا إذا زُلزلـــــتْ ... كانـــت لـــه مـــنْ فَوقِهـــا الواقعـــهْ
تكاثـــرُ ألهـــاهُ مِـــنْ عُجْبِـــهْ ... حتـــى غَـــدا مُلقـــىً علـــى القارعـــهْ
فأظهـــرتْ زوجَتُـــهُ عندهـــا ... تضايـــقـــاً بالرَّحـــمـــةِ الواسِـــعـــهْ

كذلك ما كان من هجاء أحمد بن عبد الدائم[٣] للقاضي بدر الدين بن جماعة ووالده ، هجاءً فاحشاً ، لأنه لم يأبه بأفعال ابنه ، وغض الطرف عنها ، ففي الوقت الذي يموت فيه الفقير لعدم وجود لقمة العيش ، يكون ابنه شبعان ، مضيعاً وحابساً لأموال الفقراء ، وآكلاً لأموال اليتامى . كل ذلك وغيره يورده الشاعر بأشد أنواع الهجاء ، فيقول فيه[٤] :

يمـــوتُ عديـــمُ القـــوتِ بالجـوعِ حسـرةً ... ويشبـــعُ بالأوقـــافِ أهـــلُ الطيالـــسِ[٥]
فـــمـــا أجـــدُ إلا وحـــش وحسابُـــهُ ... مـــن الغبـــنِ نـــار دونـهـــا نـــار فارس
وهـــذا ابـــنُ قاضـــي المسلميـــنَ موكـــلٌ ... بـــلـــعـــقٍ وراحَ فـــي ظَـــلامِ الحـنـادسِ[٦]
ومـــا ذاك إلا أن والـــدَهُ امـــرؤٌ ... جنـــوحٌ لمـــا يرضـــى بـــهِ غيـــرُ عابسِ
وإن رامَ مـنـــهُ مـــالَ وقـــفَ يضيعُـــهُ ... فـمـا هـــو للأمـــوالِ عَـنـــهُ بـحـابـسِ
ونَعْـذُرُ نَجـلاً هـامَ فـــي زمـــنِ الصِّبـى ... بـكُـلِ صَبـيٍّ فـاتـرِ الـطـرفِ نـاعـسِ
فكـــمْ صـادَ غُزْلانـــا مـنَ التُـــركِ دونِهـا ... فـــوارسُ حـــربٍ يـا لَهـــا مـــنْ فـــوارسِ

---

(١) هو شمس الدين محمد بن يوسف بن عبد الله الدمشقي ، الملقب بالضفدع ، شاعر بارع ، كثير الهجو ، شعره في ستة مجلدات ، ولد عام ٦٩٣هـ/١٢٩٥م ، وتوفي عام ٧٥٦هـ/١٣٥٥م . ينظر ترجمته في : الصفدي : أعيان العصر ، ٣٥٣/٥-٣٥٤ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ٢٣١/٩ .

(٣) هو أحمد بن عبد الدائم بن يوسف بن قاسم بن عبد الله بن عبد الخالق بن ساهل ، مهر في النظم ، وأولع بالهجاء ، توفي عام ٧٣٣هـ/١٣٣١م . ينظر ترجمته في : ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ١٦١-١٦٥.

(٤) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ١٦٢/١-١٦٣.

(٥) طياليس : مفرده طيلسان ، وهو لفظ فارسي لنوع من الأكسية . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (طلس) .

(٦) ظلام الحنادس أو الدحامس : الليل الشديد الظلام . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (دحمس) .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكـــمْ بـــاعَ أمـــوالَ اليَتامـــى لقُرْبِهـــا تـــوسَّـد للـــمـــردانِ فـــوقَ الطَّنافـــسِ
فـسـلْ مُـودِعَ الأيتـامِ مـا صَنعـوا بِـــهِ وقـــدْ كَنَّســـوهُ عامـــداً بالمكانـــسِ
وجامـعُ طولـونِ فـمـا كـــانَ وقْـفُـــهُ لـــهُ إذا تـــاهَ غـيـــرَ لـحـســـةِ لاحـــسِ

ومن قول محب الدين بن الشحنة[1] يهجو القاضي جمال الدين الملطي بأكل الحشيش والتعامل بالربا والزندقة[2] :

عجبـــــتُ لشيـــخٍ يأمـرُ النـاسَ بالتقـى وما راقـــبَ الرحمـــنَ يومـــاً ومـا اتقـى
يـــرى جائـــزاً أكـلَ الحشيشـــةِ والربـا ومـــن يسمـــعْ الوحـي حقـــاً تزندقـــا

يلاحظ مما ورد من شواهد لهجاء رجال الدولة على ألسنة شعراء العصر المملوكي ، بأن هذا العصر قد زخر بالعديد من النماذج الدالة على مدى الجرأة التي كان يتمتع بها الشعراء ، والتى تبرز مدى تأثرهم بمجتمعهم والحياة السياسية التابعة له ، فأظهروا جميع نواحي الفساد والظلم التي كانت تنجم عن حكام هذا المجتمع ، والخبايا الكامنة بداخله ، والتي استطاعوا التعرف عليها ، فما تركوها إلا وقد عبروا عنها .

---

(١) هو محمد بن محمد بن محمد بن محمود بن غازي ابن أيوب بن الشحنة ، محب الدين ، أبو الوليد ، تركي الأصل ، ولد عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م ، برع في الفقه والنحو والأدب ، تولى القضاء بحلب ودمشق ، توفي بحلب عام ٨١٥هـ/١٤١٢م . ينظر ترجمته في : الحنبلي : شذرات الذهب ، ١٦٩/٩-١٧٠ .

(٢) السخاوي : الضوء اللامع ، ٣٣٦/١٠ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبحث الثالث : الهجاء المذهبي والديني :

ترجع نشأة الهجاء المذهبي والديني في العصر المملوكي إلى عدة أسباب ، أهمها الخلاف العقائدي بين المسلمين وباقي الديانات الأخرى كاليهودية والنصرانية ؛ حيث إن أصحاب هذه الديانات لم يكونوا يوماً من الأيام قد سلموا للمسلمين ، أو عملوا على إرساء قواعد الحكم الإسلامي ، أو اندمجوا اندماجاً كاملاً داخل المجتمع الإسلامي ، فنجد أنهم كانوا يحيكون المؤامرات والدسائس باستمرار دون كلل أو ملل ، وكانوا من المحركين والمثيرين للفتن بين المسلمين داخل المجتمع الإسلامي . ومما عمق هذا الخلاف مجيء العنصر الوافد ، وهم الصليبيون الغزاة من أطراف بلاد الفرنجة (أوروبا في العصور الوسطى) . لذلك وجد أصحاب تلك الديانات وعلى رأسهم النصارى سنداً لهم لربما ساعدهم في إثارة الفتن ، ولكن خابت ظنونهم فيما بعد ؛ إذ وجدوا أن هذا الغازي قد قام باضطهادهم بصورة موازية ومتساوية مع اضطهاد أبناء المسلمين .

ونلاحظ ونحن نقرأ عدة أبيات شعرية لجملة من الشعراء في ذلك العصر ، أن أهل الذمة وأصحاب الديانات الأخرى قد اتفقوا واتحدوا مع أبناء الطوائف الخارجة عن أهل السنة ، وكان المحرك لهم مجموعة من القساوسة والرهبان . ونتيجة لهذه الخلافات انتشرت الأوهام والبدع ، وكثرت المنازعات ، وتعرض المذهب السني لمكائد عظيمة ، وكان للمتطرفين من الشيعة والزنادقة والروافض والرهبان اليد الطولى في التدبير لهذه المكائد ، والعمل على ضعضعة الإسلام[1] .

بالغ الشعراء في إتهام ولوم المخالفين من أبناء المذاهب والديانات الأخرى ، في هجائهم وإلقاء اللوم عليهم ، فنجد أن بعض الشعراء قد تناول حادثة من الحوادث التي فيها إدانة لبعض اليهود والنصارى ، فمثلاً وجود بعض النصارى في اتفاق ومراسلات مع بعض قادة الفرنجة أو الصليبيين، وكانت هذه قد جرَّت على أبناء الطوائف اليهودية أو النصرانية لوماً كبيراً لم ينته طوال فترة العهد المملوكي . وقد استعان هؤلاء الشعراء بالكثير من الفتاوى التي اشتهرت على الألسنة في ذلك الوقت ، كما أنهم أوغلوا في استعارة المجاز والتشبيه ، وبالذات ما ورد في سور قرآنية من ممارسات مشينة ، وحوادث تدل على الكفر وسوء المعتقد من بني إسرائيل مع أنبيائهم، والنصارى في انحراف عقائدهم وتبعيتهم لأصحاب الديانة اليهودية .

---

(١) ينظر : عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي ، ٣/٦٠٨-٦٠٩ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد بلغ التوجس والحذر والاتهام بين أبناء الفرق الإسلامية ، وأهل السنة إلى درجة إلقاء اللوم والاتهام دونما تحقق ، فقد ورد في حوادث عام ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م احتراق المسجد النبوي ، بعد أن سقطت فتيلة من الفراش ، فتناول الشعراء هذه الواقعة ، واستغل بعضهم الحدث ليلقوا باللوم والذم على أصحاب المذاهب غير السنية ، وكانت هذه الحادثة من أهم الحوادث التي تدل على مدى التربص ، وكمون الخلاف والحيطة والحذر من الشيعة بجميع فرقها ، أو ما يطلق عليها بالروافض ، وقد حدثت قبل ذلك حوادث أخرى في أماكن عدة من أرجاء العالم العربي والإسلامي ، وأهمها سرقة الحجر الأسود على يدي مجموعة من أبناء الشيعة والروافض ، وقد حاولوا عدة محاولات بعد ذلك لإحراق الكثير من أماكن العبادة وتدميرها ، ولاسيما التي لها مكانة عند أهل السنة ، مما اضطرهم للرد بصورة خاطئة . من ذلك هجاء الشاعر ابن تولوا روافض المدينة ، ونعتهم بالسفه ، لذمهم الصحابة ، مما حرم عليهم الذهاب إلى الحرم بعد وقوع حادثة الإحراق[١] :

قـــلْ للروافـــضِ بالمدينـــةِ ما لكـــم يقتادُكـــم للـــــذمِ كـــــلُّ سفيـــهِ
مـــا أصبـــحَ الحَـــرمُ الشريـــفُ محرمـــاً إلا لذمِـــكـــمْ الصَّحابـــةَ فـــيـــهِ

وقد أكثر الشاعر صفي الدين الحلي من هجائه لأصحاب المذاهب المختلفة والحركات الهدامة ، وحين علم بمرض زنديق وضعفه ، اعتبر ضعفه في اليقين ، ولم يعده من الأحياء ، ورأى في موته عدلاً ، قال[٢] :

وقالـــوا : عنـــدَ عبـــدِ اللهِ ضُعـــفٌ فقلـــتُ : نعَـــمْ ولكـــنْ فـــي اليَقيـــنِ
فقالـــوا : مـــا يَعيـــشُ فقلـــتُ : عـــدلٌ كـــذا هـــوَ فـــي الحيـــاةِ بغيـــرِ سيـــنِ

ويهجو صفي الدين الحلي طائفة من الشيعة والروافض كانت موجودة في مصر قبل العهد الأيوبي والمملوكي ، وهم طائفة العبيدية ؛ الذين يدعون نسبهم إلى آل بيت النبي ، إلا أن أفعالهم كانت مغايرة لذلك ، ولم يكونوا كذلك وحدهم فحسب ، بل معظم حكام الدولة الفاطمية كانوا كذلك من أبعد الناس عن الحكم بروح الشريعة – وهذا يوجد فيه إجماع من علماء الإسلام والمؤرخين الذين أرخوا للدولة الفاطمية – فيقول فيهم[٣] :

ألا قـــــلْ لشـــــرِّ عبيـــــدِ الإلـــــهِ وطـــاغـــي قُـــريـــشَ وكـــذَّابِـــهـــا

---

(١) الحنبلي : شذرات الذهب ، ٤٥٥/٧ .
(٢) ديوان صفي الدين الحلي ، ٤٥٩ .
(٣) ينظر القصيدة كاملة في : الكتبي : فوات الوفيات ، ٢٤٢/٢-٢٤٣ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وباغـــي العبـــادِ وناعـــي العنـــادِ وهـــاجـــي الـــكـــرامِ ومُغتابِـــهـــا
أأنـــتَ تُـــفـــاخِـــرُ آلَ الـنَّـــبـــي وتجحَـدُهـــا فضـــلَ أحسابِـــهـــا
بِكُـــم بِأهـــلْ المصطفـــى أم بِهِـــمْ فَـــرَدَّ الـعُـــداةَ بـأوصابِـــهـــا[1]
أعنكُـــم نَفـــى الرِّجـــسَ أم عنهُـــم لطُـهـــرِ النُّفـــوسِ وألبابِـهـــا
أمـــا الرِّجـــسُ والخمـــرُ مـــنْ دأبِكـم وفـــرطُ العبـــادَةِ مـــنْ دأبِـهـــا
وقلتـــمْ ورِثْنـــا ثيـــابَ النَّبـــي فـــكـــمْ تجذبـــونَ بأهـدابِـــهـــا
وعـــنـــدكَ لا تُـــورِثُ الأنبيـــاءُ فكيـــفَ حَظيتُـــمْ بأثـــوابِـــهـــا

ويتخذ صفي الدين الحلي من مقولة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن أفعال المرء تنبىء عن أصله ، مجالاً يهجو فيها مدعياً بأنه من سلالة حيدر ، وفعله لا يثبت قوله ، فيحاججه بقوله[2] :

قـــالَ النبـــيُ مقـــالَ صِـدقٍ لـمْ يـــزلْ يجـــري علـــى الأسمـــاعِ والأفْـــواهِ
مَـــنْ غـــابَ عنكـــمْ أصلُـــهُ فَفِعالـــهْ تُنْبِئُكـــمُ عَـــنْ أصْلِـــهِ المُتناهـــي
وسَفَـــرَتْ عـــنْ أفعـــالِ ســـوءٍ أصبحـــتْ بيـــنَ الأنـــامِ قليلـــةَ الأشْبـــاهِ
وتقـــولُ إنَّـــكَ مِـــنْ سُلالـــةِ حَيـدرٍ أفأنـــتَ أصـــدقُ أمْ رســـولُ اللهِ

ويسخر ابن دانيال من رجل يدعى البقي[3] لتطاوله على الشريعة ، فيهجوه متخذاً من اسمه مدعاة للسخرية[4] :

لا تَلُـــمِ البَقِّـــي فـــي فِعلـــهِ إنْ زاغَ تـضـلـيـلاً عـــنِ الـحـــقِّ
لو هـــذَّبَ المنامُـــوسُ أخْـــلاقَـــهُ مـــا كـــانَ مَنسوبـــاً إلـــى البَـقِّ

وينتقد إبراهيم المعمار طائفة من الطوائف الصوفية ؛ لادعائها النسك رياءً ونفاقاً وهي من أكثر عباد الله حباً للدنيا ، فيوصمهم الشاعر بأن لديهم الاستعداد لشهادة الزور في سبيل الحصول على عرض قليل من الدنيا ، ويبدو أن هذه الطائفة مكشوفة في المجتمع ، حيث يظهرها الشاعر بقوله[5] :

---

(١) أوصاب : مفردها وصب ، وهي الوجع أو المرض . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (وصب) .
(٢) ديوان صفي الدين الحلي ، ٤٥٤-٤٥٥ .
(٣) هو أحمد بن محمد ، فتح الدين ابن البقي ، كان يستخف بالشرع وبالقرآن ، فضرب القاضي عنقه في سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م . ينظر : الكتبي : فوات الوفيات ، ١٥٢/١ .
(٤) الكتبي : فوات الوفيات ، ١٥٣/١ .
(٥) ابن حجة الحموي : خزانة الأدب ، ١٨٦/٢ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فُـــــلانٌ والجماعـــــةُ عـــارِفـــــــوهُ وإنْ أبْـــــدى التَّنَسُّـــــكَ والـــزَهـــــادةْ
يَمـــوتُ علـــى الشَّهـــادةِ وهـــوَ حـــــي إلهـــــي لا تُمِتْـــــهُ علـــــى الشَّهـــــادةْ

ويهجو البهاء زهير ملحداً جاهلاً يدعى العلم والدين ، ويصفه بصفة الحيوان الذي كان يفهم لغته سليمان عليه السلام ، يقول[١] :

وجاهـــلٍ يدعـــــي فـــــي العلـــمِ فلسفـــةً قـــــدْ راحَ يكْفـــــرُ بالرَّحمـــــنِ تَقْليـــدا
وقـــــالَ أعْـــرِفُ مَعقـــولاً فَقلـــتُ لـــه عنَيـــــتَ نفســـكَ معقـــولاً ومعقـــودا
مِـــنْ أيـــنَ أنْـــتَ وهـــذا الشـــيءُ تذكُـــرُهُ أراكَ تَقـــرعُ بابـــــاً عنـــكَ مَســـدودا
فقـــالَ إنَّ كَلامـــي لَســـتَ تَفهَمُـــهُ فَقلـــتُ لَســـتُ سُليمـــانَ بـــنَ داودا

وأُلزم اليهود والنصارى بلباس خاص يميزهم عن أبناء المسلمين ، وعدم مساواتهم بالمسلم، فالعمامة لها شكل آخر لا يجوز أن تكون كعمامة المسلمين ، كما أنهم من كثرة التضييق عليهم، ألزمهم البعض بسلوك طرق أخرى غير الطرق التي يرتادها المسلمون . وقد دونت هذه الأحكام في مصنفات أفردت لهذا السبب ، مثل (أحكام أهل الذمة) للإمام ابن القيم الجوزية ، الذي كان في أواخر العهد المملوكي ، كذلك شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية ، قد أفرد مصنفاً خاصاً بعنوان (الجواب الصحيح لمن بدل بدين المسيح) . وقد تناول الشاعر علاء الدين الوداعي[٢] عمائم هؤلاء القوم بالسخرية حين أمر السلطان أن يلبس اليهود العمائم الصفر ، والنصارى الزرق ، والسامرة الحمر ، ويعتبر أن هذه العمائم ما هي إلا أحذية قديمة ، فيقول[٣] :

لقـــدْ أَلْزَمـــوا الكُفـــارَ شاشـــاتِ ذِلـــةٍ تزيدُهـــمْ مِـــنْ لعنـــةِ اللهِ تشويشـــا
فقلـــتُ لهـــمْ مـــا ألبسوكُـــمْ عَمائمـــاً ولكنهـــمْ قَـــدْ ألبسوكُـــمْ بَراطيشـــا

ومما قاله أحمد بن يوسف الطيبي[٤] في اليهود والنصارى عندما ألزم أهل الذمة بلبس العمائم

---

(١) ديوان البهاء زهير ، ٧٧ .

(٢) هو علاء الدين ، علي بن المظفر بن إبراهيم بن عمر الوداعيّ ، أديب بارع ، أخذ عنه ابن نباته ، ولد عام ٦٤٠هـ/١٢٤٢م ، له ديوان شعر في ثلاثة مجلدات ، توفي بدمشق عام٧١٦هـ/١٣١٦م . ينظر ترجمته في : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ١٦٧/٩ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ١١٠/٨ .

(٤) هو أحمد بن أبي المحاسن ، يعقوب ابن إبراهيم ابن أبي نصر الطيبي ، أبو العباس ، شمس الدين ، ولد عام ٦٤٩هـ/١٢٥١م ، وتوفي بطرابلس عام ٧١٧هـ/١٣١٧م ، وكان ناظماً جيداً للشعر . ينظر ترجمته في : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ١٧١/٩ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الملونة[١] :

لا تعجبـــوا للنصـــارى واليهـــودِ معـاً والسامريـيـــنَ لمَّـــا عُمِـمـــوا الخِرقـــا
كأنمـــا مـــاتَ بالأصبـــاغِ مُنسهـــلاً نِســـرُ السَّمـــاءِ فأضْحـــى فوقهـمْ دَرْقـا[٢]

إن من أهم المفارقات الموجودة في العقيدة الإسلامية ، أن صفات الله عز وجل مخالفة ومفارقة لصفات المخلوق ، والفيصل في ذلك قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْئٍ وَهُو السَّميعُ البَصيرُ ﴾[٣] . أما أبناء الطوائف الأخرى ، وعلى رأسهم اليهود فهم يقترفون أكبر الكبائر في تشبيههم الخالق عز وجل بخلقه ، ولم يقف الأمر عند حدود ذلك ، بل نقرأ في التوراة أن يعقوب قد صارع الرب وانتصر عليه ، وأن الرب يخاف من داوود ، إلى آخر تلك الاقترافات والمخالفات العقائدية . وقد كانت هذه الاقترافات من أهم مكامن الخلاف التي أدت بالشعراء لهجو اليهود بأقذع الألفاظ ، وليس عليهم جرم في ذلك ، فالجرم أكبر من المهجو والهجاء نفسه ؛ لارتباطه بتجسيد وتشبيه الذات الإلهية . يقول البوصيري في عقيدة اليهود والنصارى معاً[٤] :

ضـــلَّ النَّصـارى واليهـودُ فـــلا تكـــنْ بهـــمُ علـــى سُبُـــلِ الهُـدى مَدلـــولا
والمُدَّعُـــو التَثليـــثَ قـــومٌ سَوَّغُـــوا مـــا خالـــفَ المَنقـــولَ والمَعْقـــولا
والعابِـــدونَ العِجـلَ قـدْ فُتِنـــوا بـــهِ ودُّوا اتِّخـــاذَ المرْسليـــنَ عُجـــولا
فـــإذا أتـــتْ بُشـــرى إليهـــمْ كَذَّبـــوا بِهـــوى النُّفـــوسِ وقُتِّلـــوا تَقتيـــلا
وكفـــى اليهـــودَ بأنهـــم قـــدْ مَثَّلـــوا معبودَهـــم بعبـــادِهِ تَمْثيـــلا
وبـــأنَّ إسرائيـــلَ صـــارعَ رَبَّـــهُ ورمـــى بـــهِ شُكـــراً لإسرائيـــلا
وبأنهـــمْ رحلـــوا فـــي قُبَّـــةٍ إذْ أزْمَعـــوا نحـــوَ الشـــامِ رَحيـــلا

وانطلاقاً من قول الله تعالى : ﴿ ولا يَجْرِمَنَكُمْ شَنْآنِ قَومٍ عَلى أَلا تَعْدِلوا ، اعْدِلوا هُو أَقْرَبُ لِلْتَقْوى﴾[٥] ، يعقد البوصيري مقارنة بين أخلاق قاض مسلم وآخر نصراني ، فيهجو القاضي تاج الدين المسلم لأنه على عكس الراهب الحبيش الكثير البذل للفقراء ، فعلى رغم أن النصارى يؤمنون بأن الله ثالث ثلاثة ، الأب والابن وروح القدس ؛ إلا أن هذا القاضي تميز بصفة الكرم

---

(١) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ٣٤٣/١ .
(٢) درقاً : ترساً واقياً مصنوعاً من الجلد . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (درق) .
(٣) سورة الشورى : آية ١١ .
(٤) ديوان البوصيري ، ١٢١ .
(٥) سورة المائدة : آية ٨ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إضافة إلى سوء اعتقاده ، ولكنه أظهر لنا صورة مفارقة للقاضي المسلم الذي ازداد سوءاً عن النصارى ببخله فزاد عن التثليث بالتربيع . وهذا يدل على سماحة المذهب الإسلامي ، الذي لا يتعصب لمذهب على مذهب إلا بالحق ، كما نرى في قول الشاعر[١] :

انظرْ إلى هذهِ الدنيا تجدُ عجباً ... للهِ في كلِّ مَرئيٍّ ومسموعِ
تاهَ النصارى علينا بالحبيشِ وقدْ ... أباحَهمْ مِنهُ خيراً غيرَ ممنوعِ
فالجودُ أسعدَ بالتثليثِ صاحِبَهم ... والبخلُ أنْحسَ قاضينا بتربيعِ

ويبدو أنه كان هناك بعض الظواهر التي تنم عن الشذوذ في أبناء الطوائف الاخرى ، فنرى ابن دانيال يهجو قسيساً لأنه خاف على ولده من صحبته له ، وقد كان جميل الصورة ، فيقول في ذلك[٢] :

قلتُ للقسيسِ يوماً ... والورى تفهمُ قصدي
ما الذي أنكرتَ من نجـ ... ـلِكَ إذ أخلصتَ ودِّي
خِفتَ أن يُسلِمَ عندي ... هو ما يَسْلَمُ عِندي

ويهجو البهاء زهير أناساً على مذهب قوم لوط ، ويذمهم بمذهبهم السيء ، فأفعالهم أفعال قوم لوط ، وكأنهم بقية من قوم لوط ، فإن لم يكونوا منهم ، فهم غير بعيدين عنهم[٣] :

أيا مَعشرَ الأصْحابِ ما لي أراكُمُ ... على مَذهبٍ واللهِ غَيرِ حَميدِ
فَهلْ أنتُمُ مِنْ قومِ لوطٍ بَقيةٌ ... فما منكُمُ مِنْ فِعلِهِ برشيدِ
فَإنْ لمْ تكونوا قومَ لوطٍ بعينهمْ ... فما قومُ لوطٍ منكُمُ ببعيدِ

ولا يمكننا إنكار العنصر الديني في حروب الفرنج والصليبيين ؛ التي اعتمدت في حروبها ومجيئها للعالم العربي والإسلامي على المقولة الدينية ؛ لإثارة الدافع الديني ، وذلك من خلال تحريض الكنيسة الكاثولوكية وعلى رأسها البابا أوربان والبطرس الناسك ، حيث صرح في خطاب له بأن هذه الحملات (الصليبية) تهدف إلى تحرير البلاد المقدسة من براثن الكفار (على حد زعمهم) بواساطة جنود المسيح الذين باركتهم الكنيسة المقدسة . وهكذا زحف الصليبيون نحو البلاد المقدسة تحت شعار (إرادة الله) ، إلا أن هذه الحركة اصطدمت بسور منيع لم تستطع من

---

(١) ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ/١٤٤٩م) : رفع الإصر عن قضاة مصر ، تحقيق علي محمد عمر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ٢٦٣/١ .

(٢) الحنبلي : شذرات الذهب ، ٥٠/٨ .

(٣) ديوان البهاء زهير ، ٧٠ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

خلاله تنفيذ مآربها المزعومة[1] . وقد أدرك الشعراء المماليك كابن الوردي وغيره تلك الأخطار التي أطبقت على العالم العربي والإسلامي ، وكانوا قد عاصروا تلك الحروب . وتنم أشعارهم عن مدى عمق الانتماء لبني دينهم وبني قومهم ، وفي الوقت نفسه مقتهم الشديد للفرنج الغزاة ، فنراه (ابن الوردي) يهجوهم لريح شديدة وقعت في حلب فاقتلعت الكثير من الأشجار ، وأغرقت مراكبهم التي كانت تستعد للهجوم واحتلال سواحل بلاد المسلمين ؛ لإدراكهم أهمية السواحل والثغور ومحاولة السيطرة على جيوش المسلمين التي كانت تقف لهم بالمرصاد ، فيقول هاجياً لهم ، وشامتاً فيهم[2] :

قُـــلْ للفرنـــجِ تأدبـــوا وتَجنبـــوا فالريـــحُ جُـــنـــدُ نبينـــا إجْماعـــا

إنْ قَلعـــتْ فـــي البـــرِّ أشجـــاراً فكـــمْ فـي البحـــرِ يومـــاً شَجَّـــرَتْ أقْـــلاعـــا

كشفت النماذج السابقة عن الوعي الديني لدى الشعراء في العصر المملوكي ، ووجهوا أسلحتهم في الهجاء لكل من حاول العبث بهذا الدين أو التطاول عليه ، كما كشفت النماذج عن سماحة الإسلام ، وقبول المسلمين بعيش غيرهم في كنفهم ، ووقفهم ضد من تعرض منهم للآخر، كما تصدوا بقوة وشجاعة لأبناء جلدتهم من المسلمين ، حين صدر منهم ما يخالف الشريعة والآداب الإسلامية .

---

(١) ينظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية صفحة مشرقة من تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى ، ط ١ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٣م ، ١٩/١-٢٢ . وينظر : فايد حمد محمد عاشور : حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبين في العهد الأيوبي ، ط ١ ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٧٧م ، ١١٥ .

(٢) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، ٣٣٨/٢ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبحث الرابع : النقد الاجتماعي :

كان الشعر تعبيراً عن المجتمع في جميع عصوره ، منذ العصر الجاهلي حيث وجود نظام القبيلة ، وحضور الشعر في خدمة مجتمعه الصغير ، حتى العصور التالية له ، وبقاء الصلة الاجتماعية بين الشعر والمجتمع . وكما أظهرت نماذج شعرية عديدة لشعراء العصور السابقة للعصر الملوكي موقف الشعراء تجاه مجتمعهم ، كذلك عبر الشاعر في العصر المملوكي من خلال نقده للمجتمع عن حياة هذا المجتمع في ظل العصر الذي يحياه ؛ حيث قام الشعراء بنقد سلبيات المجتمع ، وبيان علة الفساد وجوانبه والسبيل إلى الإصلاح[١] .

وأهم ما يميز الهجاء عن النقد الاجتماعي هو أن الهجاء دافعه شخصي ، والنقد الاجتماعي دافعه المصلحة العامة[٢] .

ومن خلال الوظيفة السابقة للنقد الاجتماعي نرى أن أشعار الشعراء حملت في معظمها صوراً اجتماعية متعددة الجوانب . ويجد محمود رزق سليم في ظاهرة النقد الاجتماعي وبروزها في العصر المملوكي ، حجة للرد على من يدعي خمول الأدب في ذلك العصر ، فيقول : " بروز هذا الفن في عصر المماليك ظاهرة أدبية بالغة الأهمية ؛ لأنها نادرة الحدوث في تاريخ الأدب العربي ، ولعلها تقنع بعض الناس ، بأنها دليل يقظة فكرية ، وجرأة نفسية لدى شعرائه . ودليل على ارتباط مشاعرهم بمشاعر مجتمعهم ، فكانوا ألسناً له ، وتراجم عنه "[٣] .

لم يترك الشعراء في العصر المملوكي مثلبة من المثالب التي وجدت في عصرهم إلا تناولوها بالنقد ، محاولين تغيير الحال ، أو التعبير عن الاستهجان والغضب لذلك ، وموقفهم منه، حتى وإن صدرت هذه الأفعال الخاطئة عن أصدقائهم أو أقاربهم ، وقد يصل بهم الضجر من سوء الأخلاق ، إلى هجاء الزمن بكل ما فيه ، مصوبين تجاهه أنواعاً جمة من الأسلحة الناقدة .

عبر الشاعر ناصر الدين ابن الفقيسي عن رفضه للأفعال القبيحة في مجتمعه ، بانتقاده لأناس لا يردعها رادع عن ترك فعل القبيح ، وهذا يدل على محاولة الشعراء رد المفاسد في المجتمع بالنهي عنها قدر المستطاع[٤] :

---

(١) ينظر : محمود رزق سليم : موسوعة عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، الجزء الرابع ، المجلد ٢٣٣/٨ .

(٢) ينظر : نبيل خالد أبو علي : البوصيري شاهد على العصر المملوكي ، ص ٤٣ .

(٣) محمود رزق سليم : موسوعة عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، الجزء الرابع ، المجلد ٢٣٣/٨ .

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ٣١٧/٧ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نهيناهُ عنْ فعلِ القبيحِ فما انتهى ولا ردَّهُ ردعٌ وعادَ وعادى
وقلنا لهُ دِنْ بالصلاحِ فقَلّما رأينا فَتىً عانى الفَسادَ فَسادا

وينتقد السراج الوراق ظاهرة البخل وعدم البشاشة في وجه الضيف ، فيقول[١] :

وقَطَّبَ عِندَ دُخولي إليهِ وتمَ لهُ القبحُ معنىً وصورةْ
ولولا الضَّرورةَ ما زرتُهُ على الرغْمِ مِني وعِنْدَ الضَّرورةْ

ويوجه الشاعر نقده لقوم من الناس ، موضحاً صورتهم حال غناهم وحال فقرهم ، وينبه الآخرين إلى أن بقاء هؤلاء القوم مفلسين فيه إصلاح لأمر المجتمع ، فيقول فيهم ابن الفقيسي[٢] :

في الناس قوم إذا ما أيسروا بَطِروا فأصلحُ الأمرِ أنْ يبقوا مفاليسا
لا نسألَ اللهُ إلا في خمولِهمُ فهمْ جيادٌ إذا كانوا مناحيسا

ويحذر السراج الوراق من بعض السادة الذين لا يتصفون بمكارم الأخلاق ، فيقول[٣] :

لا تطمعنَّ براحةٍ منْ معشرٍ سادوا بغيرِ مآثرِ الساداتِ
قُطعتْ عنِ المعروفِ أيديهمْ وقدْ سرقوا العُلا فَخَلتْ منَ الراحاتِ

ويبدو أن ابن دقيق العيد قد يئس من الناس ، فيهجو الفاسدين القساة ، بنقد لاذع ، وهجاء جارح ، نستطيع من خلاله استنباط مدى الألم والقهر الذي يكمن داخل الشاعر ، وموقفه من أبناء مجتمعه بما فيه من المظاهر المنبوذة ، فيقول[٤] :

قدْ جَرَحتنا يدُ أيامِنا وليسَ غيرُ اللهِ منْ آسي
فلا تَرْجُ الخَلقَ في حاجةٍ ليسوا بأهلٍ لسوى الياسِ
ولا تَزدْ شكوى إليهمْ فلا معنىً لشكواكَ إلى قاسي
وإنْ تخالطْ منهمُ مَعشراً هَويتَ في الدينِ على الراسِ
يأكلُ بَعضهمُ لَحمَ بعضٍ ولا يخافُ في الغيبةِ منْ ناسِ
لا ورعٌ في الدِّينِ يَحميهمْ عنها ولا شمةَ جَلَّاسي[٥]
فاهْرُبْ منَ الناسِ إلى ربِّهمْ لا خيرَ في الخُلطةِ بِالناسِ

---

(١) شمس الدين محمد النواجي : الشفاء في بديع الاكتفاء ، ٨٢/٢ .
(٢) الحنبلي : شذرات الذهب ، ٧٠١/٧ . وابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ٨٣/٥ .
(٣) ابن حجة الحموي : خزانة الأدب ، ٥٣/٢ .
(٤) الكتبي : فوات الوفيات ، ٤٤٧/٣ .
(٥) شمة جلاسي : اقتراب الأشداء . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (جلس) .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولم يقف هجاء الشعراء عند الناس العاديين ، بل تعدوهم إلى الأقارب والأحباب ، حين وجدوا منهم ما يدعوهم للنقد . من ذلك هجاء سيف الدين السامري خاله وخال أبيه ، لطباعهم المذمومة، فيقول[١] :

إذا قيـــلَ مـــنْ بالكـــرخِ نـــذلٌ لئيـــمُ الأصـــلِ مذمـــومُ الفِعـــالِ
أجبتهـــمُ إجـــابـــةَ لوذعـــيٍّ همـــا النَّـــذلانِ خـــالُ أبـــي وخالـــي

وشمس الدين الطيبي يهجو أقاربه لظلمهم له ، وظلم ذوي القربى سكين تطعن في الظهر ،هاجياً، فيقول لهم[٢] :

مـــا مَسَّنِـــي الضَّيـــمُ إلا مِـــنْ أَحِبائـــي فَليتنـــي كنـــت قَـــدْ صاحَبْـــتُ أَعْدائـــي
ظَنَنتهُـــمْ لـــي دواءَ الهَـــمِّ فانْقَلبـــوا داءً يزيـــدُ بهـــمْ هَمِّـــي وإدْوائـــي
مَـــنْ كـــانَ يَشكُـــو مِـــنَ الأعْـدَاءِ جَفْوتَهُـمْ فإنَّـــي أنـــا شـــاكٍ مِـــنْ أودائـــي

وحتى المحبوبة كان لها نصيب من الهجاء ، عندما تتصف بالصفات القبيحة التي نبذها المجتمع كالخيانة ، والغدر ، والهجر ، فها هو البوصيري يهجو من يخون ، وإن كان يهواه ، ويرى أن هذا العيب فيه يطغي على جماله ليصبح كالميت ، نحزن لفراقه ولا نتمنى قربه[٣] :

إذا خـان مـن أهـوى طـوى سببَ الهوى وغطـتْ يـدُ التقبيـحِ عنـي جَمالَـهُ
وصـارِ كمثـلِ الميْـتِ يأسـى لفقـدهِ فـؤادي ويأبـى قربَـهُ ووصالَـهُ

وتناول ابن نباته صفة قبيحة أخرى في المحبوبة ، كانت سبباً في هجائه لها ، وهي الخيانة[٤] :

يا غـادراً بـي ولـم أغـدر بصحبتـه وكـانَ منـي محـلَ السَّمعِ والبصـرِ
قـدْ كنـتُ مـنْ قلبـكِ القاسـي إخـالُ جفـاً فجـاءَ مـا خِلتـهُ نقشـاً علـى حجـرِ

أما الشاعر الشاب الظريف فاستخدم صفات الهجر وعدم حفظ الأسرار لتكون محطاً للهجاء ، فهو ينتقد ما ينتج عن ذلك من شر ، فيهجو محبوبته بعد أن يئس من خيرها ، ويدعو الله أن يكف شرها عنه ، فيقول فيها[٥] :

---

(١) الكتبي : فوات الوفيات ، ١٣٦/١ .
(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ١٧١/٩ .
(٣) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ٩٢/٣ .
(٤) ديوان ابن نباته ، ٨ .
(٥) ديوان الشاب الظريف (ت٦٨٨هـ/١٢٨٩م) ، طبع بنفقة لطف الله الزهار ، المطبعة الأدبية ، بيروت ، ١٨٨٥م، ٣٥ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أيـــهـــا الـــهـــاجـــرُ حـــدثـــ نـــي مـــا أوجـــبَ هـــجـــركْ
مـــا الـــذي لـــو جُـــدْتَ بـــالـــ وصـــلِ حبـيـبـــي كـــانَ ضـــركْ
أيـــهـــا الـــصـــابـــرُ عـــنـــي ليتنـــي أُعـطـــيـــتُ صـــبـــركْ
أيـــهـــا الـــجـــاهـــلُ قـــدري أنـــا لا أجـــهـــلَ قـــدركْ
أيـــهـــا الـــشـــاغـــلُ أســـ رارِي مـــا أفـــرغَ سِـــركْ
يـــا مُحَـــيَّـــاهُ أنـــارَ الـــ لـــهُ فـــي العالـــمِ بـــدركْ
قـــدْ يئسنـــا منـــكَ خـــيـــراً فـــكـــفـــانـــا اللهُ شـــركْ

ويواصل الشعراء النقد بلون آخر ، مسلطين الضوء على من يدعي الشعر وما هو بشاعر ، ومنهم مجد الدين ابن الخياط[1] ، فيهجو أناساً يعدون أنفسهم شعراء ، ظانين أن الشعر ما هو إلا وزن وقافية ، ونسوا العاطفة والخيال ، فأقل ما يهجوهم الشاعر به ، بأن شعرهم ضرب من الجنون ، فيقول[2] :

وفـــي مُتَشاعِـــري عَصْـــري أُنـــاسٌ أقـــلُّ صِفـــاتِ شِعرِهـــم الجنـــونُ
يظنُّـــون القريـــضَ قـــيـــامَ وزنٍ وقافيـــةً ومـــا شـــاءتْ تكـــونُ

ويثبت الشاعر السراج الوراق من خلال أبياته ما عرف عن العصر المملوكي عند البعض ؛ بأن الشعر فيه لم ينل حظه ، ولم يجد القبول الكبير من المجتمع مقارنة بالعصور السابقة ، فيهجو من يستهين بالشعر والشعراء ، ولا يقدرونهم ، لدرجة أنهم لو استطاعوا لمحوا كل ما يمت إلى الشعر بصلة ، ولو كانت آية الشعراء ، فيقول[3] :

رفضـــوا الشِّعـــرَ جُهدَهُـــمْ ورَمَـــوهُ بينهـــمْ بالهـــوانِ والازدراءِ
فلـــو إنَّ الكِتـــابَ كـــانَ بِأيديهـــمْ مَحـــوا مِنـــهُ آيَـــةَ الشُّعـــراءِ

---

(١) هو أحمد بن الحسن بن محمد ، مجد أومجير الدين ابن الخياط ، كان يشتغل بالخياطة ، وهو شاعر وله ديوان في عدة مجلدات ، مات في دمشق عام ٧٣٥هـ/١٣٣٥م . ينظر ترجمته في : الصفدي : أعيان العصر ، ٢١١/١-٢١٢ .

(٢) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ١٢٣/١ .

(٣) ابن حجة الحموي : خزانة الأدب ، ٥٣/٢ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولم يترك الشعراء الأموات ، فمن كانت أفعاله في حياته سيئة ، تتبعه الشعراء بالنقد والهجاء حتى بعد مماته ، من ذلك هجاء ابن الوردي عبداً أسودَ خصياً كان يتعرض إلى أولاد الناس ؛ لما كان يتصف به من فساد وأذى في حياته ، فيقول فيه[١] :

يُعجِبُني وفاةَ مَنْ ... فِيهِ فَسادٌ وأذى
لا حبذا حياتُهُ ... وإنْ يمتْ فَحبَذا

كذلك صفي الدين الحلي يهجو ميتاً التف الناس حوله شماتة به لا رحمة بموته ، فيقول[٢] :

سرى نعشُهُ مِنْ بعدِ ما سارَ نَعشُهُ ... فأفنى بهِ الأحياءَ حالَ بقائِهِ
وطالَ ازدحامُ النَّاسِ مِن حولِ نعشِهِ ... شَماتاً بهِ لا رَحمةً لِثوائِه
فلا رَحِمَ الرَّحمنُ مَنْ فوقَ تحتِه ... ولا مَنْ غَدا يَسري أمامَ ورائِهِ
ونَوَّرَ مَنْ كِفلٍ مِن النَّارِ قبرَه ... وآنَسَهُ بالرُّعبِ عندَ لقائِهِ

ومما عانى منه المجتمع في العصر المملوكي مرض الطاعون ؛ الذي قضى على الكثير من الناس ، فكان لابد للشعراء أن يتناولوا هذا المرض القاتل بالنقد . وفي هذا المرض يقول ابن الوردي[٣] :

أيُها الطاعُونُ إنَّ حَماةَ مِنْ ... خيرِ البلادِ ومِنْ أعزِ حُصُونِها
لا كنْتَ حينَ شَممتَها فَسمَمْتَها ... ولَثَمْتَ فاهاً آخِذاً بِقُرونِها

وكذلك الشهاب المنصوري يمدح مصر ويهجو الطاعون لمَّا حل بها وتزايد ، فيقول[٤] :

يا نِعْمَ عِيشةَ مِصرَ ... وبِئسَ ما قَدْ دَهاها
لمَّا فَشا الطاعُونُ فيها ... حاكى السِّهامَ وبَاها

ومن المساوئ التي انتقدها الشعراء ، استخدام الأتراك بعض الألفاظ التركية حين يتحدثون إلى العرب ، مما يظهر سوء المعاملة ، ومن ذلك أبيات يهجو فيها الجزار الأتراك بسخرية ، ويوضح فيها سوء معاملتهم له ، كقوله[٥] :

---

(١) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، ٢٩٧/٢ .
(٢) ديوان صفي الدين الحلي ، ٤٥٤ .
(٣) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، ٣٣٩/٢ .
(٤) محمد بن أحمد بن إياس (ت٩٣٠هـ/١٥٢٤م) : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ط ١ ، المطبعة الكبرى والأميرية ، بولاق ، ١٧٩٦م ، ١٠٧/٢ .
(٥) الكتبي : فوات الوفيات ، ٢٩٠/٤ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكَـــــمْ قابلـــــتُ تُركيـــــاً بمدْحـــــي فكـــاد لمـــا أُحـــاوِلُ مِنْـــــهُ يَحنُـــــقُ
ويلطُمَنـــــي إذا مـــــا قُلـــــتُ "أَلطُـــنْ" ويرمُقَنـــــي إذا مـــــا قُلـــــتُ "بَرمُـــــق"
وتسقُـــــطُ حُرْمَتـــــي أبـــــداً لَدَيـــــهِ فلـــــو أنِّـــــي عَطِشْـــــتُ لقـــالَ "بَشمُـقُ"

وما أورده الشعراء من أبيات في الحشيش وآكليها ، وتبين ما بها من مساوئ ولوم آكليها، قول فتح الدين البققي[١] :

لحـــــا اللهُ الحشيـــــشَ وآكلِيهـــــا لقـــــدْ خَبُثَـــــتْ كمـــــا طـــابَ السـلافُ
كمـــــا تُصبـــــي كـــــذا تُضنـــي وتُشقـــي لآكِلِهـــــا وغايَتُـــهـــــا انحـــــرافُ
وأصغـــــرُ دائِهـــــا والـــــداءُ جَـــــمٌّ بَـغـــــاءٌ أو جُـنـــــونٌ أو نُـشـــــافُ[٢]

ويوضح ابن العفيف التلمساني مساوئ الحشيش ؛ التي تظهر على ملامح جسم الإنسان في وجهه وفمه وعينه وكبده ، فيقول[٣] :

مـــــا للحشيشـــــةِ فضـــــلٌ عنـدَ آكلِهـــا لكنَّـــــهُ غيـــــرُ مصـــــروفٍ إلـــــى رُشـــدِهْ
صفـــــراءُ فـــي وجهِـــهِ خضـــراءُ فـــي فمِـــهِ حمـــــراءُ فـــي عينِـــهِ ســـــوداءُ فـــي كبـــدِهْ

كشفت النماذج الشعرية التي وردت في النقد الاجتماعي عن عدة مظاهر نفر منها الناس، وحاولوا العمل على القضاء عليها ، بالتنبيه إليها ، وبيان خطرها في المجتمع . ومن هذه الظواهر كان فعل القبيح ومحاولة الناس ردعه والنهي عنه ، وعدم إكرام الضيف ، كذلك ظاهرة النفاق ، وأيضاً تغير حال الناس إلى الأسوأ بعد غناهم ، ولؤم الأقارب وظلمهم ونذالتهم وعدم حمايتهم لبعض ، وخيانة المحبوبة وغدرها وهجرها ، بالإضافة إلى التقليل من شأن الشعر والشعراء ، وسوء معاملة الأتراك للعرب ، وذم الحشيش . كل ذلك من أمور تتبعها الشعراء ، وأطلقوا ألسنتهم تجاهها .

لقد جال الشاعر في العصر المملوكي في مجتمعه ، وأمعن النظر فيمن حوله ، فقاده ذلك إلى الوقوف على جوانب لم يستسغها ، ورفض أن يقف تجاهها صامتاً ، فقرر التعبير عنها وبيان مساوئها ، وصورتها المعيبة ، وتباينت الصورة التي استطاع الشعراء إيصالها إلى الناس ، كل بحسب مقدرته الشعرية ، وأساليبه الفنية ، ومع ذلك فقد أظهرت النماذج السابقة ، اتفاق الجميع في الدافع وراء هذا النقد الاجتماعي ، ألا وهو الإصلاح .

---

(١) الكتبي : فوات الوفيات ، ١٥٢/١ .
(٢) النشاف : ما نشف من الماء . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (نشف) .
(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ٣٢١/٧ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الثالث

الدراســـــة الفنيـــــة

المبحث الأول : اللغة والأسلوب

(تقانات اللغة – أنواع الأساليب)

المبحث الثاني : الموسيقا

(الموسيقا الداخلية – الموسيقا الخارجية)

المبحث الثالث : الصورة الشعرية

(مصادر الصورة – أنواع الصورة : جزئية – كلية)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبحث الأول : اللغة والأسلوب (تقانات اللغة – أنواع الأساليب) :

هناك عناصر محددة للنص الأدبي في الشعر ، منها ما يظهر من خلال اللغة والأسلوب ، وهي التي تعتمد على الأفكار والعبارات والعاطفة ، ومنها ما يظهر من خلال الموسيقا ، وهي التي تعتمد على الوزن والقافية ، وهناك العنصر الذي يعتمد على الصورة الشعرية[١] . وتتصف هذه العناصر بصفات ليصبح العمل الأدبي مكتملاً ، أهمها الوضوح والقوة والجمال[٢] .

ولكل عصر من عصور الأدب لغته وأسلوبه الشعري ، الذي يتميز بهما ؛ نظراً لاختلاف الزمن واختلاف الظروف والأحوال . كذلك تختلف اللغة الشعرية باختلاف أغراضها ، فالمدح يحتاج إلى لغة غير التي يحتاجها الهجاء . ففي حين يقوم المدح على اختيار الألفاظ الرقيقة ، يقوم الهجاء على اختيار الألفاظ القاسية ، إلا أن قوة اللغة وجزالتها ووضوحها مطلوبة في جميع الأغراض الشعرية ، فقد " سئل بعض أهل الأدب : من أشعر الناس ؟ فقال : من أكرهك شعره على هجو ذويك ومدح أعاديك ، يريد الذي تستحسنه فتحفظ منه ما فيه عليك وصمة ، وخلاف للشهوة ، وهذا ذوب قول أبي الطيب[٣] :

وأسْمَعُ مِنْ ألفاظِهِ اللُغةَ الَّتي يَلَذُّ بِها سَمْعي ولو ضَمَّنَتْ شَتْمي"[٤]

وقد لجأ الشاعر في العصر المملوكي إلى اللغة التي تتناسب مع مقاييس الذوق الأدبي في العصر الذي يعيشه ؛ حيث أظهرت مدى السهولة في اختيار الألفاظ ، والبعد عن التكلف والتعقيد، مع ظهور روح الفكاهة التي تضمنتها أبياتهم . ويعبر ابن طباطبا عما يثاب عليه الشعراء بقوله : " والشعراء في عصرنا إنما يثابون على ما يستحسن من لطيف ما يوردونه من أشعارهم ، وبديع ما يغربونه من معانيهم ، وبليغ ما ينظمونه من ألفاظهم ، ومضحك ما يوردونه من نوادرهم ،

---

(١) ينظر : أحمد الشايب : الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية ، ط ٧ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦م ، ٥٢ .

(٢) ينظر : أحمد الشايب : الأسلوب ، ١٨٥ .

(٣) هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد ، أبو الطيب المتنبي ، اشتهر بشعر الحكمة عالم بالأدب ، ولد عام ٣٠٣هـ/٩١٥م بالكوفة ونشأ بالشام ، له ديوان شعر ، توفي عام ٣٥٤هـ/٩٦٥م . ينظر : الزركلي : الأعلام ، ١١٥/١ .

(٤) ابن القيرواني : العمدة في محاسن الشعر ، ١٢٢/١ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأنيق ما ينسجونه من وشي قولهم ، دون حقائق ما يشتمل عليه من المدح والهجاء وسائر الفنون التي يصرفون القول فيها "[١] .

وللشعراء ألفاظهم المعروفة ، فاعتمد شعراء العصر المملوكي في لغتهم على تقانات محددة في اختيارهم لأشعارهم الهجائية ، كالسهولة والإيجاز ، والمعجم الشعري الخاص بهم ، والإيحاءات اللفظية أو الصوتية التي تتناسب وغرض الهجاء ، وذلك تبعاً للموقف الذي يتعرضون له ، فقد أظهر الهجاؤون قدرة فائقة وبراعة لغوية في إيصال أفكارهم ، والتعبير عن معانيهم ، وبلوغ مقاصدهم بأبيات قليلة ؛ ليبلغ الشاعر مناه ويتم مراده من النظم ، دون أن يجد نفسه مضطراً إلى المزيد من الألفاظ .

ونجد في أبيات الهجاء عند البهاء زهير سهولة في الألفاظ حينما نظم هذه الأبيات على بحر المجتث ، الذي اجتث من بحر الخفيف ، كما في قوله[٢] :

وعـــائـــدٍ هُـــو سُـــقْـــمٌ لـــكـــلِّ جِـــســـمٍ صَـــحـــيـــحِ
لا بِـــالإشـــارةِ يَـــدْري ولا الكَـــلامِ الـــصَّـــريـــحِ
ولـــيـــسَ يـــخـــرجُ إلا تـــكـــادُ تـــخـــرجُ رُوحـــي

وقد عرف البهاء زهير بميله إلى السهولة والخفة في نظمه لأبياته ، وتجلى ذلك في اختياره في هجائه للألفاظ المعبرة الموجزة ، ولم تحمل أبياته تكراراً لا لزوم له ؛ بل حملت عبارات موحية انسيابية ، وقد يؤخذ على الشاعر ميله إلى العامية في ختمه للأبيات على رغم بدئها بالفصحى ، مما أبعدها عن الجمال ، وهناك من مدح وجود مثل هذه الأمثال في شعر البهاء زهير ، والتفت إلى المعنى الذي تحمله ، فيقول عبد اللطيف حمزة : " وقد كان الشعراء يتأبون دائماً أن ينزلوا بشعرهم إلى حيث يصطنعون أمثال هذه العبارات ، ولكن البهاء زهير كان فيه من خفة الروح ورحابة النفس ومرونة التعبير وصفة الشعبية أو الديموقراطية ما أعانه على الرقي بهذه التعبيرات البلدية إلى مرتبة الشعر "[٣] .

---

(١) محمد بن أحمد بن محمد ابن طباطبا (ت٣٢٢هـ/٩٣٤م) : عيار الشعر ، شرح وتحقيق عباس عبد الستار ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٩٨٢م ، ٥١ .

(٢) ديوان البهاء زهير ، ٥٧ .

(٣) عبد اللطيف حمزة : الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٠م ، ١٤٥ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن النماذج الشعرية على الإيجاز في اللغة قول الشاب الظريف في رجل بخيل[١] :

يـا جامـعَ المـالِ وهـوَ يمنعُـهُ عَـنْ راغـبٍ فـي نَوالِـهِ طامـعِ
أصْبَحـتَ فـي البُخـلِ قـدْ عُرفـتَ بِـهِ كأنَّـكَ الحـدُّ جامِـعٍ مانِـعِ

جمع الشاب الظريف في أبياته القليلة ، بين التركيز والإيجاز ، فركز على صفة البخل عند ذلك الشخص ، التي أصبح يعرف بها ويوصم بصفتها ، وأوجز في استخدامه للكلمات التي توحي بذلك ، فاستخدامه لجملة (أصبحت في البخل قد عرفت به) تدلل على عدة مشاهد للبخل يتصف بها هذا الشخص ، وقد عبر عنها الشاعر في لغة سهلة واضحة ، بعيدة عن التكلف والمبالغة ، وبأسلوب ساخر .

كذلك عبر الشعراء عن الهجاء بلغة سهلة فكهة ، مالت إلى البعد عن الألفاظ المستهجنة والغريبة . وذلك مما اشتمل عليه قول أبي حسين الجزار في رجل بخيل[٢] :

لا يَستطيـعُ يَـرى رَغيـفاً عِنْـدَهُ فـي البَيـتِ يُكسَـرُ
فلـو أنَّـهُ صَلَّـى وحـاهُ لقـالَ الـخُبْـزُ أكْبَـرُ

ويؤكد الكاتب شوقي الطيب قوة شعر الجزار وغيره من شعراء عصره على رغم استخدامهم لبعض الألفاظ العامية ، فيقول " وواضح ما في هذه الفكاهات من ميل الجزار إلى الأساليب العامية ؛ فهو يستعير منها بعض الألفاظ ، ولكنه على كل حال لم يسقط في شعره ، فقد استمر يعنى بأسلوبه ، وظل على هذا النمط السابق يخلط فيه بين ألوان التصنيع والتصنع كما هي عادة الشعراء في تلك العصور "[٣] .

وتأثر الشاعر بما شاع في عصره من ألفاظ ، فاستخدم في معجمه الشعري الألفاظ الأعجمية والدخيلة . فقد كان حكامه أعاجم ، كما كثر الوافدون إلى بلاد مصر والشام ، وبخاصة بعد انتشار العلم بهما وازدياد نفوذهما العلمي والحضاري . وقد وردت نماذج عديدة لشعر الهجاء استخدمت فيها الألفاظ الأعجمية والدخيلة ، ومن هذه النماذج قول البوصيري في هجائه لرجال الدولة[٤] :

أمولانـا الوزيـرَ غفلـتَ عمَّـا يُهِـمُّ مـنَ الكِـلابِ الخائِنينـا

---

(١) ديوان الشاب الظريف ، ٤٤-٤٥ .
(٢) شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ٥٠٦ .
(٣) شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ٥٠٦ .
(٤) تنظر القصيدة كاملة في : الكتبي : فوات الوفيات ، ٣٦٣/٣ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أتُطلـــــــــقُ جامِكيـــــاتٍ لقـــــــــومٍ وتُنفـــــقُ فـــــيءَ قـــــومٍ آخَرينـــــا[1]

فـــــلا تُهمـــــلْ أمـــــورَ المُلـــكِ حتَّـــى يَـــــــذِلَّ الجُنـــــــــدُ للمُتَعمِينـــــا

فكلمة (جامكيات) هي كلمة غير عربية ، وظفها الشاعر في أبياته لتداولها بين الناس ، ولدلالتها المعروفة في مجتمع العصر المملوكي ، حيث كانت تستعمل في المعاشات ، وجاء بها الشاعر للتعبير عن معاني البؤس والظلم الواقع على هؤلاء القوم من أبناء شعبه .

كما تجلى في أشعار الهجاء خروج عن قواعد اللغة ، كصرف الممنوع ، وقصر الممدود ، وتخفيف الهمزة ، ومن تلك الأشعار التي ورد فيها ذلك ، ما نظمه ابن الوردي في هجائه لرجل أعور ، صارفاً في كلماته الممنوع من الصرف ، كقوله[2] :

لا تَـــصْـــحَـــبَـــنَّ أعْـــــورا وإنْ تَـــنـــاهـــى زِيـــنُـــهُ

لـــــو كـــــانَ فِـــيـــهِ راحـــــــةٌ مـــا فـــارقَـــتْـــهُ عَـــيـــنُـــهُ

فكلمة (أعور) هي كلمة ممنوعة من الصرف ، صرفها الشاعر مخالفاً القاعدة اللغوية في ذلك .

ومن الخروج على قواعد اللغة قصر الممدود ، كما نجده عند صدر الدين بن عبد الحق في قوله يهجو حمَّاماً[3] :

جَهنـــــمٌ حمَّامُكُـــــمْ نارُهـــــا يَقطـــــعُ أكبادَنـــــا بِالظَّمـــــا

وفيهـــــا عُصـــــاةٌ لهـــمْ ضَجَّـــــةٌ وإنْ يَستغيثـــوا يُغاثـــــوا بِمـــــا

خرج الشاعر في أبياته السابقة على قاعدتين من قواعد اللغة العربية ، وهي تركه للهمزة في كلمة (الظمأ) ، وقصره للممدود في كلمة (ماء) . وهذا لا يعني أن الشاعر المملوكي يجهل تلك القواعد المعروفة في اللغة ؛ ولكن ذلك محاولة منه للتعبير عن غرضه من الهجاء بأسلوب سهل بسيط ، فالهمزة من مخارج الحروف الحلقية صعبة النطق ، والشاعر يرسل أبياته إلى أناس يعرفون مساوئ هذا الحمَّام وما يكابده فيه الشخص من معاناة ، بكلمات سهلة الحفظ والتناقل ، فجاءت الألفاظ متوافقة مع الحالة الشعورية التي يعبر عنها الشاعر ، وهي المعاناة الشديدة ؛ لذا اختار كلماته من معجم مأساوي ، مثل (جهنم حمامكم ، يقطع أكبادنا) .

---

(١) جامكيات : كلمة فارسية معناها معاشات . نبيل خالد أبوعلي : البوصيري شاهد على العصر المملوكي ، ٤٧ .

(٢) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ، ٤١٩/١٦ .

(٣) شمس الدين النواجي : الشفاء في بديع الاكتفاء ، ٧٥ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كذلك أظهرت لغة الشاعر إيحاءات لفظية وصوتية للدلالة على المعاني التي يصبو إليها ، ويسعى إلى إيصالها ، ومن أصدق أدلتنا على ذلك قول صلاح الدين الصفدي فيمن قرر له أربعة دراهم[١] :

كلَّ يومٍ رتَبوا أربعةَ لكَ فازْدَدتَ عَلينا صَعصعةْ[٢]

فَلو اسْتُفْتِيتُ في سَيِّدِنا قُلتُ يستاهلُ قَطعَ الأربعةْ

استخدم الشاعر إيحاءات لفظية ، تمثلت في قوله (استفتيت ، يستاهل) ، فهي توحي بالإجماع على الحكم ، والشماتة بالمهجو بعد إصدار هذا الحكم ، . كما استخدم الإيحاءات في المعاني ، والتي تمثلت في لجوئه إلى التورية في قوله (أربعة) ، فهي تعني الأيدي والأرجل ، ولا يقال ذوات الأربع إلا للدواب . وهذا فيه تحقير للشخص المراد هجاؤه ، تناولها الشاعر بكلمات بسيطة.

كما عبر الشاعر عن إيحاءات أخرى حين وظف الاكتفاء في أبياته ، ويقصد به " أن يأتي الشاعر ببيت من الشعر وقافيته متعلقة بمحذوف ، فلم يفتقر إلى ذكر المحذوف لدلالة باقي لفظ البيت عليه ، ويكتفي بما هو معلوم في الذهن فيما يقتضي تمام المعنى ... "[٣] .

ومن الاكتفاء قول التلعفري في هجائه للمحبوبة لما فعلته به من وجد وألم[٤] :

إنْ كانَ يُرضيكمْ بأنْ أبْقى كَذا رهنُ الصَّبابةِ والغرامِ فَحبَّذا

لولاكِ ما بِتُ مِنَ الوجْدِ كَذا يا مُلبِسَ جِسمي كُلَّ سُقْمٍ وأذى

اكتفى الشاعر في الأبيات السابقة في كلمة (كذا) ، وكلمة (فحبذا) بما قصد به ، وهذا يدل على أسلوب الشاعر القوي في الإيجاز ، وميله لعدم التكرار ، لثقته بالسامع ، ولتأكده من وصول المراد من القول .

أما الأسلوب فما هو إلا وسيلة من وسائل نقل المعاني ، يستخدم فيها الشاعر لغته الخاصة ، التي يتخير من خلالها ألفاظه ليكون أسلوبه الأدبي في الشعر . ولا يرجع الأسلوب إلى الكلام الذي يفيد أصل المعنى ؛ لأنه من وظيفة الإعراب ، ولا الذي يفيد كمال المعنى ؛ لأنه من وظيفة البلاغة ، ولا لاعتبار الوزن ؛ لأنه من وظيفة العروض ، بل يرجع إلى الصورة الذهنية

---

(١) ابن حجة الحموي : خزانة الأدب ، ١٧٤/٢ .

(٢) صعصعة : اضطراب أو تفرقة . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (صعع) .

(٣) ابن حجة الحموي : خزانة الأدب ، ٢٨٢/١ .

(٤) ديوان التلعفري ، ٦٤٤ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

للتراكيب ، التي ينتزعها الذهن ويرصها في خياله ، ليقع على المقصود من الكلام ، ويكتمل القالب الذي ينسج فيه هذه التراكيب المنتقاة بصورة منتظمة"[١] .

ويعرف أحمد الشايب الأسلوب الأدبي بقوله : " الأسلوب منذ القدم كان يلحظ في معناه ناحية شكلية خاصة ، هي طريقة الأداء أو طريقة التعبير التي يسلكها الأديب لتصوير ما في نفسه ، أو لنقله إلى سواه بهذه العبارات اللغوية . ولا يزال هذا هو تعريف الأسلوب إلى اليوم ، فهو طريقة الكتابة ، أو طريقة الإنشاء ، أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير ، أو الضرب من النظم والطريقة فيه . هذا تعريف الأسلوب الأدبي بمعناه العام "[٢] .

وعلى هذا فالأسلوب الأدبي يتخذ أنواع عديدة في الشعر ، يستخدمها الشعراء كل بحسب ثقافته وغرضه والموقف الذي توضع فيه ، ومنها أسلوب السخرية والفكاهة ، وأسلوب البناء التوقيعي ، وأسلوب البناء القصصي ، وأسلوب التناص .

وقد اتخذ الهجاء في العصر المملوكي عدة أشكال ظهرت من خلالها هذه الأساليب ، فالبناء التوقيعي يتخذ شكل المقطوعات القصيرة ؛ لسهولة الحفظ ، ولتحقيق الغرض المراد، والتي اعتمدت في بنائها غالباً على الهزل والسخرية ، والميل إلى تشويه صورة المهجو من خلال تصوير عيوبه الهجائية . وتميزت هذه المقطوعات بالتركيز والإيجاز ، كما حافظت على الوحدة العضوية والموضوعية للأبيات . ومن تلك المقطوعات القصيرة ما نظمه صفي الدين الحلي من أبيات في هجائه لشخص طويل اللسان[٣] :

لـــو انَّ قُـــوةَ وجهِـــهِ فـــي قلبـــهِ قَبـــضَ الأســـودَ وجنـــدَل الأبْطـــالا

أو كـــانَ طُـــولُ لِسانِـــهِ بيمينِـــهِ أفْنـــى الكُنـــوزَ وأنْفـــدَ الأمْـــوالا

النموذج السابق يدل على الميل الشديد إلى السخرية في الأسلوب الشعري ، والميل إلى السهولة في نظم الأبيات ، وذلك من خلال اعتمادالشاعر على المقطوعات القصيرة في النظم . وفي سهولة شعر صفي الدين الحلي يقول عبده قلقيلة : " ولا أحد من نقاد العصر المملوكي كصفي الدين

---

(١) ينظر : ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ٧٨٦/١ .

(٢) أحمد الشايب : الأسلوب ، ٤٤ .

(٣) ديوان صفي الدين الحلي ، ٤٥٨-٤٥٩ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحلي في حبه للسهولة ، ودعوته إليها ودفاعه عنها ، وإنه ليتخذ منها مذهباً أدبياً له ، ومقياساً نقدياً يقيس به ما يعرض عليه من شعر ..."[١] .

كذلك شاع في العصر المملوكي أسلوب الدوبيت ، الذي هو شكلاً آخراً من أشكال البناء التوقيعي، وبالرغم من كثرة استعماله في فنون الشعر ، إلا أن وجوده في الهجاء نادر . ويقول صادق الرافعي في تعريفه للدوبيت : " وهذا الاسم من كلمتين ، إحداهما فارسية وهي " دو " بمعنى اثنين ، والأخرى " بيت " العربية ؛ وسموه كذلك لأنه لا يكون أكثر من بيتين ، وقد أخذه أدباء العرب عن الفرس ، ... ونحن نرجح أن هذا النوع لم يكن في العربية قبل القرن السابع ؛ لأننا لم نجده في شعر أحد قبل ذلك الزمن ولا وجدنا إشارة إليه ، ولم نجد للشعراء ولعاً به إلا في أواخر تلك المائة وما بعدها ، وللدوبيت وزن واحد ، وهو فعْلن " بسكون العين " ، متفاعلن " وتارة يغير إلى " متفاعيلن ، فعولن ، فعلن " بتحريك العين وسكونها " ، وأمثلته كثيرة ؛ وقد يضمنونه أنواعاً من البديع ، ومن أكثر الشعراء ولوعاً بذلك ، صفي الدين الحلي ، وله في ديوانه منه مقاطيع كثيرة "[٢] . ومما ورد من أسلوب الدوبيت في الهجاء قول التلعفري في محبوبته[٣] :

أهــوى رشــــاً مريــضَ الجَفْــنِ كحيــــلْ خَلـــى جَســـدي بفـــرطِ بلـــوايَ نَحيــلْ
مـــا قلـــتُ لـــهُ : صِلْنـــي فقـــدْ حـانَ رحيـلْ إلا وتـــلا علـــيَّ فـــي الوقـــتِ : وَحيـــلْ[٤]

أظهرت الأبيات براعة الشاعر وقوة أسلوبه في النظم ، فقد جمع فيها بين أساليب عديدة ، من أسلوب الدوبيت على وزن (فعلن) ، وأسلوب الحوار الذي دار بين الشاعر ومحبوبته ، والاقتباس كما في كلمة (وحيل) المقتبسة من القرآن الكريم .

واحتوت بعض أشعار العصر المملوكي في الهجاء أسلوب البناء القصصي الذي يعتمد على الحوار ، لتضفي متعة على ما تحمله الأبيات من هجاء ، وتثير الضحك والهزل بالمهجوين. ونذكر على سبيل المثال قول الشاعر التلعفري حين هجا ابن بنيمان بعد وقوعه عن بغلته ، فيقول فيه[٥] :

---

(١) عبده قلقيلة : النقد الأدبي في العصر المملوكي ، ط ٢ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٩١م ، ٢٦١ .

(٢) مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب ، ١١٠/٣ .

(٣) ديوان التلعفري ، ٥٩٤ .

(٤) وردت كلمة (وحيل) التي استخدمها الشاعر في قوله تعالى : " وحيلَ بَينهمْ وبينَ ما يَشْتهونَ " . سورة سبأ : آية ٥٤ .

(٥) الكتبي : فوات الوفيات ، ٥٨/٢ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سَمعـــتُ لابـــنِ بُنَيمـــان وبَغْلتِـــه عَجيبـــةً خِلتُهـــا إحْـــدى قصائِـــدِهِ
قالـــوا رَمتْـــهُ وداســـتْ بالنِّعـــالِ علـــى قفـــاهُ ، قلـــتُ لهـــمْ : ذا مـــنْ عوائِـــدِهِ
لأنَّهـــا فعلـــتْ فـــي حـــقِّ والدِهـــا مـــا كـــانَ يفعلُـــهُ فـــي حـــقِّ والـــدِهِ

فالأبيات تظهر الحوار الذي تم بين التلعفري والقوم الذين أخبروه بوقعة ابن بنيمان ، وتبين ما دار بينهما ، في أسلوب تفهمه العامة والخاصة ، ويظهر مدى شماتة التلعفري بالرجل . كذلك دل هذا الحوار على براعة الشاعر في تقديم أبياته الهزلية ، وما تحمله من سهولة في عباراتها ، وفي اختيار ألفاظها .

كذلك استحضر الشعراء معاني من بيئتهم ، ووظفوا عباراتها ومعانيها في أشعارهم. ومن ذلك الخطاب الذي وجهه صلاح الدين الصفدي لقوم في تشبيهه لحمَّامهم السيئ[١] :

حمَّامُكُـــــمْ قيمُـــــهُ أســـــودُ هربـــتُ منـــهُ وأنـــا صـــارخُ
قـــدْ سَلخـــتْ جسمـــي أظفـــارُهُ يـــا قـــومُ هـــذا أسْـــودٌ سالـــخُ[٢]

يصف الصفدي الحمَّام بصفات منفرة ، فينعته بالسواد ، حتى إنه يشبهه بحية سوداء تهم أن تقتله فيهرب منها وهو يصرخ . فاستخدم الشاعر صورة توحي بالفزع من سوء هذا الحمَّام .؛ حيث مثلت هذه الحمَّامات مظهراً من مظاهر البيئة المملوكية التي كان يعاني منها العامة من الناس .

ووجدت الحمير وركوبها في بيئة العصر المملوكي ، فكان لها ظهور ملحوظ في أشعارهم يستدل به على أسلوب توظيف العبارات من مظاهر البيئة ، كما في قول عز الدين الموصلي[٣] :

نادمـــتُ قومـــاً لا خَـــلاقُ لهـــمْ ولا ميـــلٌ إلـــى طـــربٍ ولا سَمَّـــارِ
يستيقظـــونَ إلـــى نهيـــقِ حميرِهِـــمْ وتنـــامُ أعينُهـــمْ عـــنِ الأوتـــارِ

تكشف الأبيات السابقة عن وجود فئة من الناس في العصر المملوكي بعيدين عن أخلاق حياة عامة الشعب المألوفة ، والتي تميل إلى الطرب والمسامرة ، وقد عكست الأبيات نظرة الشاعر إلى مجتمعه ، فهو يقص علينا أفعال هؤلاء القوم ، وينتقد فيهم هذه الصفات السيئة .

كذلك ضمنت أشعارهم الهجائية أسلوب التناص القائم على دراسة النص الأدبي في ضوء نصوص سابقة ، مما يدل على وجود علاقة جدلية بين القديم والجديد ، فيستحضر الشاعر أسماء

---

(١) ابن حجة الحموي : خزانة الأدب ، ١٧٣/٢ .
(٢) الأسود السالخ : أسود الحيات وأخبثها . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (سود) .
(٣) ابن حجة الحموي : خزانة الأدب ، ٣٣٢/٢ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أو أشعاراً أو أقوالاً أو اقتباسات سابقة له لإنشاء علاقة متبادلة بين الماضي والحاضر ، يعيد فيها الشاعر صياغة الماضي وفق رؤية معاصرة[١] بما يحمله التناص من اقتباس أو تضمين أو توجيه أو غير ذلك ، كالاقتباس من القرآن الكريم وقصصه . والاقتباس في الاصطلاح يقصد به " أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن ، ولا ينبه عليه "[٢] ، وقد وردت نماذج كثيرة للاقتباس لدى الشعراء ، ومنها اقتباس سراج الدين الوراق من القرآن الكريم في قوله[٣] :

رَفَضُوا الشِّعرَ جَهدَهُمْ ورَمَوهُ بَينَهُمْ بِالهَوانِ والإزدِراءِ
فَلَو إنَّ الكِتابَ كانَ بِأيدِيهِمْ مَحَوا مِنهُ آيةَ الشُّعراءِ

اقتبس الشاعر من سورة الشعراء (آية الشعراء) في قوله تعالى : ﴿ والشُّعراءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وأَنَّهُمْ يَقولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ [٤] ؛ ليدلل على كساد سوق الشعر في عصره ، وهوانه بين قومه ، حتى إنهم لا يحبون مجرد سماع لفظه ، ويودون لو محوا كل ما يتعلق به .

ومن الاقتباس الإشارة لبعض القصص القرآنية ، من ذلك ما قاله شهاب الدين الأعرج في هجائه لرجل ميت يدعى صالح [٥] :

علَى كلِّ ميْتٍ إذْ يموتُ نوادبٌ وما ثَمَّ مَنْ يبكي على مَوتِ صالحِ
فَإنَّ جميعَ النَّاسِ سُرُّوا بموتِهِ سُرورَ ثمودَ يومَ ناقَةِ صالحِ

الشاعر يهجو رجلاً سر الناس بموته ، فلم يوجد من يبكي عليه ، ويقتبس من قصة قوم صالح وسرورهم بقتل الناقة ، موضعاً يتخذه ليشبه به الحالة التي يتعرض لها هذا الميت .

ومن التناص استخدام التضمين كمدخل في شعر الهجاء ، ويعرف التضمين اصطلاحاً بأنه " قصدك إلى البيت من الشعر أو القسيم فتأتي به في أواخر شعرك أو في وسطه "[٦] . وهناك من

---

(١) للاستزادة حول مفهوم التناص عند العرب : ينظر : حصة البادي : التناص في الشعر العربي الحديث ، ط ١ ، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع ، عمان ، ٢٠٠٩ ، ٢٧-٣٠ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ١٩٧/١ .

(٣) ابن حجة الحموي : خزانة الأدب ، ٥١/٢ .

(٤) سورة الشعراء : آية ٢٢٤-٢٢٧.

(٥) ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمر ، ٢٨٣/١ .

(٦) ابن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر ، ٨٤/٢ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

شعراء عصر المماليك من أولع بأسلوب التضمين ، ومنهم مجير الدين ابن تميم الإسعردي ، الذي لا يخفي ولعه به ، يقول[١] :

أطالـــــــعُ كـــــلَّ ديـــــــوانٍ أراهُ ولـــمْ أزجـــرْ عـن التضميـــنِ طَيـــري
أضمـــــنُ كـــلَّ بيـــــتٍ فيـهِ معنـــىً فشعـــري نصفُـــهُ مـنْ شعـــرِ غيـري

ومن التضمين في الهجاء قول ابن الوردي في زوجة صاحب له يدعى مجد آذته هي وأبوها وجدها[٢] :

زوجـــــةُ مجـــدِ الدِّيـــنِ والداهـــــا فـــــي ثلـــبِ المجـــــدِ أشبهاهـــا
إنَّ أباهـــــا وأبـــــا أبـــاهـــــا قـــدْ بلغـــا فـــي المجـــدِ غايتاهـــا

ضمن الشاعر البيت الثاني كله ببيت سمع عمن يوثق بعربيته ، إلا أنه لم ينسب إلى شخص بعينه[٣] .

وأبدع الشاعر في العصر المملوكي حين استخدم أسلوب التناص في توظيف الأمثال الشعبية التي يعرفها العامة والخاصة ، ويتداولها الناس في معظم العصور ، ومنه توظيف البهاء زهير المثل في شخص لا يطيق قربه[٤] :

أرِحْـــنـــي مـــنـــكَ حَـــتـــى لا أرى مَـــنْـــظَـــرَكَ الـــوَعْـــرا
فـــقـــدْ صَـــيَّـــرْتَ لـــي بُـــعْـــدُ كَ عـــنِّـــي الـــرَّاحـــةَ الـــكُـــبْرى
فَـمـــا تَنْفـــعُ فـــي الدُّنـــيـــا ولا تَـــشـــفـــعُ فـــي الأخْـــرى
لـــقـــدْ خـــابَ الَّـــذي كُـنـــتَ لـــــهُ فـــي شِـــدَّةٍ ذُخْـــرا

فالمثل الشعبي المعروف في قوله (فما تنفع في الدنيا ولا تشفع في الأخرى) ، تناوله الشاعر في هجائه ليعبر به بأسلوب بسيط عن نفوره من المهجو ، الذي لا يرجى منه أي نفع .

وهناك التناص في أساليب بلاغية وظفها الشاعر في أشعاره من خلال ثقافته الخاصة ، التي استمدها من العلوم والمعارف التي يزخر بها عصره ، واستخدم في ذلك ما عرف عند البعض بالإبهام أو التوجيه ، وهو " ... أن يوجه المتكلم بعض كلامه أو جملته إلى أسماء متلائمة اصطلاحاً ، من أسماء الأعلام أو قواعد العلوم وغير ذلك مما يتشعب له من الفنون ، توجيهاً

---

(١) الكتبي : فوات الوفيات ، ٥٥/٤ .
(٢) ابن حجة الحموي : خزانة الأدب ، ٣٣٦/٢ .
(٣) ينظر : البغدادي : تاريخ بغداد وذيوله ، ٥/٢٢ .
(٤) ديوان البهاء ، ١١٥ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مطابقاً لمعنى اللفظ الثاني، من غير اشتراك حقيقي بخلاف التورية ،... "[١] . ومن تلك الثقافات ثقافته في اللغة العربية ، ومعرفته بعلومها ، كعلم النحو ، فالشاعر وظف ما عرف عند النحاة بأن اللفظ يوضع في السياق ليكون له معنى ، واستخدم الشاعر أسلوب النحاة هذا ليكون له مكان في الشعر حينما أراد الهجاء ، مما كشف عن مدى علم ومعرفة شعراء ذلك العصر بقواعد اللغة العربية ، واهتمامهم بها ، ونجد لدى الشعراء كثيراً من الإشارات الدالة على ذلك ، كقول صفي الدين الحلي في مليح له رقيب قبيح[٢] :

ومليحٌ لهُ رقيبٌ قبيحٌ يتعنى وغيرُهُ يتهنى
ليسَ فيهِ معنى يقال ولكنْ هو عندَ النُّحاةِ جاءَ لمعنى

وهناك من الشعراء من اختار من البيئات الأخرى وأناسها ما يتناسب مع بيئتهم ، فاستعانوا بهم في أشعارهم ، كما نرى في قول الجزار يفخر بنفسه ، ويهجو أبا الطيب المتنبي ، مستخدماً أسلوب التوجيه في اسمه[٣] :

تَعاظمَ قَدْري على ابنِ الحُسينِ فذِهْني كالعارضِ الصَّيِّبِ[٤]
وكمْ مرَّةٍ قدْ تَحكمتُ فيهِ لأنَّ الخَروفَ أبو الطَّيِّبِ

فما كان لتوجيه الشاعر لإسم العلم المتنبي وكنيته ، وهو من عصر غير عصره ، إلا ليثبت لأبناء عصره مدى قدره في الشعر ، الذي فاق ما اشتهر به المتنبي في عصره .

ومثله في التوجيه هجاء التلعفري للشاعر ابن عنين[٥] ، وسبب صبر الناس عليه في هجائه لهم[٦] :

ارى ابنَ عُنَيْنٍ لا كَلا اللهُ نَفسَهُ أخافَ الورى طُراً بِمُرِّ هِجائِهِ
ولمْ يُهملوهُ خَشيةً منهُ إنَّما رأوهُ مهيناً ذَمُّهُ كَثنائِهِ

---

(١) ابن حجة الحموي : خزانة الأدب ، ٣٠٣/١-٣٠٤ .

(٢) ديوان صفي الدين الحلي ، ٤٥٥ .

(٣) ابن حجة الحموي : خزانة الأدب ، ٥٧/٢ .

(٤) العارض الصيب : السحاب المليء بالمطر الغزير . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (عرض) .

(٥) هو محمد بن نصر الله بن مكارم الأنصاري ، شرف الدين ، من فحول شعراء العصر العباسي ، أولع بالهجاء ، ولد في دمشق عام ٥٤٩هـ/١١٥٤م ، وتوفي عام ٦٣٠هـ/١٢٣٢م . ينظر : الزركلي : الأعلام ، ١٢٥/٧ .

(٦) ديوان التلعفري ، ٥٤٢ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لابد من وجود سبب ما للجوء الشاعر إلى هجاء شاعر من غير عصره ، فمن الوارد أن يذم شخص سابقيه ليظهر مدى الصفات الحسنة فيه ، وهذا على ما يبدو ما أراد التلعفري أن يصل إليه من وراء هجائه لابن عنين ودعائه عليه .

ويستعرض ابن الوردي معرفته في علم العروض ، فيهجو عالماً بهذا العلم ، من خلال التفعيلات الخاصة بعلم العروض[1] :

العَروضيُّ فُلانٌ إنْ بَدتْ منهُ هناتُ
فلهُ جدَّاتُ سوءٍ فاعلاتٌ فاعلاتُ

نوع الشعراء في العصر المملوكي في أساليبهم المستخدمة في شعر الهجاء ؛ لتتناسب مع التدفق الشعوري والانفعالي الذي يكمن في داخلهم ، ويجسد المعاني التي أرادوا التعبير عنها ، كما تفاوت أداء هؤلاء الشعراء تبعاً لتفاوت مواهبهم ، ودرجة امتلاكهم للأساليب .

(١) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ، ٤٢٢/١٦ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبحث الثاني : الموسيقى (الموسيقا الداخلية – الموسيقا الخارجية) :

هناك عدة عوامل يكتسب منها الشعر جمال موسيقاه أهمها الوزن والقافية ، بالإضافة إلى عوامل أخرى ، تعتمد على لغة الشعر وما يختار من محسنات تضفي جمالاً موسيقياً على الأبيات المنظومة . وقد فصل محمد بدوي سالم في ذلك فقال : " الشعر يكتسب موسيقاه من عدة عوامل معقدة ، تتضافر كلها على إكسابه هذه الخاصية ، منها لغة الشعر إلى جانب الإيقاع والوزن ، ومكان الوتد من الأجزاء ، وما تحمله من نبر وارتكاز ، ونغم وتقسيم داخلي أحياناً ، أو سجع وموازنة ، ومن زحاف وعلل ، ... أما لغة الشعر ، فهي داخل الإطار اللغوي العام ، وإنما يختار الشاعر الألفاظ الموجبة التي تتناسب وعاطفته من ناحية ، والوزن الذي يصب فيه ذلك من ناحية أخرى ، فقد استسمجت فيه ألفاظ ، ككلمة أيضاً ، واستحسنت أخرى ، ..."[١] .

وتنقسم الموسيقا الشعرية إلى موسيقا خارجية ؛ وهي موسيقا العروض بما فيها من وزن وقافية ، وموسيقا داخلية وهي موسيقا النظم بما فيها من لغة الشعر واختيار ألفاظه من خلال المحسنات ، التي تضفي الكمال الموسيقي على الأبيات .

أما الوزن والقافية فقد اعتبرا عند البعض بأنهما أساس الموسيقا الشعرية . وفي ذلك يقول ابن رشيق القيرواني : " الوزن أعظم أركان حد الشعر ، وأولاها به خصوصية ، وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة ، إلا أن تختلف القوافي فيكون ذلك عيباً في التقفية لا في الوزن، وقد لا يكون عيباً نحو المخمسات وما شاكلها "[٢] .

ولا شك أن الوزن والقافية لهما أثر كبير على جذب السامع إلى سماع الأبيات المنظومة ، المنسجمة الإيقاع ، فإذا ما اختل الإيقاع فيها دل ذلك على ضعف لغة الشاعر وعدم المهارة ، والخلل في شعره . وقد فصل إبراهيم أنيس في ذلك فقال : " والكلام الموزون ذو النغم الموسيقي يثير فينا انتباهاً عجيباً ، وذلك لما فيه من توقع لمقاطع خاصة تنسجم مع ما نسمع من مقاطع ، لتتكون منها جميعاً تلك السلسلة المتصلة الحلقات التي لا تنبو إحدى حلقاتها عن مقاييس الأخرى ، والتي تنتهي بعد عدد معين من المقاطع بأصوات بعينها نسميها القافية . فهو كالعقد المنظوم تتخذ الخرزة من خرزاته في موضع ما ، شكلاً خاصاً وحجماً خاصاً ولوناً خاصاً ، فإذا

---

(١) محمد بدوي المختون وآخرون : موسوعة الحضارة العربية الإسلامية ج ٣ ، علم العروض ، ط ١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٧م ، ٥٦٦ .

(٢) ابن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر ، ١٣٤/١ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اختلفت في شيء من هذا أصبحت نابية غير منسجمة مع نظام هذا العقد . فنحن نسمع بعض مقاطع الشطر ونتوقع البعض الآخر ، وذلك حين نمرن المران الكافي على سماع هذا النظام الخاص في مقاطع الوزن "[١] .

لقد اهتم إبراهيم أنيس بموسيقا الشعر ، لما وجد لها من تأثير وجمال على النص ، ورأى أن أهميتها تكمن في أنها " تزيد من انتباهنا وتضفي على الكلمات حياة فوق حياتها ، وتجعلنا نحس بمعانيها كأنما تمثل أمام أعيننا تمثيلاً عملياً واقعياً . هذا إلى أنها تهب الكلام مظهراً من مظاهر العظمة والجلال ، تجعله مصقولاً مهذباً تصل معانيه إلى القلب بمجرد سماعه . وكل هذا مما يثير فينا الرغبة في قراءته وإنشاده وترديد هذا الإنشاد مراراً وتكراراً "[٢] .

وتدلل نماذج الشعر المملوكي على اهتمام الشاعر في العصر المملوكي بالموسيقا الشعرية الجيدة ، ورفضهم نظم الشعر لمجرد النظم ، أو قبول النظم السيئ فيه . وحاول بعض الشعراء التصدي لمن يدعي الشعر ولا يجيده ، كما حاول البعض نظم الشعر الجيد ليكشف به عيوب الشعر السيئ عند أصحابه . كما نرى في قول صفي الدين الحلي[٣] :

وما كنتُ أرضى بالقريضِ فضيلةً ... وإنْ كانَ مِما ترتَضيهِ الأفاضلُ
ولستُ أذيعُ الشِّعرَ فخراً ، وإنَّما ... مُحاذرةً أنْ تَدَّعيهِ الأراذلُ

صفي الدين الحلي لم ينظم الشعر ليفخر بأنه شاعر ، بل حذراً منه أن يدعي الشعر من هو ليس أهلاً له .

ويميل ابن الوردي إلى نظم الشعر السهل ، الذي يسير على الفطرة ، ويفضل فيه تمكين القافية ، فيقول مؤكداً على ذلك[٤]

إذا أحببتَ نظمَ الشعرِ فاختَرْ ... لنَظمكَ كلَّ سهلٍ ذي امتناعِ
ولا تقصدْ مجانسةً ومَكنْ ... قوافيهِ وكِلْهُ إلى الطِّباعِ

ويبدو أن هناك من انتقد ابن الوردي لسهولة أشعاره ، واعتبر ذلك عيباً في النظم ، ولم يترك لهم

---

(١) إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر ، ط ٢ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٢م ، ١١ .

(٢) إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر ، ١٤ .

(٣) ديوان صفي الدين الحلي ، ٣٠ .

(٤) ابن حجة الحموي : خزانة الأدب ، ٥٧/١ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ابن الوردي الفرصة لينالوا منه ، فهجاهم قائلاً[١] :

يعيبُ شعريَ أقوامٌ وأعذرُهُمْ فإنَّ شعريَ رديٌّ وهمْ جُعلُ[٢]

شعري وإنْ كانَ سهلاً فهو ذو ثِقَلٍ على حسوديَ فهو السَهلُ والجبلُ

وفي بيت من مجموعة أبيات لصفي الدين الحلي في الشعر المنتقد ما يمكن أن يشفي الغليل من النقاد ، كما تجلى في قوله[٣] :

والشعرُ كالتِّبرِ يخفى حين تنظُرُهُ عينُ الغبيِّ ، ويغلو حينَ يُنتقَدُ[٤]

وللوقوف على الموسيقا الشعرية عند شعراء العصر المملوكي يجدر بنا التركيز على أقسامها : الخارجية بما فيها من وزن وقافية ، والداخلية بما فيها من محسنات وموسيقا خفية ، وإظهار مدى استطاعة الشاعر التوفيق بينهما دون أن يكون هناك فصل فيهما ، وذلك لأن كمال الموسيقا الشعرية يعتمد على قسميها معاً . ومما يثبت حرص شاعر ذلك العصر على النهوض بشعره ، وعنايته به من حيث الموسيقا الشعرية ، ما وجد في أشعاره من اهتمام بالوزن والقافية والنظم ، فنجد في هجاء صفي الدين الحلي للقيط يدعى عيسى ، الموسيقا الشعرية الموحدة في حرف الباء ، وكلمات تتماشى مع الغرض الذي أنشأ فيه أبياته ، فهجا الشخص منتقياً ألفاظه بما يتناسب مع اسم ذلك الشخص ، واسم سيدنا عيسى ، ونفي علة التشابه بينهما فيما عدا كونهما يحملان الاسم نفسه ، ونشأتهما بلا أب[٥] :

سُميتَ عيسى ولمْ تظفرْ بمعجزةٍ ولمْ تُشابِهْهُ في علمٍ ولا حَسَبِ

ولا أتيتَ بِشيءٍ منْ فضائِلِهِ إلا بأنَّكَ منْ أمٍّ بغيرِ أبِ

أضفى الشاعر على هجائه لوناً موسيقياً خفيفاً في توحيده للوزن ، واستخدامه في القافية حرف الباء ، الذي يوصف بسرعة النطق به . وكما وحد في الحرف كذلك وحد في زمن النطق به من خلال حركته الثابتة على الحرف ، ولم يتناول الشاعر الموسيقا الداخلية الظاهرة بكثرة في أبياته ، واهتم بأسلوب حسن التعليل ليكشف عن المحسنات المعنوية التي أرادها الشاعر حين علل وجه

---

(١) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ، ٤٢١/١٦ .

(٢) جعل : دابة سوداء من دواب الأرض . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (جعل) .

(٣) ديوان صفي الدين الحلي ، ٩١ .

(٤) التبر : الذهب . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (تبر) .

(٥) ديوان صفي الدين الحلي ، ٤٥٨ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الشبه بين هذا اللقيط وسيدنا عيسى ، وقد جاء بهذا التعليل ليمكن إيصاله إلى الذهن بطريقة لطيفة رغم ما يكمن فيه من عبارات الهجاء .

وهناك انسياب ملحوظ عند الشاعر مجاهد الخياط في تناوله للموسيقا ، حينما هجا أبا الحسين الجزار قائلاً[١] :

أبـــا الـحُـســـيـــنِ تـــأدَّبْ ... مـــا الفخـــرُ بالشِّعـــرِ فَخْـــرُ
مـــا تـبـلـلـتَ مـنـــهُ ... بِـقـطـــرةٍ وهـــو بَـحْـــرُ
وإنْ أتـــيـــتَ بِـبـيـتٍ ... ومـــا لِـبـيـتـــكَ قَـــدْرُ
ولـــمْ تـــأتِ بِـالـبـيـتِ إلا ... عـلـيـــهِ لـلـنَّـــاسِ حِـكْـــرُ

يصف الخياط شعر أبا الحسين الجزار ، ويهجوه بعدم وصوله بشعره إلى حد الفخر به ، وانسابت الأبيات في نسيجها وبنائها في موسيقاها الهادئة ، واستخدم قافية موحدة ووزناً واحداً . وجاء في تناوله لحرف الراء التكراري في النظم ، وفي تعمده لاختيار الحروف السابقة له على الحركات نفسها في جميع الكلمات روعة الخيال ، مما أعطى للأبيات قوة في الموسيقا ، إلا أنه كرر حرف النفي في كل بيت من أبياته ، وكان يمكنه منع هذا التكرار بأسلوب أكثر تعبيراً ، وأوصل للفكرة ، دون الحاجة لذلك، فالتكرار في الأساليب أو الحروف أو الحركات لا يعتبر عيباً إذا أفاد معنى . ومع ذلك كان لاستخدام الشاعر المحسنات اللفظية في ألفاظه دور في إضفاء نغمة موسيقية داخلية على الأبيات ، ومن ذلك جناسه بين الكلمات (أتيت ، ببيت) .

واذا استعرضنا أبياتاً للشاعر أبي الحسين الجزار ، لنقف عند الموسيقا الشعرية لديه ، يصادفنا قوله يشكو فقره وذهاب عمره[٢] :

لـــي مـــن الشَّمـــسِ خلعـــةٌ صفـــراءُ ... لا أبالـــــي إذا أتانـــــي الشِّتـــــاءُ
ومـــن الزمهريـــرِ إنْ حَـــدثَ الغيـــ ... ـمُ ثيابـــي وطيلسانـــي الهـــواءُ
بيتـــيَ الأرضُ والفضـــاءُ بـــهِ سـو ... رُ الرجـلِ مـــدارٌ وسقـــفُ بيتـيَ السمـاءُ
لـو ترانـي فـي الشَّمـسِ والبـردِ قـدْ انـ ... ـسـلَّ جسمـي لقلـتَ إنِّـي هبـاءُ
شنَّـــعَ النَّـــاسُ أنَّنـــي جاهلـــي ... مـــانـــويّ ومـــا لهـــمْ أهـــواءُ[٣]
أخذونـــي بظاهـــري إذْ رأونـــي ... عبـــدَ شمـــسٍ تسوؤنـــي الظَّلمـــاءُ

---

(١) الكتبي : فوات الوفيات ، ٢٣٧/٣ .

(٢) الكتبي : فوات الوفيات ، ٢٨٧/٤ .

(٣) مانوي : زنديق وهي كلمة فارسية الأصل . ينظر : شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ١١٠ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

آهٍ وحسرتـــــي لقـــــدْ ذهـــــبَ العـمـــ رُ وحظـــــي تأسُـــــــــفٌ وعنـــــاءُ
كلمـــــا قلـــــتُ فـــي غـــدٍ أُدركَ السَّـو لُ أتانـــــي غَـــدٌ بمـــــا لا أشـــاءُ[1]
لســـــتُ ممـــــنْ يَخـــــصُ يومـاً بشكـوا هُ لأنَّ الأيـــــــامَ عنـــــدي ســـواءُ

تمثلت الموسيقا الشعرية عند الشاعر باختياره لقافيته حرف الهمزة المسبوقة بالألف الممدودة، وكان لها وقع موسيقي وتناغم ، فالهمزة من أبعد المخارج . يسبقها المد في الصوت لتصل شكوى الشاعر من فقره إلى أبعد الحدود . ووفق الشاعر في اختياره للمحسنات حين نوع باستخدامه لها ، من جناس وتكرار وتصريع ، كالجناس بين (الفضاء و السماء) ، والتكرار لكلمة (غد) ، والتصريع في نفس الروي في صدر مطلع القصيدة وعجزها ، وغيرها من المحسنات التي تركت تناغماً موسيقياً متكاملاً مع الوزن والقافية ، ورسم الشاعر صورة الفقر وضياع العمر لديه في جميع أبياته بألفاظ سهلة مستمدة من البيئة الطبيعية ، فكان لاختياره توحيد القافية في صدر البيت الأول مع القافية الأساسية للأبيات أثر رائع على إيقاع الموسيقى الخارجية والداخلية ، كل ذلك بموسيقا عذبة توحي بجزالة أسلوب الشاعر ، وقوة شعره .

وأبدع ابن نباته في الاهتمام بالموسيقا الشعرية في نظمه لأبياته وبخاصة الموسيقا الداخلية ، دون أن يهمل الموسيقا الخارجية ، فشاكل بين أصوات كلماته ومعانيها . ومن هذا القبيل قوله يهجو نفسه ويشكو الفقر[2] :

كـــــانَ لـــــي مـــــالٌ وكِـــــيْسٌ قـــبـــلَ تـــهـــيـــامـــي وسُـــكـــــري
فسكبـــــتُ الـــمـــــالَ طـــاســـاً وصـــبـــغـــتُ الكِـــيسَ خَـــمـــــري

استخدام ابن نباته للمحسنات البديعية كالتكرار في كلمة (كيس) ساعد على إعطاء النظم موسيقا جذابة وجميلة ، وهذا ليس بغريب على هذا الشاعر ، يقول عبد اللطيف حمزة في شعره : " إذا نظرت في شعر هذا الرجل وجدته يزخر بأنواع شتى من البديع من جناس إلى طباق إلى إكتفاء إلى مراعاة نظير . ولكن أكثر الأنواع البديعية شيوعاً في شعره هي ، التضمين ، والتورية، والاكتفاء ، والسهولة ..."[3] .

---

(١) السول : الأمنية . ينظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (سول) .

(٢) ديوان ابن نباته ، ٦٠ .

(٣) عبد اللطيف حمزة : الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية ، ١٢٦ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومما ورد لابن دانيال من أبيات يعبر فيها عن الموسيقا الشعرية لديه ، ما قاله في هجائه للوطواط[١] وتشبيهه له بالخفاش ، وقذفه بألفاظ مقذعة ، مستخدماً أنغاماً موسيقية تتناسب مع وزن الأبيات وقافيتها ، فيقول[٢] :

كـــمْ علـــى درهـــمٍ يلـــوحُ حرامـــاً يـــا لئيـــمَ الطِّبـــاعِ ســـراً تواطـــي
دايمـــاً فـــي الظَّـــلامِ تمشـــي مـــعَ النَّـــا سِ وهـــذي عـــوايـــدُ الـــوَطـــواطِ[٣]

عبر ابن دانيال عن أبياته الهجائية بموسيقا خارجية قوية في توحيده للوزن والقافية ، أما من حيث الموسيقا الداخلية فنجدها في لغته التي مالت إلى ترك الهمزة ، واختار الكلمات الموحية ، التي تتناسب مع الغرض مثل (حرام ، الظلام) ، ليثبت أن عمل هذا الشخص منبوذ لا يصح القيام به ؛ لذا استحق منه هذا الهجاء ، ولم يتعرض الشاعر كثيراً للموسيقا الداخلية الظاهرة .

وفي أبيات مغايرة صدم الشاعر سراج الدين الوراق في رجل مدحه فلم يجزه ، فكانت النتيجة ردة فعل منه تطالب هذا الرجل بإعادة ما أخذه من مدح في شعره الذي مدحه فيه ، بأسلوب ينم عن الخيبة الشديدة ، فاستخدم الموسيقا القوية ، العنيفة ، كقوله[٤] :

أعـــدْ مدحـــي علـــيَّ وخـــذْ ســـواهُ فقـــدْ أتعبتنـــي يـــا مستريـــحُ
ولا تغضـــبْ إذا أنشـــدْتُ يومـــاً ســـواهُ وقيـــلَ لـــي هـــذا الصَّحيـــحُ

كشفت الأبيات السابقة عن الغضب الذي اعترى الشاعر ، والشعور بالخيبة بعد حصول ما لم يتوقعه ، فجاءت الموسيقا عفوية سريعة من شخص غاضب ، أصيب بعكس ما كان يتمناه أو ينتظره ، فاستخدامه في القافية للياء والحاء تظهر الصرخة القوية التي أطلقها الشاعر نتيجة هذا الشعور ، وإكثاره من الأمر والنهي يدل على تمنيه عدم حصول ما قد حصل ، ومما يؤكد أيضاً على ذلك ، ما جاء به من كلمات حين عبر عن الموسيقا الداخلية بالطباق بين (أتعبتني ، مستريح) مما أظهر إيقاعاً موسيقياً جذاباً ، كما عبرت الموسيقى الداخلية عن صدق المشاعر الغاضبة وقوتها .

---

(١) هو محمد بن إبراهيم الكتبي ، ولد في مصر عام ٦٣٢هـ/١٢٣٥م ، أديب أجاد في النثر دون الشعر ، من مصنفاته (مباهج الفكر ومناهج العبر) ، توفي عام ٧١٨هـ/١٣١٨م . ينظر ترجمته في : ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ٥/٢٤-٢٥ .

(٢) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ٢/١٥ .

(٣) الوطواط : الخفاش . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (وطط) .

(٤) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ، ١٩/١٠٥ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويهجو التلعفري مصر وسكانها ، بجرس موسيقي جميل أظهره استخدامه الكثير لحرف السين ، كما نجدها في قوله[١] :

لحـــــى اللهُ مصـــــرَ وسُكانَهـــــا فأقفالُهـــــا للرِّيـــــا والحَســـــدْ
وكيـــــفَ يَـــــرومُ الغِنـــــى مُفلـــسٌ بهـــــا وعلـــــى كُـــــلِّ فِلْـــسٍ أَســـدْ

الشاعر يدعو على مصر وسكانها ، فكل ما فيها رياء وحسد ، وأغنياؤها لا يتركون مجالاً لفقرائها ليغتنوا ، واهتم الشاعر بالموسيقا الخارجية حين وحد الوزن والقافية ، فوجود حرف الدال بعد حرف السين يعطي موسيقا متناغمة لما فيهما من صفير وقلقلة ، تنم عن اليأس الذي في داخل الشاعر ، وعن الحالة التي يعيشها ، كذلك اهتم بالموسيقا الداخلية الخفية حين استخدم الطباق ، كالطباق بين (الغنى ، مفلس) ، والموسيقا الداخلية الظاهرة حين استخدم الجناس ، كالجناس بين (مفلس ، فلس) .

أما في الهجاء العقائدي ، فنرى الموسيقا الشعرية مختلفة ، إلا أنها لا تقل جمالاً عما قاله الشعراء السابقون ، يقول علاء الدين الوداعي[٢] :

غيـــــروا زيَّهـــــمْ بِمـــــا غيـــــروهُ مـــــنْ صِفـــــاتِ النَّبـــــيِّ ربِّ المكـــــارمْ
فَعَلَيْهِـــــمْ كَمـــــا تـــــرَوْنَ براطيـــشُ وَلكنهـــــا تُســـمـــــى عمائـــــمْ

اختص الشاعر بهجائه اليهود والنصارى حين فرض عليهم لبس العمائم ، التي تميزهم عن المسلمين . فجمال الموسيقا لديه يكمن في الهزل الذي صحب الأبيات ، حيث الأوزان السهلة والقافية الموحدة على حرف الميم ، لتتناسب مع هزله من أصحاب العمائم ، فجاء بالجناس بين عدة كلمات كما في (غيروا ، غيروه) ليبعث الموسيقا الساخرة من هؤلاء القوم .

وكذلك في هجاء النصارى وكثرة أذاهم للمسلمين وتعرضهم لهم بالحريق ، يقول ابن الوردي[٣] :

عدمتُكـــــمُ نَصَـــــارَى مصـــــرَ كُفُّـــــوا فكـــــمْ آذَيتمونـــــا مـــــنْ طَرِيـــــقِ
حريـــــقُ النَّـــــارِ قـــــدْ عَجَّلتمـــــوهُ فأَجَّلنـــــا لكـــــمْ نَـــــارَ الْحَرِيـــــقِ

عمد الشاعر إلى استخدام اللهجة القوية في هجائه للنصارى ودعائه عليهم ، وقد أثبت فنه في موسيقاه الشعرية حين وظف قافية قوية تتناسب مع هذه اللهجة وهو حرف القاف ، ووحدها مع

---

(١) ديوان التلعفري ، ٥٥٧ .
(٢) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ٢٥٥/٤ .
(٣) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، ٢٦٣/٢ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الوزن ، واستخدم في موسيقاه الداخلية أسلوباً موسيقياً رائعاً حين بدأ البيت بالمضاف والمضاف إليه في كلمة (حريق النار) ، ثم استبدل الأماكن بينهما وعكسها ، فجعل الكلمة (نار الحريق) ، وهذا يناسب أسلوب التهديد والوعيد .

ويهجو ابن تولوا الدهر ويحذر من أبنائه في نبرة متشائمة ، تدل على تجربة ذاتية سيئة واجهها الشاعر ، فمالت الموسيقا لديه إلى جرس ينم عما بداخله من مشاعر اليأس[1] :

أمـــا السمـــاحُ فقـــدْ أقـوتْ معالمُـــهُ فَمَـــا علـــى الأَرْضِ مـــنْ تُرجـــى مَكارِمُـــهُ
فَـلَا يغرَّنْـــكَ مَـــنْ يلقـــاكَ مُبْتَسِمـــاً فطالمـــا غَـــرَّ بـــرقٌ أَنْـــتَ شائِمُـــهُ
لَا تَتْعـبُ النَّفسُ فِـي استخـــلاصِ راحتهـا مـــن باخـــلٍ لؤمـــهُ فِـي الْجُـودِ لائِمُـهُ
أخـــي المَذلـــةِ إعـــزازاً لدرهَمِـــهِ ويصحـــبُ الـــذُّلَ مَـــنْ عـــزتْ دَرَاهِمُـــهُ
ماذَا أَقُـــولُ لـــدهرٍ عَـــاشَ باهلُـــهُ غنـــياً وَمَـــات بِسيـــفِ الْفقـــرِ عالِمُـــهُ
قـــدْ سَالـــمَ النَّقْـــصَ حَتَّـــى مَـــا يحاربُـــهُ وَحَـــاربَ الْفضـــلَ حَتَّـــى مَـا يسالِمُـــهُ

ينتقد ابن تولوا مجتمعه ، لما وصل إليه من حال ، ويحذر من الوقوع في براثن الأشرار فيه ، سيئي الأخلاق ، فهم منافقون بخيلون ذليلون . ويبدو أن الشاعر عاش تجربة أو عدة تجارب مع أناس من المجتمع أساؤوا إليه لدرجة أن يرى أن أغلب مجتمعه هكذا ، أو لا يوجد على الأرض من ترجى مكارمه . ويؤكد حالة اليأس التي يعيشها الشاعر استخدامه لقافية الميم والهاء التي تتناسب مع الأبيات ، فهذان الحرفان يعبران عن الضجر والسخط ، وكذلك اختياره للوزن الذي يتناسق مع القافية ، واللغة الموسيقية المتناغمة يعبر بها عن يأسه من الدهر ، حيث يبدأ كل شطر في الأبيات بذكر صفة حسنة أو سيئة ، ثم يثبت أو ينفي في الشطر الثاني صفة الحسن عن أبناء مجتمعه ، وهذا ما زاد من جمال الموسيقا لديه ، ويبدو أنه حاول أن يعتني أكثر بالموسيقا الشعرية ، حين اختار أن يستخدم التقفية الداخلية ، فيوحد القافية بين غالبية صدور الأبيات وأعجازها .

استخدم الشعراء في العصر المملوكي في نظمهم لأشعار الهجاء أوزان الشعر التي تبين سهولة النظم وخفة الموسيقا ، على رغم أن الغرض الذي نظمت فيه الأبيات هو الهجاء . ونوع الشعراء في استخدامهم للقافية والوزن الشعري ، وكان الشعور بالسخرية والتهكم والهزل في كثير

---

(١) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ٢٢/٢٠ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من مقطوعاتها ، وعبرت معانيها عن عاطفة الشاعر ، وخاطبت آذان المهجو بما يتناسب مع القدر الذي يستحقه من الهجاء .

ولاهتمام شعراء العصر المملوكي بالموسيقا الشعرية ، يعتبر رزق سليم ذلك العصر بأنه : " ... عصر الولوع بالبديع حتى إنه أصبح هو البلاغة في نظر الأدباء . فكان له أثره البالغ في إذكاء الروح الشعرية والمنافسة الأدبية معاً ، إذ كان هم كثير من الشعراء أن يقع خاطرهم على لفظ أو تركيب ينبثق منه معنى جديد مع المجانسة أو المطابقة أو المقابلة أو التورية أو نحو ذلك . ولهذا راج نظم البيتين والثلاثة والمقطوعة ، التي تتضمن أحد المعاني المبتكرة العابرة الجزئية ، والتي تحتوي على ضرب أو أكثر من ضروب البديع "[١] .

ويعتبر ياسين الأيوبي أن استخدام شعراء العصر المملوكي للمحسنات البديعية كنوع للتعبير عن الموسيقا الداخلية فيه إفراط ، فيقول : " ما من عصر أدبي شهد عناية بالغة بالمحسنات البديعية ، لدرجة الإفراط ... ، كالعصر المملوكي . فقد تبارى الكتاب والشعراء في استخدام البديع وتلوينه وتفريعه في جميع أشكال الكتابة ، شعراً ونثراً ، وبتنا لا نقع على نص مكتوب ، في أي نوع من أنواع الكتابة ، إلا وضروب المحسنات البديعية بادية ، ساطعة لا مفر منها ولا مندوحة لأنها أصبحت من مقومات الكتابة وبرهاناً على علو مرتبة صاحبها ، وحجة لا تدفع في وجه من تصدى لدراسة أدب العصر وتقويمه "[٢] .

وسواء أكثر استخدام المحسنات أم قل ، فعند الوقوف على نماذج فن الهجاء في العصر المملوكي ، والتأمل في الموسيقا التي اتبعها الشعراء ، نجد أنه كان هناك قدر كبير من التوافق بين الموسيقا الداخلية والموسيقا الخارجية ، بما يتناسب مع طبيعة الغرض المراد ، حيث مالت الأشعار إلى توحيد الوزن والقافية ، كما اهتمت بالمحسنات ذات الجرس الموسيقي الجذاب ؛ من جناس ، وتصريع ، وتشطير ، وتقفية داخلية ، وغير ذلك . كل ذلك ساهم في إكساب الموسيقا الشعرية قوة وحسناً ، ونفت عن ذلك العصر إدعاء وجود هوة ثقافية فيه ؛ لمقدرة الشاعر على إبراز مخزونه اللغوي وما انطوت عليه تعبيراته من معان ، وحس موسيقي ، وظهر كأداة فعالة في التعبير عن ذوق أبناء عصره وما يلائمهم .

---

(١) رزق سليم : الأدب العربي وتاريخة في عصر المماليك والعثمانيين ، ٦٤ .

(٢) ياسين الأيوبي : آفاق الشعر العربي ، ٤٠٩ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبحث الثالث : الصورة الشعرية (مصادر الصورة – أنواع الصورة) :

تعتبر الصورة الفنية بشكل عام طريقة من طرق التعبير ، لما تحدثه من تأثير قوي ومعنى محسن ومزين ، دون أن تخل بالمعنى الأصلي للنص . ومن هذا المنطلق أجمع البلغاء والنقاد على أهمية الصورة في النص ، لما تضفيه من جمال وتأثير على المعنى ، الذي تحاول لفت الأنظار إليه بمجموعة من الإشارات يستدل عليها القارئ حسب تفكيره وقدرته على إعمال ذهنه ، ليتمكن من الوصول إلى المعنى الأصلي المراد بقدر كبير من المتعة والتشويق(١) .

وفي نشأة الصورة يقول إحسان عباس : " وليست الصورة شيئاً جديداً ، فإن الشعر قائم على الصورة منذ أن وجد حتى اليوم ، ولكن استخدام الصورة يختلف بين شاعر وآخر ، ..."(٢) .

على رغم قلة اهتمام النقد العربي القديم بالعلاقة بين الصور ، إلا أن جمال الصورة الكلية للقصيدة يتضح حين نتلقى الصور أولاً فرادى ثم نعاينها في مساقاتها ، بحيث تصبح العلاقة بين الأجزاء متبادلة ، من خلال اتجاهها الموحد بالقصيدة(٣) .

تعد الصورة الشعرية مجالاً لإبداع الشاعر سواء أكانت كلية ، وهي التي تظهر من خلال البناء ، أم جزئية ، وهي التي تظهر من خلال التشخيص والتجسيم والتوضيح والتجريد وتراسل الحواس ، وتبرز قدرة ونضج الشعر ، وتوضح معالم نفسية الشاعر ، وتعطينا منظراً يزخر بالمعاني الجياشة ، التي اختلطت بعاطفة الشاعر وخواطره ، بكل ما تفعله من بعث الروح في الجمادات ، من خلال صورة حية تدفع إلى الإثارة ، أو بما توضحه ألوانها الزاخرة بما هو محسوس ، وبما تكشفه الصورة من دلالات ، سواء أكانت هذه الصورة تبعث على القبول أو النفور .

تستمد الصورة الشعرية من البيئة المحيطة بالشاعر ، والطبيعة التي تدور من حوله ، والمصادر الثقافية التي يمتلكها الشاعر ، ثم يشكل صورته بألفاظه وخياله وعاطفته . ويعتبر محمد حسن عبد الله أن تلك الأمور هي عناصر الصورة ، فيقول : " إن مخاطبة الحواس ، والتمرد على الدلالة الحرفية ، واكتشاف علاقة ، وتحرك الخيال بين قطبين ، وإدماج الحسي

---

(١) ينظر : جابر عصفور : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، ط ٣ ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ١٩٩٢م ، ٣٢٣ .

(٢) إحسان عباس : فن الشعر ، ط ١ ، دار صادر – بيروت و دار الشروق – الأردن ، ١٩٩٦م ، ١٩٣ .

(٣) ينظر : مصطفى ناصف : الصورة الأدبية ، ط ٢ ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨١م، ٢٥٤ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالمجرد في شكل أو بناء موحد تملأ فيه الثغرة بين القطبية ، تمثل أهم ما ينبغي أن يتحقق في الصورة الشعرية "[١] . وهناك أيضاً عناصر للصورة لا غنى للشاعر عنها ، حيث الحركة المنبعثة من موسيقا ودلالة الألفاظ ، وألوانها المتعارف عليها ، وحجمها ، وموقعها الحسي أو النفسي .

منابع الصورة وعناصرها معاً تعتبر أساسيات تعمل في النهاية على إبراز الصورة ، وترى (الباحثة) أن منابع الصورة تؤثر في الشاعر فيقدم لنا صورته كما تخيلها وأحس بها هو ، أما عناصرها فيكتشفها المتلقي ، سواء أكانت عناصر هذه الصورة كلية تتم داخل بناء متماسك ، أم جزئية تخدم الفكرة العامة للصورة الكلية .

لقد تأثرت الصورة الشعرية بالبيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية الموجودة في العصر المملوكي ، وكان للطبيعة التي عاشها الشعراء أثرها الواضح أيضاً على تلك الصورة ، فنوعوا في استخدامهم لها ؛ ليعبروا بها عما يجول بخاطرهم وأحاسيسهم ، من خلال اعتمادهم على أقسامها الجزئية والكلية . وكانت هناك صور قديمة حافظ البعض عليها وتمسك بها ، وجدد البعض الآخر في استخدامهم لها ، محاولة منهم عدم الوقوف عند صور القدماء فقط ، بل أضافوا ما يتناسب مع التغيرات التي طرأت على عصرهم ، فنسجوا صوراً شعرية جديدة .

ومن الشعراء الذين وقفوا على الصور القديمة ، الشاعر أبو الحسين الجزار في قوله[٢] :

توعدتَ يا عثمانُ بالهجوِ شاعراً سيوليكَ هجواً عارُهُ ليسَ ينجلي
فخذْها قصيداً قدْ أتتكَ منْ محمدٍ كجلمودِ صخرٍ حطَّهُ السَّيلُ منْ عَلِ

أخذ أبو الحسين الجزار الصورة الشعرية كما هي من الشاعر امرئ القيس في وصف الفرس[٣] :

مِكَرٍ مِفَرٍ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً كجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

على رغم استعمال الجزار للصورة نفسها عند امرئ القيس ، إلا أنه وضعها في غرض مختلف عنه ، فهو في معرض الهجو يأتي بها ليفخر بنفسه . وهذا تلاعب جميل من الشاعر في وضعه الصور فيما يتناسب مع الغرض وبلوغ المقصد ، مستمداً من صور القدماء رمزاً للهجاء .

وإذا تأملنا في عبارات هجاء النفس عند أبي الحسين الجزار نلاحظ أنه لم يقف عند حدود القديم ، بل تجاوزها إلى التجديد ، من ذلك قوله[٤] :

---

(١) محمد حسن عبد الله : الصورة والبناء الشعري ، دار المعارف ، القاهرة – مصر ، ٣٨ .
(٢) ابن حجة الحموي : خزانة الأدب ، ٨٧/٢ .
(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ٣٥ .
(٤) الكتبي : فوات الوفيات ، ٢٨٥/٤ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قطعـــــتُ شبيبتـــي وأضعـــتُ عمـــــري ... وقـــدْ أتعبـتُ فـــي الهَذَيـــانِ فكـري
ومـــا لـــي أُجـــــرَةٌ فيـــهِ ولا لـــي ... إذا مـــا تبـــتُ يومـــاً بَعـــضَ أَجـــري
قـــــرأتُ النَّحـــــوَ تِبيانـــاً وفَهمـــاً ... إلـــى أن كُعْـتُ منـــهُ وضـــاقَ صـــدْري
فمـــا استنبطـــتُ منـــهُ ســـوى مُحـــالٍ ... يُحـــالُ بـــهِ علـــى زيـــدٍ وعمـــرو
فكـــانَ النصـــبُ فيـــهِ علـــيَّ نصبـــا ... وكـــانَ الرفـــعُ فيـــهِ لغيـــرِ قـــدْري
وكـــانَ الخفـــضُ فيـــهِ جُـــلَّ حظِّـــي ... وكـــانَ الجـــزمُ فيـــهِ لقطـــعِ ذكـــري
وفـــي علـــمِ العَـــروضِ دخلـــتُ جَهـــلاً ... وعُمْـــتُ لخفتـــي فـــي كـــلِّ بحـــرِ
فأذكرنـــي بـــه التفصيـــلُ بيتـــا ... تضمـــنَ نصفَـــهُ الشيـــخُ المَعَـــرِّي
مفاعَلَتُـــنْ مفاعَلَتُـــنْ فَعولُـــنْ ... " حديـــثُ خُرافـــةٍ يـــا أمَّ عمـــرو "
وكـــمْ يـــومٍ ببيـــعِ اللحـــمِ عنـــدي ... يُعـــدُ مـــنَ البـــوارِ بألـــفِ شهـــرِ
ولمـــا أنْ غـــدا لا بيـــعَ فيـــهِ ... مـــع الميـــزانِ أشبـــهَ يـــومَ حشـــرِ
ودكـــانـــي جهنـــمُ إذ زُبـــونـــي ... زَبانيـــةٌ بهـــمْ تعذيـــبُ سِـــري
وفيهـــا زفـــرةٌ مـــنْ غيـــرِ لحـــمٍ ... وقـــدْ وضِعـــتْ سِلاسلُهـــا بِنحـــري
وقـــدْ طـــالَ العـــذابُ علـــيَّ فيهـــا ... لِمـــا قَـــدَّمـــتُ مـــنْ نحـــسٍ ووِزرِ
فـــإنْ لامَ العـــذولُ أقـــولُ دعنـــي ... أنـــا فـــي ضَيعـــةٍ فـــي وسْـطِ عُمـري

استهل الشاعر أبياته بذكر ضياع العمر ، وأنهى هذه الأبيات مستخدماً اللفظ نفسه (أنا في ضيعة في وسط عمري) ، ثم انتقل لتوضيح السبب في ذلك الشعور بعدة صور ، فأخذ ما يختص به علم النحو من رفع ونصب وجر وجزم ، ووظفه ليعبر به عن حظه وقدره في صورة جديدة ، ثم انتقل إلى علم العروض وأخذ يعوم في بحوره ليبين حالة التيه التي يعيشها ، ثم انتقل لينتقي صوراً من القرآن الكريم ، فاستخدم معانيها ليعبر بها عن فقره وسوء معيشته ، فيشبه دكانه بجهنم ، ويشبه زبائنه بالزبانية . ويبدو أن الشاعر بالغ في تقديم الصورة الكلية من خلال البناء القصصي للأبيات السابقة التي عبر بها عن نفسه وحاله ، ليجسد من خلالها أفكاره وانفعالاته الكامنة ، وهذا من وظائف الصورة الشعرية ، يقول جابر عصفور : " إذا كانت الصورة تساهم في عملية إقناع المتلقي ، والتأثير فيه عن طريق شرح المعنى وتوضيحه ، فإنها تحقق الغاية نفسها عن طريق المبالغة في المعنى . والصلة بين المبالغة والشرح والتوضيح صلة وثيقة ، ذلك أن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبالغة تعد وسيلة من وسائل شرح المعنى وتوضيحه عندما يراد بها مجرد تمثيل المعنى أو تأكيد بعض عناصره المهمة "[١] .

ومما ثبت من شواهد على التجديد في استخدام الصورة الشعرية بما يتناسب مع بيئة العصر المملوكي ، قول البهاء زهير في بغلة صديقه[٢] :

لـــــك يـــــا صديقـــــي بغلـــــةٌ لـــيـــســـت تـــســـاوي خَـــردلـــةْ
تـمـشـــي فتحسبُـــهـــا العـيـــو نُ عـلـــى الطريـــقِ مشكَّـلـــةْ[٣]
مـــقـــدارُ خُـطوتِـهـــا الـــطـــو يـلـــةِ حيـــنَ تـســـرعُ أنْـمُـلـــةْ
تـــهـتـــزُ مـــنْ مـكـــانِـهـــا فـكـــأنَّـــمـــا هـــي زَلـــزلـــةْ

عبر الشاعر عن هجائه لبغلة صديقه بصورة كلية متناسقة في البناء القصصي ، ترمز إلى الفقر، وتظهر في ثناياها سوء الأوضاع في العصر المملوكي ، وذلك بما يتماشى مع الطبيعة التي استمد منها الشاعر صورته ، فتجلى لنا هجاء هذه البغلة بصورة هزلية تكشف عن حالها ، مستهلاً أبياته بكلمات ودية لصديقه تنم عن تعاطفه معه ، موجهاً إليه خطابه ، وراسماً له صورة تشبيهية حية لبغلته ، ربما لم يكن ليعلمها هو بهذا القدر من التصوير الحي والبارع من الشاعر لو لم يبين له صاحبه هذه الصور المتلاحقة فيها ، ليصل إلى صورتها الكلية ، التي برزت في اختصاره لها في بداية الحديث عنها حين قال : " لا تساوي خردلة " ، ثم فصل فيها بصور جزئية، بألوان عديدة من التشبيه ، فمرة يشبهها بالخردلة ، ومرة وكأنها مقيدة، ومرة بالأنملة، ومرة أخرى بالزلزلة .

وفي مشهد تصويري آخر استغرق الشاعر في تفاصيله ، ليصل في النهاية إلى صورة متكاملة استمدت من ثقافة الشاعر في علوم اللغة العربية ، فنرى البهاء زهير يهجو صاحباً له وثق به ، ولم يكن أهلاً لهذه الثقة ، فيقول[٤] :

وصاحـــــبٌ جعلتُـــــهُ أميـــــري شـــــارِكَ منِّـــي موضـــعَ الضَّميـــرِ
أودعْتُـــــهُ الخفـــيَّ مـــنْ أمـــوري فكـــانَ مثـــلَ النَّـــارِ فـــي البُخـــورِ
صحبْتُـــــهُ ولـــمْ يكـــنْ نَظيـــري قدَّمْتُـــهُ وهـــو يـــرى تأخيـــري

---

(١) جابر عصفور : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، ٣٤٣ .

(٢) ديوان البهاء زهير ، ١٤٩ .

(٣) مشكلة : مقيدة . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (شكل) .

(٤) ديوان البهاء زهير ، ٩٢ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يَغضـــــــبُ إذْ جعلْتُـــــــهُ تَكثيـــــــري كمـــــا تُـــــزادُ اليـــــاءُ فـي التَّصغيـرِ

جال الشاعر في علوم النحو ليهجو بها صاحبه الذي خانه ، فصوره بعدة صور تبرز الصورة النهائية لصاحبه وهي الخيانة ، أبرزها الشاعر من خلال البناء القصصي للأبيات ، بصور عديدة استوحت مصادرها من ثقافة الشاعر ، فأخذ يشكل منها صوره ، فيضعها في (موضع الضمير)، ويلونها بألوان الطبيعة (مثل النار في البخور) ، ويحركها كما يريد ، ويكثرها (كما تزاد الياء في التصغير) . فجاء ابتداع الشاعر للصورة من خلال توظيف المصطلحات العلمية ، مما عبر عن اتساع علم الشاعر ، وهذا يعتبر حجة على من يدعي ضعف اللغة العربية في العصر المملوكي .

وحاول النور الإسعردي تقديم صورة كلية تحمل توضيحاً لموقف الشاعر من الحشيش ومن يتعاطاها ، فبدأ أبياته بتقديم النصح لصديقه بعبارات ودية مهد لها بالغرض الذي يريده ، ثم بين شناعة الحشيش فشبهه حين يتعاطاه بالبهيمة التي تأكل الحشيش اليابس [١] :

فديتـــكَ نـــورَ الحـــقِّ قـــدْ لاحَ فاهتـــدِ نديمـــي وكـــنْ فـــي اللهـــوِ غيـــرَ مقَلـــدِ

أترضـــى بـــأنْ تمشـــي شبيـــهَ بهيمـــةٍ بأكـــلِ حشيـــشٍ يابـــسٍ غيـرَ أرغـــدِ

فـــدعْ رأى قـــومٍ كالـــدوابِ ولا تـــــدرِ ســـوى درةٍ كالكوكـــبِ المتوقـــدِ[٢]

ركز الشاعر على صورتين في الأبيات السابقة ، فبرزت الصورة الأولى في التنفير من الحشيش قبل تناولها ، والصورة الثانية في تصوير الذين تناولوها فعلاً فأصبحوا كالدواب جهلة لا يعقلون شيئاً . وهنا استمد الشاعر صورته من البيئة التي تناسب عامة الناس ، ومن الطبيعة الماثلة من حوله ، وقد أكثر الشاعر من الصور الجزئية في أبياته لتسهم في تصوير مساوئ الحشيش ، وتجعل المتلقي نافراً منها .

وامتدت الصورة الكلية عند الشاعر ابن تولوا ، فطرح عدة صور جزئية يهجو فيها شيخاً فاسقاً دعاه للفسوق فأجابه دون اقتناع ، مع علمه بمدى فسق هذا الشيخ ، ويصور ذلك في أبياته ، فيقول[٣] :

يَـــا رُبَّ شيـــخٍ دَعَانـــي للفســـوقِ بِـــهِ فَجِئْتُـــهُ غيـــرَ مســـرورٍ وَلَا راضـــي

علمـــاً بِأَنِّـــي سألقـــى مِنْـــهُ شَائِبَـــةً قضـــى عَلَيْهَـــا بِـــذُلٍ دَائِـــمٍ قَاضِـــي

كَأَنَّهَـــا فَـــمُ شيعـــيٍّ شواربـــهُ شابـــتْ وَمـــا مَسهـــا يَوْمـــاً بمقـــراضِ

---

(١) الكتبي : فوات الوفيات ، ٢٧٤/٣ .

(٢) الدرة : هي اسم در ، وأصل الدر في كلام العرب اللبن . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (درر) .

(٣) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ٢٢/٢٠ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عمد الشاعر إلى تصوير مظهر من مظاهر السوء في مجتمعه ، من خلال تجربته الذاتية ، فيصور مظهر الفسق ومدى انغماس الشيخ فيه بمظهر آخر في مجتمعه ، وهو ترك الشيعة لحلق الشوارب رغم ظهور الشيب فيها ، كمحاولة منه للتنفير من الصورتين معاً ، والبعث على الإشمئزاز والتقزز منهما ، ولكي يصل إلى مراده مال إلى الصورة الحسية التي تموج بالحركة ، وكان لاستخدامه كلمتي (شيخ) و (شاب) دلالات على الفسق على رغم الكبر ، مما يمكنه أن يعمق الصورة المنفرة التي سعى الشاعر إلى تقديمها .

كذلك استخدم الشاعر الصورة الكلية في البناء التوقيعي ، فلم تتعد هذه الصورة البيتين ، وذلك في مشهد تصويري متكامل يجمع بين أكثر من غرض شعري ، كهجاء ابن نباته للعاذل وغزله في المحبوبة ، كما في قوله[١] :

أيهـــا العـــاذل الغبـــيُّ تأمَّـــــل مَـــنْ غـدا فـي صفاتِـهِ القلـبُ ذائـبْ
وتعجـــــبَ لطَّـــــرةٍ وجبيـــــنٍ إنَّ فـــي اللَّيـــلِ والنَّهـــارِ عجائـــبْ[٢]

جمع ابن نباته في أبياته بين الهجاء والغزل ، فهو يهجو العاذل ويطالبه بالتأمل في محبوبته ويتعجب . وفي استخدام الشاعر للصورة في الأبيات السابقة براعة ، فهو يوجه خطابه لمهجوه ، ثم يسهب في الحديث عن محبوبته ، ويطلب من السامع أن يتعجب ، فيهيم في الخيال ليبحث عن هذا العجب في صفات محبوبته وفي عجائب الليل والنهار ، أما الصور الجزئية فظهرت من خلال الاستعارة حين شبه القلب بشيئ يذوب .

ويرفض الإسعردي إنشاد ما ينظمه من أبيات لمن هو جاهل بها ، أو لمن لا يستحقها ، فيجمع بين عبارات الهجو لمن لا يعرف قدرها ، وبين عبارات الفخر لناظمها ، كما في قوله[٣] :

لمـــنْ أبـــوحُ بشعـــري حيـــنَ أنظمُـــهُ أم مـــنْ أخْفـــي بمـــا فيـــهِ مـــنَ الزَبـــدِ
أمـــا جهـــولٌ فـــلا يـــدري مواقعَـــهُ أو فـــاضٍ فهـــو لا يخلـــو مـــنَ الحَســـدِ

إذا نظرنا إلى الصورة التي برزت في الأبيات نجد الجمال التصويري فيها من خلال الصورة الكلية ، التي اتخذت شكل البناء التوقيعي ، ثم انتقل الإسعردي إلى الصور الجزئية ، فصور شعره بثلاث صور معبرة ، فيها الزبد ، وجهول لا يميزها ، وفاض يحسدها . جميع هذه الصور بما فيها من بلاغة على رغم ما احتوته من عبارات الهجاء ، تصب في قالب واحد وهو فخره بنظمه . ونلاحظ

---

(١) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ، ٦٠٥/١٩ .

(٢) طرة : طرف . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (طرة) .

(٣) الكتبي : فوات الوفيات ، ٦١/٤ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فيها عناصر عديدة للصورة ، فقد يشتم شخص رائحة الزبد ، أو يتذوق طعمه ، ويدور آخر ليبحث عن مواقع شعره ، ويقف غيره موقف العاجز لا يمتلك غير الحسد .

وهناك صور شعرية جزئية سلط الشاعر الضوء عليها ليصف فيها أحداثاً وقعت في عصره، من خلال هجائه لشهر كانون في فصل الشتاء وثلجه الكثيف المكفهر ، تمثلت في قول ابن العفيف التلمساني[١] :

يـــا شهـــرَ كانـــونَ أمرَضـــتَ الغصونَ ومُذْ أمَّتهـــــا لبِســـــتْ أنوارُهـــــــا حُزنـــــا
والمُـــزنُ غسَّلهـــــا مـــــنْ مـــاءِ أدمُعِـــهِ والثَّلـــجُ حـــاكَ لها مـــــنْ نسجِـــهِ كَفنـــا[٢]

تفاعل الشاعر مع الكوارث الطبيعية التي عايشها ، فأكثر من الاستعارات في تصوير الشتاء في أصعب أوقاته ، في وقت كثر مرض الناس فيه ، وأدي إلى موت الكثيرين ، فغسل الموتى بالمطر، وكفنوا في الثلج ، وفي حين يفرح الناس بسقوط الأمطار والثلوج ، رسم الشاعر صورة أخرى تكشف عما أدت إليه كثرة سقوط الأمطار والثلوج في هذا الشهر ، وكثرة سقوط الموتى ، فاستعار لباس الحزن لهذه الأمة ، كما استعار المطر ليغسل الموتى بماء الدمع ، واستعار الثلج لينسج الكفن حولهم . صور جديدة حزينة مؤلمة صب الشاعر فيها جل غضبه على هذا الفصل ، وخصه بشهر كانون ، وحملت الصورة الكلية في النهاية صورة نامية تتابعت فيها الأحداث حتى وصلت إلى النهاية المؤلمة ، فاشتملت هذه الأحداث على الكثير من الصور الجزئية التي توحي بحزن الشاعر الشديد على ما أصاب الناس جراء هذه الكوارث ، فجاءت الصور الخيالية متوافقة مع الحالة الشعورية التي يعبر بها الشاعر ، وهي حالة الحزن الشديد .

وتناول صفي الدين الحلي الصورة الكلية حينما هجا حمَّاماً في صورة من أبرز صور الهجاء ، استمدت من بيئة العصر ، وهي تلك الحمَّامات ، التي كانت مظهراً من مظاهر حياة العامة[٣] :

إنَّ حـــمَّـــامَـــكَ قـــــدْ ضَـــــــ مـــــتْ حَميـمـــــاً وحِمـــامـــــا
فهـــــي مثـــــلُ النَّـــــارِ ســـــاعتْ مُـــستـــــقـــــراً ومَـــقـــامـــــا

اقتبس الشاعر الصورة الشعرية للحمَّام من صورة النار في القرآن الكريم ، فكان القرآن مصدراً يستمد الشاعر منه صوره الشعرية ، وقد أبدع الشاعر في وضع تصويره في محله المناسب ،

---

(١) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ، ٢٧٧/١٦ .
(٢) المزن : المطر . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (مزن) .
(٣) ديوان صفي الدين الحلي ، ٤٥٦ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فهو حين يستقر في هذا الحمَّام مثل استقرار الكافر في نار جهنم ، لا يجد فيها إلا حميماً ، ولم يكن هذا التشبيه إلا ليعبر به الشاعر عن مشاعره الخاصة عند مكوثه في هذا المكان ، فجاء به ليوضح به مدى عذابه فيه .

وأخذ الشاعر صوراً أخرى من قصص القرآن الكريم ، فنجد سراج الدين الوراق يهجو المصائب التي تلم به من كل ناحية بقوله مستعطفاً[١] :

مـــولاي لاقتنـــي الخُطـــوبُ بأوجـــهٍ صُلِبـــتْ وظنِّـــي أنَّهـــا جُلمـــودُ
هيهـــاتَ بـــلْ هـــي مـــنْ حديـــدٍ لـــمْ تكـــن لتليـــنَ لـــي ولـــو أنَّنـــي داودُ

جسد الشاعر صورة الخطوب في واقعه ، فصورها بإنسان يلقى غيره بعدة وجوه ، كلها تعبر عن الصلابة ، فكانت مرة كجلمود صخر ، ثم تيقن أنها من حديد لا يلين ، مع أن الله ألانه لداود . وهكذا اقتبس الشاعر صوره من قصص القرآن الكريم ، مما يدل على ثقافته الدينية ، ومقدرته على توظيفها في أشعاره .

ويشكو ابن نباتة من ليله البطيء ، فيتخذ من الطبيعة لوحة فنية رائعة يرسم لنا فيها صورته مستخدماً ألفاظاً غير عربية يعرفها الناس في عصره ، مما ينم عن براعة شاعر العصر المملوكي[٢] :

مَـــا بَـــالُ ليلـــي لا يسيـــرُ كَأنَّمـــا وَقَفَـــتْ كَواكِبُـــهُ مِـــنَ الإعْيـــاءِ
وكَأنَّمـــا كِيـــوانُ فـــي آفاقِـــهِ أعمـــى يُسائـــلُ عَـــنْ عَصـــا الجَـــوزاءِ[٣]

وظف الشاعر الصورة الكلية في الأبيات ورسم لوحة تصويرية ، حيث شخص عناصر الطبيعة وبث فيها أحاسيسه ، وجسد المعاني التي أراد التعبير عنها ، فرسم لليله صورتين ، الأولى بالكواكب التي توقفت عن الحركة ، ثم يصوره بكوكب معتم يبحث بعصاه عن أبراج السماء .

ويشكو ابن النقيب حاله ونفسه وفقره ، متخذاً صوره من الطبيعة ، فرسم صورة لفقره بكلمات تجعلك تشعر بالأسف على حاله ، كقوله[٤] :

أعملـــتُ نفســـي فـــي السمـــاءِ وقـــدْ بدا فيهـــا هـــلالٌ جسمُـــهُ منهـــوكُ

---

(١) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ، ١٣٠/١٩ .

(٢) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ، ٥٧٠/١٩ .

(٣) كيوان : كلمة فارسية تعني كوكب زحل . ينظر : النويري : نهاية الأرب ، ٣٩/١ . الجوزاء : من بروج السماء . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (جوز) .

(٤) الكتبي : فوات الوفيات ، ٣٢٦/١ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فكأنَّمـــــا هـــي شقَّـــــةٌ ممـــــدودةٌ وكأنَّـــــهُ مـــــنْ فوقِهـــــا مكُّـــوكُ[1]

تفنن الشاعر في تصويره ، فترك العنان لخياله ليجول في عالم الفضاء ، فشبه رقوده يفترش الأرض والسماء ، ويثني ركبتيه من شدة البرد والتعب ، بالهلال في تقوسه في السماء ، موضحاً موقعه منها ، وكأن السماء شقة يعيش فيها ، وهو مكوك يمكن له أن ينثني أو يتمدد فيها في حركات عديدة ، وسر جمال هذه الصورة استمدت من الطبيعة والبيئة معاً ، فالشاعر يأخذنا لنهيم في الصورة التي أبلغنا أنه هو من اصطنعها حين قال : (أعملت نفسي) ، وكأنه يرسم لوحة جميلة ، ويشرح بنفسه ما يقوم به من خلال رسمه للطبيعة وتصويره لسوء حاله .

ويهجو ابن دانيال نفسه في صورة جزئية أخرى يشبه حاله بالكلب ، وقد وقف على دار أهل العرس دون أن يستطيع الدخول بعد أن دعي له ، فيقول[2] :

دعوتنـــي للعـــرسِ يـــا سيـــــدي فكـــدتُ أنْ أحضـــرَ مـــنْ أمـــسِ

وهـــا أنـــا الليلـــةَ فـــي دارِكـــمْ فالكلـــبُ مـــا يهـــربُ مـــنْ عـــرسِ

استغل ابن دانيال الموقف الذي حصل معه ليشكو فقره ، فهو يقف بالباب من الأمس ليحضر هذا العرس ، ويحصل على ما يقدم فيه من طعام ، ويشبه نفسه بالكلب ، فالكلب يسارع إلى الأكل ولا يهرب منه ، فجاء بهذا التشبيه ليوضح ما به من حال ، فوصلت الصورة النهائية من خلال هذا التتابع السريع للأحداث ، ساعد وجود حرف الفاء والواو على تواليها وتتابعها ، ومثلت في الختام صدق المعاناة نتيجة هذا الفقر .

ويقدم لنا ابن دقيق العيد صورة لعالم ظن الناس أنه فاضل وهو ليس كذلك ، ويورد لنا الحوار الذي دار بينه وبين المخدوعين فيه ، فيقول[3]:

قالـــوا فـــلانٌ عالـــمٌ فاضـــلٌ فأكْرمـــوهُ مثـــلَ مـــا يَرْتَضـــي

فقلـــتُ لمـــا لـــمْ يكـــنْ ذا تُقـــى تعـــارضَ المانِـــعُ والمُقْتَضـــي

فهنا صورة جديدة لعالم يرى فيه الناس الفضيلة ، ويرى فيه ابن دقيق العيد الرذيلة ، فهنا الصورة تتعارض بين المدح والهجاء ، وهي صورة رائعة لم يكشفها الشاعر مباشرة ، إنما يمكن استيحاؤها بتخيل الاهتزاز الحاصل في حركة الصورة نتيجة هذا الخلاف أو اللبس .

---

(١) مكوك : مفرد مكاكيك وهو المد ، أو صاع ، ويستخدم كاسم للمكيال . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (مكك) .

(٢) الكتبي : فوات الوفيات ، ٣٣٥/٣ .

(٣) الحنبلي : شذرات الذهب ، ١٣/٨ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عالج الشعراء من خلال الصورة الشعرية الكثير من القضايا التي برزت في عصرهم ، فجنحوا إلى التعبير عنها بشتى أنواع التصوير ، وتفننوا في ابتداع الصور التي تناسب المواقف المرفوضة المهجوة ، فجسدت هذه الصور أفكار الشعراء وخيالهم وانفعالهم ، كما حاولوا الابتعاد عن التعقيد في رسمهم لها ، ومالوا إلى استخدام الصور التي تصل إلى المهجو بسهولة ووضوح، وحاولوا التركيز في اختيارهم على إبراز صفة الهزل والسخرية والتهكم فيها ؛ ليكون لها أثرها البالغ على الشخص المراد . كذلك شكلت غالب الصور الشعرية الطبيعة والبيئة في العصر المملوكي من خلال وسائل عديدة كالحس والخيال ، لتظهر مدى الارتباط الوثيق بين الشاعر وبيئته ، وحرصه على الاطلاع على مصادر عصره ليستوحي منها صوره ، والعمل على تضمينها في أشعاره ، مع التمايز بين الشعراء في قوتهم على توظيف الصورة ، بحسب الموهبة والخيال وحدود الثقافة لديهم . واستطاع الشاعر أن يرسم لنا الصورة التي يراها هو في المهجو بما لديه من خيال تصويري ، ساعده على ذلك موهبته وثقافته ، فجاء جمال شعره مرتبطاً بما لديه من مقدرة على إبراز ذلك بأسلوب بارع ، وصور رائعة ، وخيال واسع .

ولم يهمل الشاعر من كان لهم السبق في التصوير الشعري ، فأخذ من الشعراء القدامى ، واقتبس من صورهم ، إلا أنه تحرر من قيودها في مواطن عديدة ، وجد مكاناً مناسباً لها ، فأضاف إليها من لمساته الخاصة صوراً بارعة استطاعت أن تجمل القصيدة .

بعد الجولات السابقة في الصورة الشعرية في أشعار الهجاء عند الشعراء في العصر المملوكي ، يمكننا الإيجاز في وصف المحطات التي تم التوقف عندها لمشاهدة صورها ، فكانت هناك مشاهد للصور تشكلت من صور القدماء ، ومشاهد أخرى من صور القرآن ، ومشاهد من البيئة ، ومشاهد من الطبيعة ، ومشاهد من الثقافات المتنوعة عند كل شاعر ، بالقدر الذي يمتلكه ، كذلك اعتمد الشاعر على الصورة الكلية من خلال البناء القصصي والتوقيعي ، واهتم بإبراز الصور الجزئية التي تتناسب مع أحاسيسه وانفعالاته ، فوصلت إلينا هذه الصور تصف عصراً غاب عن الوصف ، فحملت براعة الشعراء في فن الهجاء .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، الحمد لله الذي ينير عقول البشر ، الحمد لله الذي بفضله يتم العمل .

بعد الجهد المتواضع الذي بذلته في دراسة شعر الهجاء في العصر المملوكي ، والذي قسمت فيه البحث إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة .

- تناولت المقدمة أهمية البحث ، وجهود السابقين ، وغاية البحث ، ومنهجه .
- وفي التمهيد كانت الدراسة في (البيئة العامة للعصر المملوكي) ، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية .
- وتناول الفصل الأول (الهجاء القبلي) ، فبدأته بتوطئة لأسباب غياب الهجاء القبلي والجماعي فيه ، ثم في المبحث الأول تمت دراسة هجاء النفس والشكوى من الفقر ، وفي مبحثه الأخير درست الهجاء الهزلي .
- أما الفصل الثاني (الهجاء السياسي والاجتماعي) ، فقد اشتمل على أربعة مباحث ، درست في المبحث الأول هجاء المدن ، وفي الثاني هجاء رجال الدولة ، ثم في الثالث الهجاء المذهبي والديني ، وأخيراً النقد الاجتماعي .
- وفي الفصل الثالث (الدراسة الفنية) ، قسمت هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث ، عالجت في المبحث الأول اللغة والأسلوب ، ثم انتقلت في الثاني إلى الموسيقا بنوعيها ، ثم عرجت على الصورة الشعرية في المبحث الثالث .
- وذيلت الدراسة بخاتمة لخصت فيها أبرز نتائج البحث التي توصلت إليها ، والتوصيات التي طرحتها ، تلتها قائمة بالمصادر والمراجع ، ثم فهرس الموضوعات ، وأنهيت البحث بملخص باللغة العربية مترجماً إلى اللغة الإنجليزية .
- وأخيراً أستعرض أهم النتائج التي توصلت إليها كما يلي :

- اتسم شعر الهجاء في العصر المملوكي بتعدد أغراضه وكثرة موضوعاته ، كما اشتمل على العديد من الأمور التي تكشف عن مدى وعي الشاعر بما يدور حوله من أمور وأحداث ، وقد أكثر الشاعر فيه من الاعتماد على مصادر ثقافية ودينية وعلمية تظهر مدى وعيه وعلمه .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- حملت أغراض الهجاء دلالات اجتماعية تنم عن الصلة الوثيقة بين الشاعر وبيئته ، ومدى ارتباطه وتأثره به ، وعمله على إبراز عيوبه ليتمكن من إصلاح هذه العيوب أو القضاء عليها .
- لم يترك الشاعر صغيرة ولا كبيرة إلا وتعرض لها ، عندما وجد أنه لابد منها ، فهجا نفسه ليكشف عيوبها، وشكا فقره ليخبر عن حاله ، وهجا المدن ليبث آلامه ، وهجا رجال الدولة ليعبر عن أوضاعه ، وهجا المذاهب الدينية ليظهر الانقسام في عصره ، وانتقد مجتمعه محاولة لإصلاحه .
- كان لابد للشاعر من العمل على إيصال غرضه بصورة فنية معبرة ومؤثرة ومثيرة ، فلوحظ ولوع الشعراء بالبديع وكثرة وجوده في أشعارهم ، واستطاع الكثير من الشعراء إبراز جمال الموسيقا الشعرية وإن كانت في أقذع حالات الهجاء ، كما لوحظ وفرة الصور المستمدة من مصادر العصر ، والتي تركت أثراً واضحاً على فن الهجاء .
- اتخذ الهجاء في العصر المملوكي شكل البناء القصصي ، التي اعتمدت في بنائها على الهزل والسخرية والميل إلى تشويه صورة المهجو من خلال تصوير عيوبه الهجائية.
- تميزت المقطوعات الهجائية بالتركيز والإيجاز ، فقد أظهر الهجاؤون قدرة فائقة وبراعة لغوية في إيصال أفكارهم والتعبير عن معانيهم ، وبلوغ مقاصدهم بأبيات قليلة ، ليتم الشاعر معناه ويبلغ مرامه من النظم ، دون أن يجد نفسه مضطراً إلى المزيد من الألفاظ، حيث أن البلاغة هي الإيجاز .
- حملت بعض أشعار الهجاء أغراضاً أخرى بجانب فن الهجاء ، كالفخر والغزل والمدح ، فكان الشاعر أحياناً يبدأ بالمدح ثم يسهب في هجاء النفس والشكوى من حالة الفقر لديه ، أو ينتقد مجتمعه . وبرز ذلك كثيراً عند البوصيري .
- لم تبدأ الأبيات بالمقدمات التي عرفت بها قبل العصر المملوكي ، وبرزت بعض المقدمات الخاصة بالشاعر ، إلا أن أغلب النماذج استهلت أبياتها مباشرة بالهجاء ، دون الحاجة إلى مقدمات ، ليكون أسرع في الوصول إلى السامع ، وأيسر للفهم ، وأقرب للحفظ .
- وجهت معظم قصائد الهجاء إلى عامة الناس ؛ لذا تميزت لغة الشعر في معظم الشواهد بالسهولة وعدم التكلف والبعد عن التعقيد ، كما استخدم الشاعر في لغته ما يتناسب مع مقاييس الذوق الأدبي في العصر الذي يعيشه .
- برزت ألفاظ عند بعض الشعراء تدلل على صور الهجاء العفيف .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- استوحى الشاعر من المصادر الموجودة في بيئته ، كل بحسب اطلاعه وثقافته ، ما يخدم غرضه في الهجاء ، ووظفه في أشعاره الهجائية في بنائه لقصائده ، وفي صوره الفنية ، ليستطيع من خلالها التعبير عن انفعالاته ونفسيته ومشاعره .

التوصيات :

١- تحقيق المزيد من مخطوطات ودواوين الشعراء في العصر المملوكي لتعرف كنوز هذا العصر . ومحاولة بعث النصوص الأدبية والشعرية غير المنشورة وإحيائها .

٢- استخلاص العبر التاريخية من هذا العصر وما كان يجول فيه من حروب وتموجات لربما نستفيد منها في مسيرتنا في هذا العصر .

٣- عمل دراسة مقارنة بين فن الهجاء في العصر المملوكي وبين مختلف العصور ؛ للوقوف على كنوز هذا العصر ؛ الذي أجحف البعض في حقه ، حيث إنه عصر مفصلي تلا العصر الأيوبي عصر الحروب والنزاعات ، وفي نهايته كان مقدمة للعهد العثماني .

٤- دراسة الأسلوب اللغوي عند شعراء العصر المملوكي ؛ لتكون حجة على من ينادي بضعف لغة الشعراء .

أسأل الله الحفيظ أن أكون قد وفقت في البحث ، وأن تكون هذه الدراسة عملاً يشفع لى عنده يوم الشفع ، وينفع به المهتمين بالأدب العربي في عصر من عصوره .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر والمراجع القديمة :

- إبراهيم بن محمد البيهقي (ت٣٢٠هـ/٩٣٢م) : المحاسن والمساوئ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، د.ت .
- ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م) : إنباء الغمر بأنباء العمر ، تحقيق حسن حبشي ، القاهرة ، ١٩٩٤م .
- ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ/١٤٤٩م) : رفع الإصر عن قضاة مصر ، تحقيق علي محمد عمر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، **د.ت .**
- ابن حمدون (ت٥٦٢هـ/١١٦٧م) : التذكرة الحمدونية ، تحقيق إحسان عباس وبكر عباس ، ط ١ ، دار صادر ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٦م .
- ابن خلدون (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) : تاريخ ابن خلدون ، تحقيق خليل شحادة ، ط ٢ ، دار الفكر ، بيروت – لبنان ، ١٩٨٨م .
- ابن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ/١٠٧١م) : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط ٥ ، دار الجيل ، بيروت – لبنان ، ١٩٨١م .
- ابن فضل الله العمري (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ط ١. ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي – الإمارات ، ٢٠٠٢م .
- ابن ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م) : معجم الأدباء ، تحقيق إحسان عباس ، ط ١ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٣م .
- أبو العباس شمس الدين بن خلكان (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت – لبنان ، د.ت .
- أبو الفتح اليونيني (ت٧٣٦هـ/١٣٣٥م) : ذيل مرآة الزمان ، ط ٢ ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٩٢م .
- أبو الفداء اسماعيل بن عمر ابن كثير (ت٧٧٤هـ/١٣٧٣م) : البداية والنهاية ، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي ، ط ١ ، دار هجر للطباعة والتوزيع والإعلان ، ١٩٩٨م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- أبو الفضل أحمد ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م) : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، دار الجيل ، بيروت ، د.ت .
- أبو الفلاح عبد الحي بن عماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م) : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تحقيق محمد الأرنؤوط ، ط ١ ، دار ابن كثير ، دمشق – بيروت ، ١٩٩١م .
- أبو القاسم جار الله الزمخشري (ت٥٣٨هـ/١١٤٣م) : أساس البلاغة ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩م .
- أبو جعفر الطبري (ت٣١٠هـ/٩٢٢م) : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ٢ ، دار المعارف ، القاهرة – مصر ، د.ت .
- أبو حفص زين الدين ابن الوردي (ت٧٤٩هـ/١٤٤٨م) : تاريخ ابن الوردي ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٦م .
- أبو عثمان الجاحظ (ت٢٥٥هـ/٨٦٩ م) : البيان والتبيين ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، د.ت .
- أبي الفرج قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ/٩٤٩م) : نقد الشعر ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان .
- أحمد بن علي القلقشندي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م) : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، مطبعة الأميرية ، القاهرة – مصر ، ١٩١٤م .
- تقي الدين ابن حجة الحموي (ت٨٣٧هـ/١٤٣٤م) : خزانة الأدب وغاية الأرب ، تحقيق عصام شعيتو ، دار ومكتبة الهلال ودار البحار ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٤م .
- تقي الدين المقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) : السلوك لمعرفة دول الملوك ، القسم الثاني ، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة ، ط ٢ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٧م .
- تقي الدين المقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي ، ط ١ ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩٨م .
- جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ/١٥٠٥م) : تاريخ الخلفاء ، ط ١ ، دار ابن حزم بيروت – لبنان ، ٢٠٠٣م .
- جمال الدين ابن منظور (ت٧١١هـ/١٣١٢م) : لسان العرب ، ط ٣ ، دار صادر ، بيروت ، د.ت .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- جمال الدين بن تغري بردي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م) : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، تحقيق محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د.ت .
- جمال الدين بن تغري بردي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تقديم وتعليق محمد حسين شمس الدين ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت– لبنان ، ١٩٩٢م .
- الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ/١٠٧١م) : تاريخ بغداد وذيوله ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٦م .
- خير الدين الزركلي (ت١٣٩٦هـ/١٩٧٦م) : الأعلام ، ط ٥ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٠م .
- ديوان البهاء زهير (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م) ، شرح وتحقيق محمد طاهر الجبلاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ٢ ، دار المعارف ، القاهرة – مصر .
- ديوان البوصيري (ت٦٩٤هـ/١٢٩٤م) ، شرح وتقديم أحمد حسن بسج ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٥م .
- ديوان التلعفري (ت٦٧٥هـ/١٢٧٧م) ، تحقيق وتقديم رضا رجب ، ط ٢ ، دار الينابيع ، دمشق ، ٢٠٠٤م .
- ديوان الشاب الظريف (ت٦٨٨هـ/١٢٨٩م) ، طبع بنفقة لطف الله الزهار ، المطبعة الأدبية ، بيروت ، ١٨٨٥م .
- ديوان صفي الدين الحلي (ت٧٥٠هـ/١٣٤٩م) ، مطبعة حبيب أفندي خالد ، دمشق ، ١٢٩٧م .
- شمس الدين الذهبي (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م) : سير أعلام النبلاء ، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط ، ط ٣ ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٥م .
- شمس الدين أبو الخير محمد السخاوي (ت٩٠٢هـ/١٤٩٧م) : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د.ت .
- شمس الدين محمد النواجي (ت٨٥٩هـ/١٤٥٥م) : الشفاء في بديع الاكتفاء ، تحقيق محمود حسن أبو ناجي ، دار مكتبة الحياة ، بيروت – لبنان ، د.ت .
- شهاب الدين الأبشيهي (ت٨٥٠هـ/١٤٤٦م) : المستطرف في كل فن مستظرف ، مطبعة المعاهد ، القاهرة – مصر ، ١٩٣٣م .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- شهاب الدين النويري (ت٧٣٣هـ/١٣٣٤م) : نهاية الأرب في فنون الأدب ، مطابع كوستاتسوماس وشركاه ، القاهرة ، د.ت .
- صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٣م) : الوافي بالوفيات ، تحقيق أحمد الأرنؤوط و تركي مصطفى ، دار إحياء التراث ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٠م .
- عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت٢٧٦هـ/٨٩٠ م) : الشعر والشعراء ، تصحيح وتعليق مصطفى أفندي السقا ، مطبعة المعاهد ، القاهرة – مصر ، ١٩٣٢م .
- علي بن موسى بن سعيد الأندلسي (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م) : الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار المعارف ، مصر ، د.ت .
- كامل بن حسين بن محمد الشهير بالغزي (ت١٣٥١هـ/١٩٣٣م) : نهر الذهب في تاريخ حلب ، مطبعة البارونية ، حلب ، د.ت .
- كمال الدين ابن العديم (ت٦٦٠هـ/١٢٦٢م) : بغية الطلب في تاريخ حلب ، تحقيق سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت – لبنان ، د.ت .
- كمال الدين الدميري (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) : حياة الحيوان الكبرى ، وضع الحواشي والتقديم أحمد حسن بسج ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٤م .
- محمد بن أبي الخطاب القرشي (ت١٧٠هـ/٧٨٦م) : جمهرة أشعار العرب ، ط ١ ، المطبعة الخيرية ، مصر ، ١٩١٢م .
- محمد بن أحمد بن إياس (ت٩٣٠هـ/١٥٢٤م) : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ط ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٢م .
- محمد بن أحمد بن إياس (ت٩٣٠هـ/١٥٢٤م) : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ط ١ ، المطبعة الكبرى والأميرية ، بولاق ، ١٩٧٦م .
- محمد بن أحمد بن محمد ابن طباطبا (ت٣٢٢هـ/٩٣٤م) : عيار الشعر ، شرح وتحقيق عباس عبد الستار ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٩٨٢م .
- محمد بن سلام الجمحي (ت٢٣١هـ/٨٤٦م) : طبقات فحول الشعراء ، شرح محمود محمد شاكر ، دار المدني ، جدة – السعودية ، د.ت .
- محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٣م) : فوات الوفيات ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، د.ت .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠هـ/١٨٣٤م) : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، دار المعرفة ، بيروت – لبنان ، د.ت .
- موفق الدين أبو ذر سبط ابن العجمي (ت٨٨٤هـ/١٤٧٩م) : كنوز الذهب في تاريخ حلب ، تحقيق شوقي شعث وفالح البكور ، ط ١ ، دار القلم ، حلب – سوريا ، ١٩٩٦م .
- نجم الدين محمد بن محمد الغزي (ت١٠٦١هـ/١٦٥١م) : الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، تحقيق خليل المنصور ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٧م.
- ياقوت بن عبد الله الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م) : معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، د.ت .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثانياً : المراجع الحديثة :

- إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر ، ط ٢ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٢م .
- إحسان عباس : فن الشعر ، ط ١ ، دار صادر – بيروت و دار الشروق – الأردن ، ١٩٩٦م .
- أحمد الشايب : الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية ، ط ٧ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦م .
- أحمد الهاشمي : جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، ط ٣٠ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، د.ت .
- أنور زقلمة : المماليك في مصر ، ط ١ ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩٠م .
- بكري شيخ أمين : مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ، ط ٣ ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت – لبنان ، ١٩٨٠م .
- جابر عصفور : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، ط ٣ ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ١٩٩٢م .
- حصة البادي : التناص في الشعر العربي الحديث ، ط ١ ، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع ، عمان ، ٢٠٠٩ .
- خليل شرف الدين : الموسوعة الأدبية الميسرة ٨ ، حسان بن ثابت الأنصاري من الحرية إلى الإلتزام ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٢م .
- سعيد عاشور وآخرون : موسوعة الحضارة العربية الإسلامية الجزء الثالث ، نظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين والمماليك – المرأة والمؤسسات الاجتماعية في الحضارة العربية ، ط ١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، عمان ، ١٩٩٥م .
- سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية صفحة مشرقة من تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى ، ط ١ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٣م .
- سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المملوكي في مصر والشام ، ط ٢ ، دار النهضة العربية ، القاهرة – مصر ، ١٩٧٦م .
- شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ط ١١ ، دار المعارف ، القاهرة – مصر ، د.ت .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول ، ط ١٦ ، دار المعارف، مصر ، ٢٠٠٤م .
- شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الثاني ، ط .١٢ ، دار المعارف، مصر ، ٢٠٠١م .
- عبد اللطيف حمزة : الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د.ت .
- عبده قلقيلة : النقد الأدبي في العصر المملوكي ، ط ٢ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٩١م .
- عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي ، من مطلع القرن الخامس الهجري إلى الفتح العثماني ، ط ٥ ، دار العلم للملايين ، بيروت – لبنان ، ١٩٨٩م .
- فايد حمد محمد عاشور : حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبين في العهد الأيوبي ، ط ١ ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٧٧م .
- قاسم عبده قاسم : عصر سلاطين المماليك ، ط ١ ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٤م.
- قاسم عبده قاسم ، عصر سلاطين المماليك ، التاريخ السياسي والاجتماعي ، ط ١ ، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية ، مصر ، ١٩٩٨م .
- قاسم عبده قاسم وآخرون : موسوعة الحضارة العربية الإسلامية الجزء الثالث ، أثر الحروب الصليبية في العالم العربي ، ط ١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٧م .
- قاسم عبده قاسم وآخرون :موسوعة الحضارة العربية الإسلامية الجزء الثالث ، بعض مظاهر الحياة اليومية في عصر سلاطين المماليك ، دار الفارس للنشر والتوزيع ، ط ١ ، عمان ، ١٩٩٥م .
- قصي الحسين : الأدب العربي في العصرين المملوكي والعثماني ، المؤسسة الحديثة للكتاب ، طرابلس – لبنان ، ٢٠٠٦م .
- محمد بدوي المختون وآخرون : موسوعة الحضارة العربية الإسلامية الجزء الثالث ، علم العروض ، ط ١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٧م .
- محمد حسن عبد الله : الصورة والبناء الشعري ، دار المعارف ، القاهرة – مصر .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- محمد زغلول سلام : الأدب في العصر المملوكي ، ٣- الشعر والشعراء ، منشأة المعارف ، الاسكندرية – مصر ، د.ت .
- محمد زغلول سلام : الأدب في العصر المملوكي ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، د.ت .
- محمد سهيل طقوش : تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ، ط ١ ، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٧م .
- محمد مصطفى هدارة : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٣م .
- محمود رزق سليم : الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث ، مطابع دار الكتاب العربي ، ١٩٥٧م .
- محمود رزق سليم : موسوعة عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، ط ٢ ، مكتبة الآداب ، الجماميز ، ١٩٦٢م .
- مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب ، دار الكتاب العربي ، د.ت .
- مصطفى ناصف : الصورة الأدبية ، ط ٢ ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨١م .
- نبيل خالد أبو علي : الأدب العربي بين عصرين المملوكي والعثماني ، ط ١ ، دار المقداد للطباعة ، غزة – فلسطين ، ٢٠٠٨م .
- نبيل خالد أبو علي : البوصيري شاهد على العصر المملوكي ، ط ٤ ، مطبعة دار المقداد للطباعة ، غزة ، ٢٠٠٥م .
- نبيل خالد أبو علي : دراسات في الأدب العربي في العصرين الإسلامي والأموي ، دار المقداد للطباعة ، غزة – فلسطين ، ٢٠١٠م .
- نبيل خالد أبو علي : محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ، مطبعة الوحدة ، رام الله – فلسطين ، د.ت .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الرسائل والأبحاث :

- شعيب بن أحمد الغزالي : أساليب السخرية في البلاغة العربية دراسة تحليلية تطبيقية ، رسالة ماجستير ، إشراف عبد اللطيف المطعني ، كلية اللغة العربية ، السعودية – جامعة أم القرى ، ١٩٩٥م .
- مشهور الحبازي : شعر هجاء المدن والأقاليم في زمن حروب الفرنجة دراسة موضوعية ، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات ، العدد التاسع عشر ، القدس – فلسطين ، شباط ٢٠١٠م .
- نيفين عمرو : السخرية في الشعر في العصر المملوكي الأول (٦٤٨هـ-٧٨٤هـ) ، رسالة ماجستير ، إشراف علي عمرو ، كلية الدراسات العليا ، جامعة الخليل ، ٢٠٠٩م .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٣
شكر وتقدير	٤
شكر وعرفان	٥
المقدمة	٦
التمهيد	٩
الفصل الأول : الهجاء الفردي	٣١
– توطئة : غياب الهجاء الفردي والقبلي	٣٢
– المبحث الأول : هجاء النفس والشكوى من الفقر	٤٣
– المبحث الثاني : الهجاء الهزلي	٥٣
الفصل الثاني : الهجاء السياسي والاجتماعي	٦٤
– المبحث الأول : هجاء المدن	٦٩
– المبحث الثاني : هجاء رجال الدولة	٧٨
– المبحث الثالث : الهجاء المذهبي والديني	٨٧
– المبحث الرابع : النقد الاجتماعي	٩٤

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الثالث : الدراسة الفنية .	١٠٠
- المبحث الأول : اللغة والأسلوب	١٠١
- المبحث الثاني : الموسيقا	١١٣
- المبحث الثالث : الصورة الشعرية	١٢٢
الخاتمة	١٣٢
المصادر والمراجع	
- المصادر والمراجع القديمة	١٣٥
- المراجع الحديثة	١٤٠
- الرسائل والأبحاث	١٤٣
فهرس الموضوعات	١٤٤
ملخصا الرسالة	
- ملخص اللغة العربية	١٤٦
- ملخص اللغة الإنجليزية	١٤٧

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الملخص باللغة العربية

تناولت الدراسة (شعر الهجاء في العصر المملوكي . دراسة نقدية) ، واشتملت على مقدمة، وتمهيد (البيئة العامة للعصر المملوكي) ، وثلاثة فصول : الفصل الأول (الهجاء الفردي) ، والفصل الثاني (الهجاء السياسي والاجتماعي) ، والفصل الثالث (الدراسة الفنية) ، وأنهيت البحث بخاتمة أجملت فيها نتائج البحث وأهم التوصيات .

هدف الدراسة :

توسيع الأفق بفتح أبواب ظلت مغلقة أعواماً طويلة ، في عصر أهملت الدراسة فيه ظلماً ، وأجحف في حقه بهتاناً ، وهو العصر المملوكي . فاخترت إحدى نوافذه ، المسماة بشعر الهجاء ، وحاولت التوسع في هذه النافذة قدر الإمكان ، ليكون لي الشرف لأنقل إلى كل مهتم ما وجدت فيها ، ولأنفي عن ذلك العصر التهم المنسوبة إليه .

منهج الدراسة :

المنهج النقدي التكاملي ؛ بما يحويه من مناهج تمكن البحث من الإحاطة بجميع مكونات النص الأدبي من حيث الشكل والمضمون .

نتائج الدراسة :

كشفت الدراسة عن الدور الكبير الذي لعبه شعراء تلك الحقبة ، بالتعبير عن رفضهم لكل ما هو منبوذ في بيئتهم ومجتمعهم ، من خلال أشعارهم الهجائية ، التي اتخذت شكل البناء التوفيعي ، واعتمدت في بنائها على الهزل والسخرية . كما اتسمت هذه الأشعار بتعدد فنونها وكثرة موضوعاتها ، وميلها إلى استخدام الهجاء العفيف ، والبعد عن الكلمات الفاحشة ، وقد وجهت معظم القصائد إلى عامة الناس ؛ لذا تميزت بالتركيز والإيجاز والبعد عن التكلف ، كما حملت دلالات اجتماعية تنم عن الصلة الوثيقة بين الشاعر وبيئته .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

Abstract

The study titled *Satire Poetry in the Mameluk Era : A Critical Study* includes an introduction , a preface on A General overview of the Mameluk Era , and three chapters : the first chapter deals with individual satire , the second chapter addresses political and social satire , and the third chapter includes an artistic study . The study concludes with a number of significant conclusion and recommendations .

Aims of the study

The study aims to expand our horizons through opening doors closed for many long years . The study of the Maamluk period was unjustly ignored , and therefore I choose one of its key areas which is the satire poetry in order, to have the privilege of conveying to those interested what I have found and to negate all charges Leveled against this period .

Methodology

The study used integrative critical approach which includes methods that assist the researcher to fully examine all aspects if the Literary text both in from and content .

Findinds

The study reveal the significant role played by the poets of that era by expressing their rejection of everything that was looked down upon through their satiric poetry, which took stanza strueture form . This poetry form depended on ridicule and humour and was characterized by its varied arts and tapics and a tendency towards inoffensive satire and keeping away from vulgarism . Most poems were aimed at the people so they were characterized by concentration and Concciseness and steering away from artificiality . They held social implications reflecting the close connection between the poet and his environment .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

The Islamic University – Gaza
Faculty of Arts
Department of Arabic Language
Pst - graduate Programme

Satire Poetry in the Mameluk Era

A Critical Study

Prepared by

Taghrid Abas Saqa

Supervised by

Prof. Dr. Nabeel K. Abu Ali

Submitted this letter to complement the requirements for obtaining A Master's degree in llterature and criticism

2012 AD – 1433 AH

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com